الزَّهاوي

للدكتور
ماهِر حسَن فهمي

مقدمة

هل أستطيع الكتابة عن شاعر عراقى معاصر وأنا أتنقل بين مكتبات القاهرة ؟ سؤال خطر لى وأنا أفكر فى الكتابة عن الزهاوى ، وكانت الاجابة عنه تحديا لى . وبدأت أجمع المادة ، ولكننى وجدت أننى أجتاز طريقا شديد الوعورة ، فحياة الشاعر عريضة خصبة مليئة بالأحداث التى شغل الناس بها زمنا ، وكثير من تلك الأحداث لم تسجل ولم تصل بطبيعة الحال الى مصر . وعجبت حين اتصلت بالذين عرفوه عن كثب ، فكانت أخبارهم عنه باهتة لا غناء فيها ، حتى عن حياته فى القاهرة حين قصدها ليقيم فيها فترة من عمره ، فكيف بحياته خارج القاهرة وخارج بغداد ؟

كان الزهاوى عضوا « بمجلس المبعوثان » العثمانى وعضوا « بمجلس الأعيان » ومحاضر هذه المجالس غير موجودة بالقاهرة لا بدار الكتب ولا بمكتبة القلعة ولا بمكتبات الأفراد الذين حسبت أن بمكتباتهم مثل هذه الوثائق . ثم أين صحيفة «الاصابة» التى أصدر منها ستة أعداد ، بل أين خطاباته التى كتبها ، لا أحد يدرى . والزهاوى كان رجلا اجتماعيا ، رجل نواد ومجالس فأين

أخباره . ليس أمامى الا القليل من دواوينه ومؤلفاته ومؤلفات الذين كتبوا عن حياته بايجاز وعن شعره باسهاب . وشعره قد يلقى بعض الضوء على حياته ولكن هناك فجوات كبيرة تنتظر أن تملأ .

وهناك فى بغداد حيث مكثت ثلاثة شهور ، أيقنت أن الكاتب الذى يكتب تاريخ حياة واحد من عباقرة العالم المعاصرين دون أن يرحل الى بلده لا سبيل له أن يملأ ثغرات مؤلفه بحقائق علمية . الصحف التى شغلها وشغلت به الكثير ، ولكن هذا قد يكمل منزله ، وتلك مقهاه ، وهنا مقبرته ، وهناك المدرسة التى علم بها حين بدأ حياته العملية . ووجدت بعض أصدقائه وتلاميذه وأقربائه يروون الكثير من أخباره ، ثم وجدت مكتبة المتحف وفيها من الصحف التى شغلها وشغلت به الكثير ، ولكن هذا قد يكمل كل الثغرات الا ثغرة واحدة ، لا سبيل الى ملئها الا بالحياة مع البغداديين ومنهم طبيعة البغدادى نفسه .

وجدت عند تلميذه الأستاذ أحمد الصراف ، بعض خطاباته والكثير من الأخبار التى حققتها ، وأطلعنى صديقه الأستاذ محمود صبحى الدفترى على بعض الوثائق الهامة ، وروى لى قريبه وجاره الأستاذ حكمت عبد المجيد بعض سيرته ، وأطلعنى الأستاذ بهجت الأثرى عضو المجمع بالقاهرة ودمشق على بعض مؤلفاته المفقودة ، وأعاننى الصديق الدكتور يوسف عز الدين والأستاذ هلال ناجى

مؤلف كتاب « الزهاوى وديوانه المفقود » . والأستاذ عبد الله الجبورى أمين مكتبة الأوقاف — على جمع المادة والاتصال بأصدقاء الشاعر ، فهذا المؤلف مدين لكل هؤلاء بالكثير .

وعندما شرعت فى الكتابة وجدت أمامى معضلة ثانية خطيرة ، فالمكتبة العربية ما زالت تفتقر الى المراجع عن فن الترجمة . وبعض كتاب هذه السلسلة حلوا المشكلة بأن كتبوا دراسات أدبية عرضوا فيها عرضا علميا لصاحب الترجمة ودرسوا انتاجه دراسة موضوعية ، ولكن فن الترجمة شىء وهذه الدراسات الأدبية شىء آخر فقص الحياة يختلف فى منهجه عن منهج الدراسات الأدبية .

أينبغى اذن ان يكون فن التراجم قصصيا بعيدا عن جفاف الموضوعية العلمية ؟ ان كثيرا من كتاب الغرب يلجأون الى هذا الأسلوب ، ولكن أكبر ما يتوقعه الناقد هو خطورة الانزلاق مع الخيال بعيدا عن الحقيقة التى هى الهدف الأول فى كتابة فن الترجمة ، والكثيرون من كتاب التراجم فى الغرب الذين يلجأون الى هذا الأسلوب قد وقعوا فى هذا الفخ ، وبعضهم أعرض عن دراسة انتاج صاحب الترجمة تماما لأن الدراسة العلمية لا تتفق مع المنهج القصصى ، ويكفى أن تقرأ أى كتاب فى تاريخ التراجم الغربية لنرى كل ذلك .

لم يكن أمامى الا أن أمزج بين الأسلوبين فالطابع العلمى يوشيه روح قصصية تخفف من جموده ، خاصة فى الباب الأخير

الذى يعرض للزهاوى الحكيم محاولا فهم اتجاهه . ولكن الحقيقة كانت دائما هى الهدف الأول الذى أسعى اليه . وبالرغم من العقبات التى لقيتها فى هذه الدراسة ، فقد استطعت أن أضيف جديدا الى أخبار هذا الشاعر الفيلسوف ، وأن أصل الى نتائج جديدة أيضا فى فهم هذا العبقرى .. !!

ماهر حسن

الباب الأول

بَغْداد

بغداد وما حولها

عندما انتصف القرن التاسع عشر ، كانت دولة المماليك قد غرب شمسها عن العراق ، وأصبحت ولاية تابعة تبعية مباشرة للأستانة . ولكن الوضع السياسى لم يتغير كثيرا أو قليلا ، فالوالى هو مركز الادارة يساعده بعض كبار الموظفين كالدفتردار والقاضى والخازندار . ولا أمر فوق أمره ولا سلطة تحد من طغيانه ما دام يقدم للدولة العثمانية — فى الآستانة — ما تعهد به من ايراد سنوى . كان بوسعه أن يحطم أى شخص وكثيرا ما حطم ، وكان بوسعه أن يصادر الأملاك دون معقب ، وما أكثر ما صادر من أملاك .[١] .

وكانت هناك قوتان يستعين بهما لحفظ سلطانه هما الدرك والجيش ولم تكن تلك قوات بالمعنى المفهوم بل جماعات مجهزة تجهيزا رديئا ، ولا تدفع اليها رواتبها بانتظام ، أسلحتها متنافرة وملابسها مختلفة ، وتدريبها سيىء[٢] . ولذلك لم تكن تقوى على مطاردة اللصوص فى الداخل ، ولا على صد غارة من الخارج ، وكل مهمتها التنكيل بالعشائر ان ثارت ، وبالمدن ان عجزت عن

---

(١) العرب والترك ص ٥ .
(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٩٩ .

دفع الضرائب . وعندما يشترى الوالى منصبه ، كان يبغى أن يسترد أمواله بأسرع ما يمكن لأنه لا يأمن أن يبقى فى مركزه أمدا طويلا ، ولأنه يحتاط للمستقبل لكى يتمكن من شراء منصب جديد ، ومن هنا كان يجمع الضرائب بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة ، ويغتصب الأموال ويباهى بجبروته [1] . ومن الحق أن نظام الالتزام قد ألغى أيام السلطان عبد المجيد ، واستبدل به نظام للضرائب جديد ، فيجمعها جباة رسميون حسب دخل كل فرد ، ولكن اذا عرفنا أن ثمانية عشر واليا قد تداولوا العراق فى النصف الثانى من القرن الماضى ، أدركنا أن الوضع لم يتغير كثيرا .

كان العراق ولاية من الولايات العثمانية ، ولكن ما أبعد الفارق بينه وبين جيرانه ، وما أشد التباين بين الولايات العثمانية ، فمصر أيضا كانت تابعة للدولة العثمانية حتى دهمها الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ولكنها لم تكن على شاكلة العراق . فقد كانت فيها حياة نيابية وحركة فكرية ومن أجل ذلك لجأ اليها الأحرار من الترك والعرب . لجأ اليها المؤرخ مراد الداغستانى والشاعر ولى الدين يكن . ولجأ اليها محمد رفيق العظم وأسس « جمعية الشورى العثمانية » لمحاربة استبداد السلطان عبد الحميد ، ولجأ اليها الكواكبى وأديب أسحق ، كما لجأ اليها هؤلاء من السوريين الذين أسسوا صحيفة « الأهرام »

---

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ١٤ .

والكوكب الشرقى و « التجارة » وغيرها [1] . وكان فى مصر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وكلهم أعلام فى رواية القرن الماضى الخالدة ، حملوا مشعل اليقظه والحرية ، وأحرق اللهيب أصابعهم ، ولكنهم استطاعوا أن يضيئوا للوطن العربى الطريق ، حتى تهب نسمات الفجر .

كان جمال الدين يهز العالم الاسلامى ويحاول أن يزيح الجو الخانق الذى لبد سماء الشرق . وتنعكس حدة طبعه على نبراته وهو يردد للناس كلماته الخالدة عن الحكومة والشعب ، وعلاقة كل منهما بالآخر . فالتاريخ قد علمنا أن الحكومة مهما كانت صالحة لا يستقيم أمرها الا اذا سرى الوعى قويا بين أفراد الشعب » ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية . والكواكبى يشغل الناس بحديثه عن الحرية والاستبداد . فالحرية على ما قد يكون فيها من مظان الفوضى خير من الاستبداد على ما قد يرى فيه من مظان النظام ، لأن الاستبداد يفسد الدين والأخلاق وهو أصل التأخر والفقر والجهل . ومحمد عبده يعقد الندوات لمريديه كما كان يفعل أستاذه جمال الدين الأفغانى ويتحدث عن الاصلاح الدينى والاجتماعى وأهمية الثقافة والتحرر من الجمود [2] .

وكان موقع الشام على البحر المتوسط قد يسر له الاتصال بالفكر الغربى كما كانت البعثات الأجنبية تعمل عملها فى غرس

(١) حركة البعث ص ١٠٤ .
(٢) قاسم أمين (الفصل الأول) .

الفكر الغربى أيضا فوجدنا الكتاب والمفكرين يناقشون فكرة الحرية والدستور وحقوق الانسان . فهناك حلقة الشيخ طاهر الجزائرى فى دمشق يتحلق حـوله فيها صفوة المفكرين [1] ، وهناك أيضا مقالات فرنيسيس فتح الله المراش ومؤلفاته التى يحاول فيها تنبيه أذهان العرب ، وتحريضهم على نبذ الاستبداد والعبودية فى ظل الأتراك [2] . ومن هنا تألفت عام ١٨٧٥ جمعية سرية تضم بعض الشبان من المسيحيين والمسلمين الذين درسوا فى الكلية الأمريكية ببيروت، وكان لها فروع فى دمشق وطرابلس وصيدا ، وكانت تثير النفوس ضد مسـاوىء الحكم التركى ومحاولة القضاء على اللغة العربية واغتصاب الأتراك للخلافة من العرب ، ولها أهداف ثورية .

كل هذا كان يحدث فى مصر والشام ، والعراق مستسلم . والواقع أن سياسة عبد الحميد كانت ترمى الى السيطرة المطلقة على الولايات العربية ، وكبت حركات التحرير ، ولكن المعارضة العربية التى تزعمها فريق من النواب أكثرهم من العرب لم تهدأ . ومصر فى ذلك الوقت كانت قد استقلت استقلالا اسـميا ثم وقع الاحتلال فابتعدت عن قبضة عبد الحميد تجاهد سيطرة المحتل ، ولذلك نجد المعارضة يتزعمها نواب من الشام ، من حلب والقـدس وبيروت وطرابلس [3] . وكانت النتيجـة أن حـل

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراعيها ص ٤٩ .
(٢) العرب والترك ص ٢٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

عبد الحميد « مجلس المبعوثان » ، وحاول أن يوطد مركزه عن طريق نشره لفكرة الجامعة الاسلامية ، فنشر الدعاة فى أنحاء العالم الاسلامى لترويج الفكرة ، محاولا بذلك اجتذاب قلوب المسلمين وجمعها حوله . فالخلافة هى حصـــن المسلمين من ألاعيب الاستعمار والخلافة والسلطة شىء واحد ، والخليفة هو أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين وهو حاكم المســلمين كذلك . لكن هذه الحماسة الفياضة لفكرة الجامعة الاسلامية ، ما لبثت أن هدأت بعد حين ويبــدأ النــاس يفكرون فيرون الدستور وئيدا ، وسيف الاستبداد يبرق فوق رقابهم ، وكانت مبادىء الثورة الفرنسية قد بدأت تغزو عقول الشرقيين بصورة قوية ، فتجمعت كل نداءات الأحرار فى صيحة واحدة مطالبة بالدستور .

كان العراق مستنيما كما رأينا ، لا تكاد تهزه الأحداث القوية التى كاقت تضطرب الى جواره ، ولا تكاد توقظه أشعة النور من حوله [١] بينما كانت النهضة تأخذ طريقها الى الشام ومصر بحكم الصلة بينهما وبين الغرب عن طريق الغزو أو الارساليات التبشيرية أو البعثات الخارجية والعراق بلد زراعى ، والبلدان الزراعية قليلة الثورات مرتبطة بالأرض أشد الارتباط ، وارتباطها بالأرض يعودها الاحتمـــال والصـــبر والانتظار ، فهى لا تكاد

---

(١) حاول أحد الباحثين أن يتحدث عن اليقظة فى مصر والشام والعراق فقصر حديثه على مصر والشام ولم يجد ما يقوله فى العراق (انظر الفصل الأول من كتاب العرب والترك) .

تلتفت الى الحياة الخارجية أو النظم السياسية الا فيما يمس معتقداتها ودينهـا ، فاذا عرف الحـاكم ذلك ، وفق لفرض سلطاته [1] .

على أن الآفات الزراعيـة والأمراض البشرية كانت كثيرة فتاكة تجتاح الزرع وتقضى على ألوف الناس كل حين ولا يكاد يختلف استهلاك الفلاح للمواد باختلاف المنـاطق ، فهو فى الشمال يعتمد فى معاشه على خبز الشعير والحنطة وفى الجنوب على خبز الأرز ، وقد يصيبه شىء من لبن أو تمر . ولذلك فان سوء التغذية وأمراضها منتشرة الى أبعد الحـدود فى أوساط الفلاحين . ومستوى المعيشة بوجه عام شـديد الانخفاض فلم تكن هناك صناعة عدا الصناعات اليدوية الصغيرة البسـيطة كالنسيج والأوانى وبعض المأكولات ، والتجارة مع الخـارج محدودة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ثم افتتاح قنـاة السويس . ومنذ تحولت الممرات التجارية بين الشرق الأقصى وأوربا بعيدا عن العراق تدهور اقتصاديا حتى أصبح الشعير والتمور وحدهما أهم صادرات العراق ، وحتى أصبح هـذا البلد الاقطـاعى الخصب من أكثر ولايات الدولة العثمانيـة تأخـرا [2] .

أما المواصلات فقد كان البغل والحصان والحمار والجمل هى وسائل النقل العامة ، ولكن الوالى « مدحت » استطاع أن

(١) السنن النفسية لتطور الأمم ص ٦٨ .
(٢) محاضرات فى اقتصاديات العراق ص ١٥ ـ ٣٤ .

ينفذ مشروع « الترامواى » فبدأت عدة عربات تقطع بعض الطرق الرئيسية فى بغداد ، ثم أنشىء خط آخر بين الكوفة والنجف فى نهاية القرن . ولقد كان التخوف من العواقب الاجتماعية التى تأتى بها الاصلاحات الجديدة ، ورءوس الأموال القليلة والجمود العام ، أسبابا رئيسية لهذه الحال حتى أن بغداد بقيت الى أول القرن العشرين ، وليس فيها غير شارع واحد يمكن للعجلات السير فيه وعلى ذلك بقى التاجر يستخدم الحمير والحمالين فى نقل بضاعته . ولم يكن المزارع فى أكثر الأحيان يفرق بين الأرض المزروعة والطريق فيحرث الاثنين معا وتتعسر المواصلات . واذا كانت « شركة الملاحة الأهلية » وبعض الشركات الأجنبية استطاعت أن تسير بعض البواخر النهرية فى دجلة والفرات ، فقلما كانت تستخدم فى نقل البضائع ، بل لم تكن تسير باخرة جديدة الا بفرمان عثمانى [1] . وكثيرا ما أتلفها الصدأ وسوء الاستعمال فأصبحت واحدة منها أنقاضا وغرقت الثانية واحترقت الثالثة وبقيت البواخر مهملة حتى أشرفت على التلف . ولم يكن البريد الحديث موجودا بالعراق ، فقد كان الولاة يتصلون « باستانبول » بواسطة الخيالة مثلما كان يحدث فى القرون الوسطى . ثم افتتحت عام ١٨٦٨ دوائر بريد بريطانية — هندية فى بغداد والبصرة . ولكن البريد لم يكن ينتقل الا الى — البلاد الواقعة على الأنهر عن طريق البواخر . ثم

---

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٨١ ، ٣٠٥ .

شاركت الدولة العثمانية بعد ذلك بعشر سنوات فى الاتفاقية العالمية للبريد ، فمدت خطوط التلغراف الى البلدان الكبيرة بالعراق ، ولكن ضياع الأسرار كان كثير الحدوث (١) .

والى جانب هذا التأخر الاقتصادى كانت الحياة الاجتماعية تضطرب اضطرابا كبيرا فهناك السنة والشيعة والعرب والأكراد والأتراك والايرانيون ، والعشائر وأهل المدن . وكانت « كل حكومة شيعية مثلا تلاقى حتما بعداوات كردستان وشمالى العراق وكثير من أواسط العراق . كما أن كل حكومة سنية كانت لابد أن تلاقى معارضة المجتهدين فى كربلاء والنجف ، وذلك علاوة على معارضة القبائل الشيعية (٢) ومن الواضح أن هذا الصراع امتداد للصراع القديم بينهما منذ حروب على ابن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . والشيعة لا يعتبرون أنفسهم خصوما لمبدأ السنة بل يعتقدون أنهم وحدهم الذين يعملون بالسنة الصحيحة .

وما زال للشيعة تقاليدهم فى الاحتفال كل عام بيوم « عاشوراء » فقد جعلوه يوم حداد على نكبة الحسين فى « كربلاء » ويبكون بكاء مرا يكفرون به عن ذلك اليوم . وهم يحجون الى قبور العلويين بالعراق ، ويزورون الأماكن التى قدستها الذكريات العلوية . واذا كان بعض المصريين اليوم يحتفل بيوم « عاشوراء » أو يزور أضرحة آل البيت ، تقليدا

---

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق ص ٣٠٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٩ .

للموروث منذ عهد الفاطميين ، فان هذا لا يقاس بما يفعله الشيعة فى العراق .

وأغلب السكان من العشائر التى تقطن جنوبى العراق فى شكل قبائل أشهرها تميم وشمر والخزاعل وعنزة والبومحمد [1] وتعيش هذه العشائر حياة قبلية صرفة مثلما عاش أجدادها لا تكاد تحس بدوران الزمن من حولها . والسيد فى القبيلة هو الشخص الذى حنكته التجارب ، وتوقيره واجب على القبيلة أما صفاته فكثيرة منها الشجاعة والكرم والنجدة ولابد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات . وكل فرد فى القبيلة يضع نفسه فى خدمة حقوقها وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها وقد يقبلون الدية . وكل قبيلة مستعدة دائما للحرب ضد الوالى اذا مس حقوقها ومستعدة كذلك للاغارة على من حولها من البدو والحضر .

وتقطن هذه القبائل عرائش فسيحة يقال لها « صرايف » وهى تقوم على أعمدة كثيفة من قصب ملفوف باحكام ، وفوق هذه الأعمدة حصر مفروشة على شكل أسطوانى تقوم بتظليل المنزل . تلك هى منازل العشائر التى يكثر فى أطرافها القصب والبردى ، فيتخذون منها مساكن لهم . أما التى لا تملك ذلك فبيوتها مبنية

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٧٥ وما بعدها .

من اللبن على شكل أكواخ صغيرة حقيرة لا ينفذ اليها الهواء الا فى النادر على أن منازل شيوخ القبائل مبنية على وجه العموم بالآجر، وهى متوسطة السعة ولبعضهم قصور حجرية فخمة مبنية على الطراز الصحى الحديث ومؤثثة بأفخر الأثاث وأحدثه . ولابد لكل مسكن من مساكن الشيوخ من « مفتــول » يقام بجانبه ويتخذ وقت الحرب مقذفا يتحصن فيه بعض الأفراد . وهو يبنى عادة فى سهل واسع بشكل برج مستدير يصعدون الى قمته بدرج لولبى كأنه قد فتل فتلا .

فاذا صار المساء فى فصل الصيف ، خرج الرؤساء والضيوف الى جوار المنازل فيجلسون على بسط وطنية ممدودة على الأرض بشكل مربع أو مستطيل ، وفى زاوية أو فى الوسط « كانون » القهوة يلتهب التهابا والناس بين محدث وسامع يسمرون الى ساعة متأخرة من الليل . واذا ما أقبل أحد أفراد العشيرة تقــدم الى الشيخ يسلم عليه أو يقبل يده ، فيقابله الشيخ بالقيام على قدميه ثم يأذن له بالجلوس فى المكان المناسب له ، وتأتى القهوة ، فيصب له منها فنجانان أو ثلاثة .

وتتجلى السذاجة فى ملابس العشائر بأجلى مظاهرها . ولباس الفــرد يتكون من جلباب يصنع من صــوف الغنم ويسمونه « زوينى » بالتصغير والنسبة . ثم عقال وعباءة وهما من المنسوجات الوطنية الكثيرة فى العراق .

ولابد من شد نطاق على الجلباب ، يضعون فى وسطه خنجرا أو مقوارا ، وهو هراوة فى رأسها كتلة من القــار المتصلب .

والخنجر والمقوار من الأدوات الحربية المهمة عند العشائر فى كل وقت ، ولا يستغنى فرد عن أحدهما . والرؤساء لا يختلفون عن الأفراد بلباسهم الا من حيث جودة القماش ونفاسته ، على أن فيهم من يضيف الى الجلباب قباء يسمى فى العـراق « الزبون » . ولا يلبسون فى أرجلهم شيئا اذا استثنينا الرؤساء الذين يلبسون الأحذية . وأما النساء فيكتفين بدراعة سوداء (فستان أسود) ومقنعة يسمونها « فوطة » يلففنها فوق الرءوس وتغطى الرقبة ، ولبعضهم حجول فضية وفى أنوفهن خزامات ذهبية وفى أيديهن معاضد زجاجية وفى آذان بعضهن أقراط من ذهب .

وتعيش هذه القبائل على الرعى وغنائم الحرب والزراعة . والفلاح العراقى بصفة عامة — سواء أكان يعمل فى أرض القبيلة أو فى أراضى الاقطاعيات — يحرث أرضه ويبذرها ثم يوجه عنايته الى الزرع فيسقيه ويحافظ عليه حتى اذا حصد اكتفى بشىء زهيد من ذلك ، وشأنه فى ذلك شأن الفلاح الشرقى بوجه عام فى القرن الماضى .

وطعام المزارع العراقى ساذج كل السذاجة ، بسيط غاية البساطة ، لا يتجاوز نوعا من الذرة يسمى « دنانا » مع شىء من الأرز يطهونه بلا سمن فى أكثر الأحيان ، وقليل من التمر . فاذا نظر سكان المدن الى هذا الطعام ربما غثيت نفوسهم وعافته .

ولا ينبغى أن نحسب أن ذلك الطعام هو نفسه ما يأكله رؤساء العشائر وشيوخهم ، فهناك نجد أنواع الفاكهة الوطنية والأجنبية وخضراوات من كل صنف وسائر الحلوى . واذا ما قصد ضيف

هاتيك الجهات وجد الكرم العربى الأصيل الموروث الذى لم تتلفه المدنية ، ولم يذهب بأصالته تعقد الاقتصاد الحضرى وأثره فى النفوس .

فهناك يرحب به الأفراد والشيوخ ترحيبا عظيما خاصة اذا كان مدنيا « أفنديا » تلوح عليه سمات الوقار والنجابة ، فيجد من الكرم ما لا يصادفه بين أهله وخلانه .

والعقائد الدينية عميقة فى حنايا أهل العشائر ، محتفظة بقدسيتها لم تذهب بعمقها مذاهب مادية ، ولم تغير من بساطتها ضروب الفلسفة . ولذلك فهم متمسكون بآداب الدين تمسكا وثيقا لأنهم لم يختلطوا بسكان المدن الا نادرا ، وفى فترات معينة لم تمكنهم من الاطلاع على التطور الذى حدث حتى بعد الاحتلال. وهم يقيمون الشعائر الدينية ومراسمها فى كل أوقاتها . ويأتى اليهم جماعة من النجفيين يدعون « موامنة » جمع « مؤمن » لاقامة المآتم للحسين بن على ، وبعضهم يدربون الأفراد هناك على تفهم العبادات ، ويحثونهم على أداء الزكاة وحج البيت . وهم يأتون الى العشائر لأنهم يعرفون أن الجهالة متفشية بينهم فليس هناك غيرهم يستطيع أن يثقفهم فى شئون الدين . وليس فى العشيرة غير فرد واحد فى أغلب الأحيان يستطيع القراءة والكتابة مهما كثر عدد أفرادها ويسمونه « الملا » .

والذى يتأمل حالة المرأة البدوية أو الريفية ويقارن بينها وبين المرأة فى المدينة يجد البون بينهما شاسعا . فالأولى حافية سافرة تشتغل ليلها ونهارها فى تأمين حاجات بيتها لا تعرف الكلل ، وكثيرا

ما تقوم مقام زوجها فى الترحيب بالضيوف وانزالهم واطعامهم وتأمين راحتهم . أما الثانية فلا تخرج من دارها الا للضرورة وقد يساعدها الخدم فى ادارة منزلها . وهى اذا خرجت تحجبت بحجاب كثيف ولا تحادث غير زوجها وأقاربها من الرجال . [1] .

تأصلت عادة الغزو فى نفوس العشائر ، كما قلنا منذ أقدم الأزمنه ، ففى كل حين غارة على عشيرة أخرى أو على مدينــة تشيع الاضطراب فيها . وكانت العقلية التركية الحاكمة تعدهم كواسر يعارضون الحكومة قصدا للأذى ، ولكن أحدا من الولاة لم يفكر جديا فى حل لمشاكل العشائر ، وكل ما كانوا يفكرون فيه هو انزال ضربات موجعة بهم من حين الى حين . وقد فشلت سياسة تفكيك القبائل والقضاء عليها لأنها لم تكن مبنية على خطة مدروسة عادلة . وما أكثر ما أغارت قبائل عنزة وشمر والزبيد على بغداد نفسها ، اذا ما آنست ضعفا من الوالى أو قسوة وسوء تدبير [2] .

وقد استطاع الوالى « مدحت » حوالى عام ١٨٧٠ وضــع خطة لتوزيع الأراضى على القبائل لتوطينهم ليأمن غاراتهم . فهم اذا ما خضعوا لنفوذ الحكومة من حيث ضرائب الأرض وضرائب الأفراد مهما كانت صورية ، واحتكوا شيئا فشيئا بالمدن من حولهم ، تعودوا النظام وتوارت الرغبة العارمة فى المقاتلة ، وهم فى الوقت نفسه يجدون حياة مستقرة جديدة ربما كانت أكثر

---

(١) الأغانى الشعبية جـ ١ ص ٩ ــ ٢١ .
(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .

رفاهية ، وبذلك تستطيع القوات الحكومية أن تحصرهم أو تقضى على فتنهم وثوراتهم اذا ما فكروا فى الثورة . وقد استطاع « مدحت » توطين بعض القبائل عن طريق الترغيب والترهيب ، « وتغلغل النفوذ التركى أكثر ، واذا الطربوش يشاهد فى كل قرية »[1] . ولكن القبائل بالرغم من كل ذلك بقيت تعيش على عاداتها التقليدية والاعتزاز بأنسابها ولم يكن يخلو الأمر من حين الى حين من غارة تشن هنا أو هناك . ولا شك أن من أهم الأسباب التى حركت الحكام الأتراك الى هذا ، هو محاولة تشديد قبضتهم خوفا من حركة كحركة الوهابيين فى الجزيرة أو حركة محمد على فى مصر .

أما سكان المدن وهم الجماعات المستقرة ، فقد كان بيدهم أمور التجارة وبعض الصناعات البدائية لسد حاجات العراق الساذجة فى ذلك الوقت . وكان منهم جماعة المتعلمين على قلتهم ، وقد برز فيما بينهم بعض شعراء هذا العصر وعلمائه الدينيين ، وسكان المدن هؤلاء هم الذين يكونون الطبقة الوسطى .

واذا كانت الطبقة الوسطى القوية فى المجتمعات المتقدمة هى التى تحفظ التوازن بين الطبقة الفقيرة والطبقة الغنية من الرأسماليين أو الاقطاعيين ، فمن المؤكد أن الطبقة الوسطى فى العراق بوضعها هذا فى تلك الفترة لم تكن تحفظ توازنا بين الفلاحين ورجال العشائر وبين الطبقة الحاكمة من الأتراك التى لها كل الامتياز ولها وظائف الدولة الكبيرة وقيادة الجيش والدرك

(١) المرجع السابق ص ٢٩٧ .

والاقطاعيات الضخمة . وكانت تحف بالوالى ولا هم لها الا استرقاق الطبقة الفقيرة من الفلاحين واستغلال التجار والتعالى على أبناء الشعب ، وجمع المال فى أسرع وقت ممكن [1] .

ولكن كيف كان الناس يحيون فى المدن ، وكيف كانت بغداد على وجه الخصوص ؟ ان طيف الماضى لا يبرح خيالنا اذا ما ذكرنا عاصمة الرشيد الزاهرة ، فهل بقى من أمجادها شىء ؟ وهل أبقى الزمن عمائرها كما كانت بالأمس ، ورعى أيامها الخصبة ؟ اذا دخل عربى مدينة بغداد من الجهة الغربية يرى ناحية الكرخ عند الجسر على الجانبين عددا من المقاهى ، ثم يرى صفين آخرين ناحية الرصافة ، واذا مشى فى شارع السلطان الى جامع مرجان يرى بين كل مائة متر وأخرى جماعة من الناس يدخنون « الأراكيل » ويلعبون « الطاولة والشطرنج » فالمقاهى كثيرة كثرة ملفتة للنظر ، والحياة الفارغة التى يحياها أهل بغداد لا سبيل الى ملئها الا بالجلوس فى المقاهى ساعات طويلة . والى جانب المقاهى تكثر الحمامات فى كل الأحياء وهى ببناياتها ترد المرء الى العصور الوسطى ، حيث كانت من معالم المدن فى الشرق . والمساجد أيضا تنتشر فى كل مكان ببغداد لأن الصراع الدينى الذى تحدثنا عنه قد ولد وعيا دينيا ، فعددها أكثر من الحمامات ومن المقاهى ، وهى تؤكد للمشاهد أن الشعب محافظ على دينه شديد التمسك به [2] .

---

(1) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ٢٤ .
(2) قلب العراق ص ٣٢ .

واذا ما تجولنا فى بغداد طالعتنا المنازل ، وقد بناها البغداديون كما يبنى من لا يأمل طول الاقامة بناها كل على ذوقه وحسب اقتداره ، دون تصميم أو نظام مدنى متسق برعونه ، فنشأت من الجدران المستقيمة جدران معوجة ، وعلت السطوح سطوح متنافرة . والمبانى لا ترتفع أبدا لأن قيظ الصيف جعل البغدادى يحب رطوبة الأرض أو سكنى « البدروم » . والشوارع ضيقة بصفة عامة يشتد ضيقها فى الأحياء الشعبية ، ولكن ما بال المنازل قديمة كأنما هى موروثة من عهود وعهود ؟ لا شك أن النـاس قد تركوا بيوتهم على هذا الوضع السيىء حتى لا تلفت أنظـار الوالى وأتباعه فيرهقونهم بالمطالب أو يلجأون الى مصادرتها [1] ، والى هذا الحد تمركزت صور الحياة حول الحاكم . ولكن بالجهة اليمنى من دجلة فى الكرخ ، نجد دورا على شاطىء النهر جميلة بوداعتها ومساحتها ونخيلها وفى الجهة الشرقية من بغداد فى الرصافة — التى خلدها « على بن الجهم » فى بيته المشهور — كما فى الكرخ مبان فسيحة ولكنها قديمة أيضا . فهاتان الناحيتان قديمتان اسما ورسما وكل الأزقة فى الرصافة وفى الكرخ تفتقر الى النور والهواء النقى والنظافة ، ومبان تكاد تنحنى فتلتقى بالمبانى التى أمامها ، وسكانها أشباح من الماضى . وفى بغداد سوق وان تكن واحدة ، الا أنها عامرة تمتد من الجنوب الى الشمال . وهناك يزدحم الناس للبيع والشراء ، ولا يملك المرء الا أن يستسلم الى أطياف التاريخ وهو يقارن بين ذلك السوق وبين أسواق

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ١٥ .

بغداد العديدة فى العصر العباسى فقد كان هناك سوق للملابس وسوق للطيور وسوق لكل بضاعة حين كانت الحياة فى أوج عزها .

وهناك فى قلب المدينة أصوات أبدية من الماضى ، هى أصوات المطارق تطرق النحاس ، المنافخ تنفخ فى نار الصاغة والحدادين . ومن الصناعات التى اشتهر بها العرب فى الماضى ولا تزال منها أمثلة فى بغداد صناعة الحفر فى الخشب وهى عربية ، وصناعة الزجاج المركب فى أطر مذهبة ، وقد أخذوها عن الفرس .

ولكن ما أبعد الفارق بين بغداد فى القرن الحاضر وبغداد الرشيد ، لقد كانت القصور زمن الرشيد زجاجها مذهب وأبوابها محفورة ومطعمة ، أما فى القرن الماضى فهى بضاعة سوقها لا تنفق .[1] .

واذا ما سرت تستعرض ملابس أهل بغداد وجدت ألوانا وأشكالا عديدة ، فهذا يلبس طربوشا أو عقالا وذاك عمامة وأول ما يستدعى البصر من العقل ، العقال الصوف البنى الضخم ، فاذا رأيت عقالا أسود اللون فهو من أهل البصرة قادم الى بغداد ، الا اذا كان شيخا ، فالشيوخ والمسنون وحدهم الذين يلبسون العقال الأسود . ولهذا العقال فى بغداد أشكال ، فان كان ذا لفتين سمى « ظيتين » وان كان ذا ثلاث أو أربع لفات عرف « باللف » . أما العقال الأسود البسيط فيدعى قحطانى ، ولا عقال بغير « كوفية » ولها ما للعقال من المعانى والأشكال . أما العمامة ،

(١) قلب العراق ص ٤٢ ــ ٥٦ .

فالشاب المتدين طالب العلم يلفها رقيقة فوق الطربوش والتـاجر أو الوجيه الشيعي يجعلها من الحرير المقصب . أما الأفندى فيلبس الطربوش فاذا ما نظرت الى الملابس التى تستر الجسم ، وجدت العباءة ، وهى سوداء مطرزة بالأسود أو بالفضة أو بالذهب ، هذا فى الشتاء أما فى الصيف فهى بيضاء أما ما تحت العبـاءة فلا تكاد تميز البغدادى عن السورى . وأما الذين يلبسون الطربوش فلا يلبسون العباءات ، وانما يستبدلونها بالصدارة [١] .

وقد بقيت ببغداد بعض الآثار القديمة كالمدرسة المستنصرية . وقد بقيت أيضا عليها بعض عبارات خطت فى أوائل القرن السابع الهجرى ، فوق جدار بارز على السطح ، تنبىء أن المدرسة شيدت بأمر الخليفة المستنصر ، لتعلم فيها المذاهب الاسلامية الأربعة الحنفى والحنبلى والشافعى والمالكى . فهى أشبه بجامعة دينية قديمة كالأزهر ، وان كان الزمن قد عفا عليها فلم تبق منها الا آثار ومعالم . أما المئذنة القديمة القائمة فى قلب الجانب الشرقى من المدينة ، فقد كانت زمن العباسيين وسط جامع كبير بنى فى زمن هارون الرشـيد . وهى وبقية المساجد القديمة توحى بالطابع الأصيل للفن الاسلامى فى ذلك العصر القديم . وهناك بعض المقابر الأثرية كقبر الامام أبى حنيفة وقبر المرأة المجهولة [٢] ولكنها معالم قليلة اذا ما قيست بالآثار المصرية فى القاهرة .

وفى بغـداد أكبر عـدد من الموظفين « الأفندية » ولكنهم

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

لا يملكون من الثقافة العقلية سوى معرفة القراءة والكتابة . وقد كانوا يحتقرون القبائل والفلاحين ويتكلمون اللغة التركية ولو كانوا بين العرب . وبالرغم من دقتهم فى عملهم فقد كانوا بعيدين عن روح الخدمة العامة[1] ويبدو أن وضع الموظفين ظل سيئا من حيث الثقافة ومن حيث التكالب على جمع المال بأية وسيلة [2] وقد كانت الأوساط الرسمية تبغى الاحتفاظ بممارستها للحكم المطلق وبذلك استبعدت من الوظائف الهامة النشطين الأكفاء أو ذوى الشخصيات الممتازة فرجحت كفة العجز وعدم الكفاية [3] .

لم يكن الولاة اذن يفكرون فى البلاد وتقدمها لأنهم غرباء عنها ، حتى لقد تعجب اذا علمت أن بغداد عاصمة العراق خلت من طبيب يداوى المرضى فغدا العراق مرتعا خصبا للأوبئة من حين الى حين تجرف أمامه سكان المدينة الحزينة [4] حتى اذا أتم القرن الماضى ربعه الثالث أنشئت فى بغداد مستشفى عامة ، ولم يكن هناك غيرها فى العراق .

ولا تكاد ترى امرأة فى الطريق العام وحدها ، بل لا تكاد تبصرها على الاطلاق ، فقد حجبت فى البيت ومنعت من الاختلاط . ويعتبرها الرجل عبئا ثقيلا ، ويفرح أشد الفرح ويبتهج أشد الابتهاج يوم يولد له ولد ولو جر عليه النكبات . فهى شيطان

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦٨ .
(٢) صور من العراق ص ٢٢ .
(٣) العرب والترك ص ٥٧ .
(٤) الشعر العراقى فى القرن التاسع ص ٢٥ .

يجب مراقبتها مراقبة شديدة وحرمانها من الكتابة حتى لا تتخذها سبيلا الى أغراض فاسدة . وكثرت الأمثلة الشعبية التى تبين موقف المجتمع منها فهم دائما يرددون « ألف ولد مجنون ولا بنت خاتون » . ولا شك أن ذلك يرجع الى طبيعة العصر وما فيه من اضطراب واضطهاد ، فالرجل لا يأمن على عرضه ، فاضطر الى حجب نسائه عن الأعين ، بل والى اضطهادهن كذلك[1] .

والواقع أن الشرق الاسلامى كله كان فى ذلك الوقت قد وأد المرأة وأدا معنويا ، ولم يكن يعترف أنها مساوية له لا فى العقلية ولا فى الملكات الأخرى . وعادة الحجاب بهذا الشكل الموروث ليست اسلامية فالاسلام يبيح كشف الوجه واليدين . ولكنها مأخوذة عن أمم أخرى وليست من الدين فى شىء [2] .

وقد كان الحجاب فى ذلك الوقت بصـــورته المعروفة التى تغطى الوجه وبتقاليده الموروثة من منع المرأة عن التعليم وحجبها عن الحياة وسجنها فى بيتها ، حائلا شديدا بين المرأة وارتقائها ، وبينها وبين فهم طبيعة التربية السليمة للنشء ، ومن هنا كانت نسبة الوفيات بين الأطفال كبيرة .

ولكن ارتباط الحجاب بالفضيلة وبالدين فى أذهان العامة أكسبه شيئا من القداسة بحيث أصبح من العسير على الرجل مهما قاسى من جهل امرأته أن يفكر فى مساواتها بالبدوية أو الفلاحة فتسفر أو تقابل الضيوف أو حتى تخرج من بيتها لأمر من الأمور . فهى

---

(١) المرجع السابق ٢٤ .
(٢) قاسم أمين ص ١٣٨ ــ ١٤٢ .

كم مهمل لا يحسب له حساب فى الحديث عن الحياة الاجتماعية أو الوضع الثقافى .

واذا كانت المرأة فى العراق قد حرمت من العلم فهل كان عدد المتعلمين من الرجال كبيرا ؟ الواقع أنه لم يكن فى العراق من وسائل التعليم غير بعض الكتاتيب المنتشرة فى الأزقة تعلم الأطفال القرآن وبعض المبادىء الأولية فى الحساب فاذا ما أتم الصبى تعليمه الأولى فأمامه العلم فى المساجد ومدارس بغداد والنجف الدينية ، وهى تدرس النحو والصرف والبلاغة والفقه ويشترط بعض الأساتذة على الطالب حتى يجاز أن يعرف كيف ينظم الشعر . وطريقة التعليم كالأزهر فى مصر يتحلق الطلاب حول الأستاذ يناقشهم ويناقشونه .

ولم تكن هناك فصول ينقل الطالب اليها كل عام ، ولكنه متى انتهى من درس يدرس غيره حتى يتقن العلوم العربية والعلوم الدينية [1] وكان للحكومة مدرسة ابتدائية فى مركز كل قضاء عدا المدارس العسكرية ، وقد أسست مدرسة ثانوية للبنين عام ١٨٧٠ ومدرسة ابتدائية للبنات عام ١٨٩٨ . أما التدريس نفسه فقد كان باللغة التركية فنشأ الشباب العراقى غير قادر فى أكثر الأحيان على التعبير بأيسر العربية .

والمتخرج من هذه المدارس اما أن يعمل فى الجيش العثمانى ، أو فى وظائف الحكومة [2] . كان الهدف اذن كما هو واضح

(١) غرائب الاغتراب ص ٢٠ .
(٢) القومية العربية تاريخها وأصولها ومراميها ص ٣٠٧ .

تتريك العراقيين ، ومحاولة محو فكرة العروبة من أذهانهم حتى يدينوا بالجامعة العثمانية .

واذا علمنا أن نسبة التعليم فى منتصف القرن الماضى كانت « نصف فى المـائة » من سكان المدن ، وأنها أصبحت خمسة أو أكثر قليلا فى كل مائة رجـل من أهـل المدينة أول القرن العشرين ، استطعنا أن ندرك أسباب انتشار الشعوذة والسحر والدجل [1] ، فهذه كلها مرتبطة بالجهل أقوى ارتباط ، ولا سبيل الى محاربتها فى مجتمع متأخر الا بالثقافة ، والثقافة منعدمة بعيدة كل البعد عن الابتكار تعيش على تراث القدماء فى شرح الشروح والتعليق على التعليق . اندرست الحياة الثقافية الخصبة التى عرفتها بغداد يوم اتصلت بالفرس واليـونان والهند ، وتهاوى النضج الفكرى يجتر ماضيه . فالحياة الثقافية الضحلة فى بغداد خلال القرن الماضى أشبه ما تكون بالحياة الثقافية فى مصر خلال القرن الثامن عشر . فليس هناك نشاط علمى أكاديمى ولا نشاط فني ولا دور عامة للكتب ولا جمعيات علمية ، وانما هناك الفقر الثقـافى والتأخر الاقتصادى والضغط السـياسى والانحطاط الاجتماعى والمؤرخ الحضارى لهذه الفترة من تاريخ العـراق لا يكاد يسمع نبض الحياة فى ناحية من النواحى ، وانما يحس الصمت مطبقا مهما طال تسمعه ومهما وجـه بصره ولكنه كان أشبه بسكون العليل يسترد عافيته بعد حين ، وأبعد ما يكون عن صمت القبور والعدم .

---

(١) معروف الرصافى للواعظ ص ٣١ .

زهاوى فى بغداد

كان سليمان بن ماوند الشخصية الوحيدة البارزة فى مدينة « شهرزور » من أعمال كردستان ، وذلك حول منتصف القرن السابع عشر . وبلغت به جرأته واعتداده بنفسه أن استولى على المدينة ، ولكن طموحه امتد الى ما حولها ، فسار بجنوده يعبر الأودية ويصعد الجبال والهضاب لا يقف أمامه مستحيل حتى فتح الكثير من البلاد المحيطة بمدينته وكون امارة مستقلة . وكانت تركيا وايران فى ذلك الوقت تتنازعان منطقة كردستان ، فخشيت كل منهما أن تقف أمام سليمان بن ماوند بمفردها ، ولكنه استمر فى تحديه للشاه فى ايران وللسلطان فى تركيا معتمدا على بسالة جنوده واعتداده بنفسه والحصانة الطبيعية التى منحتها الطبيعة لبلاد كردستان الجبلية . وايران تعلم أن العراق ولاية تابعة للسلطان العثمانى ، وتدرك أنه المفتاح لبلاد كردستان ولذا كان يهمها أن يخضع هذا الاقليم لنفوذها ليظل العراق مهددا من الشمال ، وكان سلطان الشيعة فى ايران قد بدأ يزداد فى ذلك الوقت مناوئا للسنة فى الدولة العثمانية . ولكن خشية السلطان والشاه جعلهما يتفقان على أن يقضيا على هذه الامارة الفتية . وفعلا تمكنت جيوش الدولتين الخفيرة من هزيمة سليمان

والاستيلاء على جزء من مملكته الصغيرة [1] ولكن أبناءه من بعد استطاعوا الاحتفاظ بدويلتهم ، وظهر منهم من تأثر سيرة سليمان وبلغ به الطموح حدا بعيدا حتى أخضع المنطقة بين سيروان والزاب الصغير وفتح مدينة السليمانية وكركوك . وبقيت الحروب بين البابانيين وبين الأتراك من جانب والايرانيين من جانب آخر مستمرة لا تهدأ الا لتبدأ من جديد . وربما ساعدت الطبيعة الجبلية أهل كردستان على الصمود ، ومنحتهم صلابة وشدة ولكن أعداؤهم كانوا يحيطون بهم من الجنوب ومن الشرق والغرب . ومع بداية القرن الثامن عشر حاول الأكراد مرة أخرى توسيع سلطانهم وامتد طموحهم هذه المرة الى مناطق خاضعة لنفوذ الوالى فى بغداد ، امتد طموحهم الى شمال العراق ، بل والى بغداد نفسها فى بعض الأحيان ، ومن هنا اشتعلت نيران الحرب التى كانت قد بدأت تخبو ونفخ الايرانيون فى رمادها فلم تنطفىء على مدى هذا القرن كله . وليس من الغريب أن نجد بعض الأكراد فى بغداد خلال هذا القرن يعيشون حياة مرهفة ، وأكثرهم هجروا ديارهم فرارا من ضغط أو نتيجة خلاف الأشقاء على الحكم ، وانتصار أحدهم وفرار الآخرين ومن تبعهم من عامة الناس ،وكان منهم من يلجأ الى امارة « كرمنشاه » فى كردستان ومنهم من يلجأ الى ايران ومنهم من يقرر الرحيل الى بغداد .

ومهما أبدى لهم والى بغداد من ترحيب ، فلم يكن فى حقيقة الأمر يأمن لهم ، فهو يخشى بغضاءهم قديما كما يخشى أن يكون

(١) أربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث ص ٧٧ وما بعدها .

فيهم عيون للبابانيين ، فكانت أعين جواسيسه لا تغمض عن مراقبتهم أينما حلوا .

ومع بداية القرن التاسع عشر ظهرت شخصية قوية من الأسرة البابانية ، استطاعت بدهائها أن تسالم السلطان العثمانى وأن تراوغ الايرانيين ، هى شخصية عبد الرحمن البابانى . وقد بلغ من نفوذه أن أطلق له الخليفة فى تركيا حق تنصيب الولاة على العراق . ولكن الايرانيين لم يتركوا ادعاءهم بتبعية مدينته شهرزور مهما كانت الأوضاع فيها ، ورغبة فى مشاكلة الأتراك ، فعندما غضب السلطان العثمانى على عبد الرحمن البابانى وسير اليه جند بغداد ، احتضنه الايرانيون ، وأمدوه بقوات ومعدات فى حربه التى توقعوها ، فاستطاع أن ينتصر على المملوك داود قائد قوات بغداد ، ولم يكن معنى ذلك نهاية الصراع بين البابانيين والمماليك فقد استمر الصراع يشتد ويهدأ حتى مات عبد الرحمن عام ١٨١٣م وخلفه ابنه محمود البابانى . وكان « داود » قد أصبح واليا على العراق ، والكراهية بينه وبين الأكراد شديدة مستحكمة ، وكان حاكم امارة كرمنشاه يطمع فى حكم العراق ، وحين بدأ محمود البابانى يتقرب الى محمد على حاكم كرمنشاه ، خشى « داود » أن يكون اتحادهم فرصة للتخلص منه ، وكان معنى ذلك حسم الموقف عن طريق الحرب . فسير والى العراق جيشا لمحاربة البابانى، ولكن شتاء كردستان القارس كان قد حل ، فلم يقو جيشه على

تحمله وضعفت روحه المعنوية ، وانتصر محمود البابانى وتشتت شمل جيش المماليك . (١)

فتاريخ البابانيين فى الواقع ملىء بالصراع المرير ، كتب الطموح أغلب صفحاته ، وامتلأ بالكفاح ضد كل القوى المحيطة ، وعلى الأخص ضد المماليك الذين حكموا العراق . ومن العجيب أن تنتهى أيامهم كما انتهت أيام المماليك قاسية شديدة المرارة ، وأن يكون ذلك فى وقت يكاد يكون واحدا ، فلم يستمر تاريخ البابانيين أكثر من عشرين عاما بعد نهاية حكم المماليك ، وتخربت اماراتهم عندما أتم القرن الماضى منتصفه .

أما المماليك فقد استقلوا بالعراق ، ولم يعد « داود » ينفذ أمرا للسلطان فى تركيا ، وبدا أن حكم المماليك مستقلين أشد وطأة على العراق ، ولكن نهايتهم كانت وشيكة ، فقد امتنع داود عن مساعدة السلطان فى حربه ضد الروسيا ، فلم يعد سلطان تركيا يطيق الوضع وعزم على ارجاع العراق الى حكم الامبراطورية العثمانية فأرسل يطلب منه التخلى عن الحكم ، وكانت مواكب الرسل الواردة كل عام من استانبول وهى تحمل الفرمان والخلعة شيئا مألوفا ، الا أن الغريزة فى هذه المرة أنذرت داود بأن هذا الموكب الجديد غير المواكب السابقة . وبالفعل كانت زيارة الرسول جافة ، أعلنه فيها بقرار العزل وطلب منه تسليم الحكومة فى الحال رافضا أى تأخير . ولكن داود كان قد بيت أمرا خطيرا ، فأرسل اليه بعض أغاواته فخنقوه بعقدة حمالة السيف . وكتب الى

---

(١) اربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث ص ٢١٩ وما بعدها .

استانبول بوفاة الرسول اثر مرض ، غير أن الحقيقة سرعان ما انتشرت . وخشى السلطان تفتت امبراطوريته ، لأن محمد على فى ذلك الوقت كان قد استقل بمصر . وبالفعل أرسل اليه جيشا بقيادة الحاج محمد على رضا . وفى هذه الفترة وصل الى بغداد نفسها وباء الطاعون الذى كان قد تفشى .

وحاول « داود » الفرار غير أنه لم يستطع ترك ثروته المكدسة ولا حملها معه وتبدلت الحال بين الناس من عدم المبالاة الى الذهول والذعر ومن الكآبة الى صمت الموت ، فقد تكدست الجثث فى الشوارع ، وهام الناس على وجوههم يطاردهم الجوع والموت . واذ ذاك ظهر خطر جديد ، فقد فاض نهر دجلة واقتحم بغداد فسقط الفا دار فى لحظات لأنها بنايات قديمة ، وابتلعت المياه الجثث التى كومها الطاعون ، ثم انحسرت وتعالت أصوات المؤذنين فى الجوامع الباقية ، تدعو للصلاة من جديد .

وأجال « داود » بصره فى بغداد ، وأرسل عليها نظرة تعسة ، فلم يكن أحد أشقى منه يومئذ . فقد توالت عليه النكبات من كل جانب . وبقى فى خدمته أربعة من الصعاليك الشاحبى اللون بعد عشرات الأغوات من المماليك .

وتفرق جيشه فلم يبق منه الا بضع عشرات ، وأصبح القصر المنيف وقد خرب وتهدم جزء كبير منه . وخاب أمله فى الدفاع عن بغداد ، وبدا أن كل شىء انتهى دون عناء ، فسلم نفسه وانتهت دولة المماليك [1] .

---

(١) أربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث ص ٢٤٧ وما بعدها .

أما امارة البابانيين فلم يقض عليها الا الخلاف والصراع على الحكم بين الأشقاء والأقارب ، فهو الذى فرق كلمتهم ، وأنهك قواهم ، وجعلهم يرتمون فى أحضان ايران أو تركيا ، وبدا أن دولتهم أخذت فى الانحطاط ، فلم يكن من السهل أن يستمر هذا الخلاف ، وأن تستمر تلك الحروب ، والحياة الاجتماعية هائثة ، فقد بدا الاضطراب واضحا فى كل معالم الحياة ، حتى أكمل الطاعون من بعد خرابها .

وكان «الملا أحمد البابانى» واحدا ممن تركوا بلدهم السليمانية على أثر خلاف صغير بينه وبين أخيه ولجأ الى أمير كرمنشاه ، واستقر به المقام بمدينة زهاو من أعمال هذه الولاية .

واحتل من قلب الأمير مكانة ممتازة ، فاختاره معلما لابنه . وسارت به الحياة على هذا النحو سنوات ، كان ابن الأمير فيها قد أصبح شابا ، وكان يزداد تعلقا بأستاذه يوما بعد يوم . وأراد ابن الأمير أن يتزوج فخطب له أبوه فتاة من أسرة كبيرة ، وبينما كان يستعد للزواج فاجأه المرض وأشرف على الموت . فلما أحس بدنو أجله أراد أن يكرم أستاذه فلم يجد شيئا يستطيع أن يكافئه به خيرا من أن يربط بين أحب الناس اليه فالتمس من أبيه أن يجعل مكافأة أستاذه تزويجه من خطيبته .

ولم يرد الأب أن يخيب لأبنه طلبه الأخير ، فكان ذلك وتزوج الأستاذ خطيبة تلميذه ، وثمرة هذا الزواج كانت ولدهما « محمد فيضى » ولم يستطع الأستاذ أن يبقى طويلا فى كرمنشاه ، فقد مات تلميذه وغلبه الحنين الى بلده ، فعاد الى السليمانية مع ولده

وزوجه . عاد الى موطنه الأصلى ، والى أسرته التى هجرها ردحا من الزمن ، وهنــاك ، لقبت الأسرة ولده « محمد فيضى » — بالزهاوى نسبة للبلدة التى ولد فيها ، فلزمته فى حله وترحاله . والنسبة الى مكان المولد ليست غريبــة فهناك الخــوازرمى والأصفهانى والبغدادى والموصلى وغيرهم فى الزمن القديم ، وهناك الرصافى والزهاوى والحلى وأمثالهم ممن ولدوا فى القرن الماضى . وهكذا انتسب جميل صدقى الى زهاو البلدة التى ولد فيها أبوه وكأنما كانت رحلة « الملا أحمد البابانى » الى زهاو من أجل أن ينجب محمد فيضى الزهاوى وأن تنتقل النسبة من بابان الى زهاو .

وحياة محمد فيضى الزهاوى فى شبابه غامضة فقد عاشها فى السليمانية عندما كان آباؤه يحكمونها ، فلما اندثرت دولتهم نزح الى بغداد ، حيث عرف بالعلم وبالورع ، فعين مفتيا للعراق سنة ١٢٧٣ هـ وكانت زوجه « بيروز » كردية مثله ، ولعله قد تزوج بها قبل مجيئه الى بغداد . وأنجب منها أبناء عديدين منهم عبد الغنى وقد مات شابا ، وأمجد وقد ذكره صاحب أخبــار البغداديين ومجالسهم وقال انه كان صوفيا وكان له مجلس يعقده بداره يضم رجال الدين ورشيد وكان من « باشوات » بغــداد ثم جميل صدقى ، الذى ولد فى الثامن عشر من يونيو سنة ١٨٦٣ . على أن هذه الرابطة الأسرية لم تستمر طويلا ، فقد دب الخلاف بين الزوجين ، واستحالت الحياة بينهما ، لأن الزوجة — كانت عصبية المزاج ، ثم اتفقا على الافتراق . واحتضنت الأم أبناءها ،

ولكن الأب أخذ من بينهم ولده جميل لأنه كان أقربهم الى نفسه ، ورأى به على عصبيته الموروثة عن أمه سمات نجابة ليست فى بقية اخوته [١] .

ولا شك ان الأب قد فكر أن يتجه بولده الذى احتضنه الى التعليم الدينى كما اتجه أخوه أمجد ، وكما اتجه هو من قبل[٢] ، فسبيل هذا التعليم ميسر ؟ وطريقه لا تعترضه الأشـواك التى تعترض طالب الحياة المدنية الذى ليس أمامه الا المدرسة الحربية ، وهو قد سئم حياة الحرب التى عاشها طيلة عمره قبل انتهاء دولة البابانيين ، ولكن شيئا ما عدل بتفكيره عن هذا الطريق ، لعله تبدل الحياة السياسية فى ذلك الوقت .

فالوالى الجديد « مدحت » كان رجلا قديرا بالرغم مما يثار من شكوك حول أهدافه السياسية واشتراكه فى اغتيال السلطان عبد العزيز فى تركيا . فقد استطاع أن يقضى على اضطراب الحياة الاجتماعية فى العراق ، وعلى مغامرات رجال العشائر باقطاعهم الأراضى الزراعية . ويسر سبل المواصلات لربط أجزاء الولاية فسير البواخر بين بغداد والبصرة والترام بين الكاظمية وبغداد . ثم أنشأ أول مطبعة فى العراق وظهرت الأعداد الأولى من الجريدة الرسمية « الزوراء » ليقرأ الناس أخبار الحكم وقوانين الدولة ، ولم يمض الا قليـل حتى كانت المطبعة قد بدأت تطبع التراث العربى . ولكن أهم أعماله أنه ألف مجلسا للشورى فى بغـداد

---

(١) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .
(٢) وحى الرسالة (المجلد الأول ص ٣٦٦) ، الكائنات ص ٥ .

يرجع اليه فى أمور الولاية . ولم يكن الناس يألفون الجهر بالرأى والشجاعة فى القول . فبدأت الأذهان تنفتح لمعنى خطير هو معنى الحرية واستقلال الشخصية [1] .

وفكرة استقلال الشخصية هذه ، لا شك كان لها أثرها فى أن يعدل مفتى العراق عن رسم طريق لولده فتركه يختط لنفسه الطريق التى يريدها ، وشجعه على المسير فيها ، لتنمو شخصيته على هذا النحو . وكانت هذه الطريق التى أراد الصبى أن يمضى فيها هى طريق الشعر وعشق الأدب .

(١) زعماء الاصلاح ص ٥٣ — ٥٤ .

عشق الأدب

— البس ياولدى عباءتك ، فانى أخاف عليك من البرد .

— انى لابس للغرفة يا أبى ، فمن أين يأتينى البرد ؟ [1] .

كان مثل هذا الحوار يدور بين الأب وولده ، فيؤكد له ذكاء هذا الصبى ويجعله يزداد اهتماما بتشجيعه على ابراز مواهبه التى بدأت فى الظهور فى هذه السن المبكرة . فهذا الصبى الذى ما زال فى الرابعة والخامسة من عمره قد بدأ يترنم بالكلمات موزونة فى شكل أشطر ، وان كانت خالية من المعنى بطبيعة الحال . فتنبه الأب الى أذن ولده الموسيقية ، وتعهد هذا البرعم الصغير حتى لا يذوى . وشجعه على ذلك بأن وعده باعطائه درهما عن كل شطر يجىء موزونا فبدأ الصبى يحاول ويجاهد منذ ذلك الحين أن تأتى بضعة كلمات ذات شكل موسيقى فهى السبيل أمامه الى الدراهم الموصلة للحلوى .

وكان لابد له من دخول الكتاب فى هذه السن ليتعلم القراءة والكتابة والحساب ويقرأ القرآن ، ثم يتخير بعد ذلك الطريق التى يبغى أن يتابع السير فيها من بعد . وكانت أكثر الكتاتيب فى هذه الأثناء ملحقة بالجوامع لأن المنشأة الدينية هى ما ينبغى

(١) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .

للصبى أن يتحلى به ، وهكذا أخذ جميل طريقه الى الكتاب وكان الصبية يجلسون على الأرض ، وأمامهم شيخ الكتاب يجلس على كرسى خشبى ، ويلبس جبة وعمامة ، يقرأ جزءا من القرآن والصبية يرددون وراءه آية آية ، ويتكرر ذلك مرة ومرات ، حتى اذا أنس منهم حفظ ما رددوه بدأ يستمع اليهم ولم يكن يشرح شيئا من معنى الآيات ، ولم يكن الصبية يجرؤون على أن يسألوه فى شىء من ذلك وما أكثر ما يغمض عليهم من العبارات مهما كانت السورة صغيرة ومهما كان الصبية يسمعونها فى بيوتهم « مالك يوم الدين .. الصراط المستقيم .. ولا الضالين » فكيف يتسنى لصبى فى هذه السن أن يحفظ ما لا يفهم وهكذا لم يفهم جميل ولم يحفظ ولم يتقدم فى دراسته [1] .

ولكن حياة الصبى انتظمت على هذا النحو الرتيب ، فهو فى الكتاب لاه عابث ، وفى بيته الذى كان يقع « بمحلة جديد حسن باشا » قرب دجلة [2] لا يهتم بغير نظم الأسطر الفارغة من المعانى ، أو اللعب تارة بالكعاب مع رفاقه وتارة وحده بالحمام القلاب ، يطلقه يتطلع اليه وهو يتقلب فى الهواء ثم يعود ثانية .

وكأنما كانت كل حيويته مركزة فى جسمه ولا نصيب لعقله منها . بل لقد بلغت طاقته الجسمية حدا انعكس على حركاته التى لا تهدأ أبدا فى ضرب غير مألوف أو شاذ ، حتى لقد أطلق عليه رفاقه « المجنون » ولكنه لم يكن معنيا بهذا اللقب فى ذلك الوقت ،

---

(١) المرجع السابق .
(٢) البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ١٣٩ .

فأبوه نفسه يعرف فيه عصبية موروثة عن أمه ، ولعله اهتم أول الأمر واشتجر مع رفاقه ، ولكنه حين آنس منه أحد الصبية هجعه فلطمه لطمة جعلت الظلام والنور يتعاقبان عينه فى دوائر متابعة تنداح رويدا رويدا لم يعد يعبأ بالأمر كثيرا ، وان بقى أثر اللطمة فى ذاكرته (١) .

أربع سنوات من عمره ضاعت على هذا النحو ، لم يتمم فيها الا جزءا واحدا من القرآن . ولكنه ما كاد يتم هذا الجزء ، حتى كان ذهنه قد نشط فجأة .. فاذا به يتم القرآن كله فى شهر واحد . كأن لم تكن هناك قسمة عادلة فى نشاطه وحيويته ، فتارة يتركز كله فى جسمه ، وتارة أخرى ينشط ذهنه نشاطا شاذا غير عادى .

أتم الصبى دراسته فى الكتاب ، فأسلمه أبوه الى بعض تلاميذه يقرأ عليهم النحو والصرف والمنطق والبلاغة وهى علوم العربية فى ذلك الوقت ، لم يكن هناك غيرها . لم يتجه به أبوه اذن الى المدارس الدينية ، فقد رآه لا يتقدم فى الكتاب ، ورأى فيه مخايل نبوغ فى الشعر ، فأراد أن يلقنه ما يلائم طبيعته من علوم العربية وهى الأدوات التى تعين على أن ينظم شعرا سليما من الأخطاء اللغوية والنحوية ، واضح المعنى ، على درجة من الجودة الفنية ..

على أنه لم يجد فى أساتذته الجدد كبير غناء ، يسألهم عن الشذوذ الذى يكاد يشمل كل قاعدة نحوية فلا يجد عندهم تفسيرا

---

(١) الزهاوى الشاعر ص ٢٩ .

مقنعا ، ويسألهم عن أسرار البلاغة وقيمتها الفنية ، فلا يجد لديهم الا قواعد جامدة ، فلم يشبعوا نهمه [1] وهو فى الوقت نفسه يسأل أباه فيجيبه فيفهم عنه ، فقرر ألا يضيع سنوات أخرى من عمره ، وأن يلجأ أخيرا الى أبيه نفسه ، يدرس معه الشعر فى دواوين العرب التى أخرجتها المطبعة اذ ذاك . وهو يسمع من أبيه ما يغريه بدراسة شاعر العربية الكبير أبى الطيب المتنبى ، فليكن نقطة البداية ، واذا احتاج الأمر بعد ذلك الى بيان ، رجع الى علوم العربية لتفسير ما غمض عليه ، وعلى هذا النحو سارت حياته الجـديدة .

هكذا بدأ يستمع التلميذ الفتى لأبيه الأستاذ الشيخ مفتونا بحياته الجديدة التى وجـد نفسه فيها ، ومفتونا بالشاعر الذى أحب شعره . وكان قد نما فى هذه السنوات ، فلم يعد ذلك الصبى الصغير ، وان كانت ملامحه لم تتغير أبدا . نفس الجسم النحيل الذى يكاد ينوء بحمل رأسه الكبير ، ونفس الجبهة العريضة والأنف الضخم الذى يكاد يبدو ناشزا وسط هذا الوجه الدقيق ، وان كانت عيناه قد اشتد بريقهما الذى يوحى بالذكاء الوقاد [2] .

ولم يعد يتقبل ما يقال له دون بحث وتدقيق ، فيرفض ما يروى عن تنبؤ الشاعر فى صباه ، أو سجنه بسبب ادعائه النبوة ، كما يرفض ما قيل عن تفسيره لحديث الرسول « لا نبى بعدى » بأن اسمه « لا » فى السماء وهى مبتدأ ونبى خبر تقرأ بالرفع ، فهذا

(١) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .
(٢) الزهاوى لبديع شريف (المعلم الجديد ١٩٣٧) .

تكلف بعض النحويين ممن أرادوا اللهو والتندر . ولكنه يرى — كما رأى ذلك غـيره من قبل — أنه نبى الشعر ومعجزاته المعانى [1] . كما يرفض ما قاله القدماء عن سرقات الشعراء منه ، فالبيئة المشتركة والاطار الثقافى الذى يضم الشعر العربى القديم ، يوحى لأكثر من شاعر بمعنى واحد ، وانما هو توارد أفكار كما كان يقول بعض النقاد العرب . ومن أخذ معنى فجوده كان جديرا به ، ولكن السرقة هى أخذ الشاعر لأبيات غيره وعرضها فى ثوب سيىء ، أو تغيير ألفاظ قليلة فيها .

وأكثر ما جذبه فى حياة المتنبى ذلك الطموح الغلاب الذى دفعه الى اقتحام الصعاب متنقلا من بيئة الى أخرى وراء أمانيه التى لم يجد سبيلا الى تحقيقها ، فتغنى بها وهو يشقى ، ذلك الغناء العذب الحـزين . ثم ذلك الاباء الذى دفعـه الى هجر سيف الدولة على حبه الشـديد له ، ورحيـله الى مصر وراء الاستقرار . فلما وجد فى مصر أن حيـاته تكاد تشـبه أيام سيف الدولة فى اضطرابها ، ووجد أمثال العلماء والشعراء الذين هاجموه فى الشام ، قرر الرحيل ، وعزف لحنه الحزين « عيد بأية حال عدت يا عيد » [2] .

كان الفتى اذا فرغ من درس أبيـه ، قرأ لغـير المتنبى من

---

(١) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٨٢ .

(٢) بلغ من اعجاب الزهاوى بقصـيدة العيد أن عارضـها (أنظر الأوشال ص ٢٤٩) .

الشعراء ، فأعجب بحسن تصوير امرىء القيس ، وفلسفة زهير ونقاوة ألفاظه وايجازه ، وفصاحة النابغة ، ومتانة أسلوب الفرزدق ، ورقة جرير ، وبلاغة بشار وتجديده ، وبراعة أبى تمام فى السبك ، واجادة البحترى فى الوصف ، وابداع المتنبى وكبر معانيه وفخامة تراكيب ابن هانىء ، وخفة روح أبى نواس ، ولكنه لم يفضل على المتنبى وأبى العلاء شاعرا آخر ، وان ضم اليهما بشارا وأبا نواس فى فترات أخرى من حياته (١) .

على أن طاقته الجسمية لم تهدأ ، بل لعلها ازدادت نشاطا وحيوية . وقد عرفه بستان بغداد الذى أنشأه الوالى مدحت وسط مدينة بغداد ، عرفه لاهيا صاخبا ، كما عرفه عاشقا حزينا . وكثيرا ما تردد فيه اسم « الطائش » ولم يكن هذا الطائش الا فتانا فهو لقب جديد أسبغه عليه رفاقه ؛ لأنه أعلاهم صوتا اذا صخبوا ، وأقواهم جسما اذا تصارعوا ، وأسرعهم جريا اذا تسابقوا ، وأقدرهم على المكوث تحت الماء . لا بأس اذن بهذا اللقب ، فهو فى رأيه تاج الزعامة (٢) .

وكانت أحب الهوايات الى نفسه ركوب الخيل ، ولعله كان فى الوقت نفسه وسيلة الطبقة الثرية فى المواصلات كما كان الأمر فى بلاد كثيرة الى عهد قريب ، قبل أن تنتشر وسائل المواصلات الحديثة . خبر فتانا الخيول وضمرها وتسابق بها مرة ومرات

(١) سحر الشعر ص ٦٣ وما بعدها .
(٢) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر سنة ١٩٤٦) .

وعرف كيف تتسع خطواتها بعد المران القاسى فتصبح أسرع عدوا وأشد احتمالا ، ما دام راكبها نحيلا [1] .

ولم تكن حياة هؤلاء الفتيان لهوا فى كل الأوقات . فقد عرفوا الجد وتسابقوا اليه كما تسابقوا الى اللهو . كانوا يقرأون الشعر فيختلفون فى معانيه فلا يجدون أمامهم أخبر به من والد جميل ، فيلجأون اليه يحكمونه فيما اختلفوا فيه وكان دائما يرجح رأى ولده ، حتى لقد ظن به الرفاق الظنون فما كان من جميل الا أن اختار رأيهم فى احدى المرات واختاروا رأيه ، وعرضوا الأمر كما دبروه على والد جميل فرجح رأيهم وسفه رأى ولده ، فاغتبط الفتى لذلك ، ووثق الرفاق بأبيه حكما من بعد [2] .

وكان لابد أن تمتزج هذه الثقافة الأدبية بوجدان الشاعر فتتفتح موهبته الأدبيـــة . فبدأ يترنم بأبيات نظمها بالفارســـية أو ترجمها عنها . ومن أوائل المقطوعات التى قالها مترجمة عن الفارسية . بل لعلها من أول ما قال من شعر على الاطلاق لأنه عاد فأصلح منها بعد ذلك — البيتان اللذان يقول فيهما :

ناشـــدت شـــيخا قد تقـــو س مـــا تفتش فى التـــراب
فأجاب يا ولـــــدى لقـــــد ضيعت أيام الشـــــباب [3]

وبدأ الأب يلمس تفتح البرعم ، وقد كان ذواقا للشعر الجيد ،

---

(١) الخيل وسباقها (الهلال ١٨٩٦/٩/١٥) .
(٢) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .
(٣) الكلم المنظوم ص ٨٨ .

بل كان شاعرا أيضا ، وما بقى لنا من شعره ، يدل على نزعة فلسفية واضحة فيه يقول فى بعض هذه الأبيات :

بان لى فى المرآة شيخ كبير عاش حتى تعرف الأحوالا
قلت كم عشت قال تسعين عاما قلت ماذا فعلت فيها فقالا
آكلات دفعتها فضلات وشروبا أرقتها أبوالا
وثيابا لبستها فاخرات جددا وانتزعتها أسمالا [1]

أحس الشيخ اذن أن ولده قد بدأ يستوى عوده ، فأخذه بالرعاية حتى يقوى على السير وحده . حمله على حفظ الشعر الجيد ، مثلما كان النقاد القدماء يوجهون الأدباء الناشئين ويحثونهم على حفظ الكثير ، حتى تنضج ملكتهم فيقوون على نظم الشعر الجيد . وحثه على صقل ما يقوله من شعر ثم نقده كأنه لغيره مجردا نفسه من العاطفة ، فما لم يرقه حذفه ، والا أفسد عليه الباقى الجيد [2] . هذه هى القواعد النظرية التى وضعها له وهى فى جملتها قواعد سليمة ، وهكذا كان يصنع أبو نواس وغيره ، ينظمون القصيدة ثم لا يلبثون أن ينظروا اليها نظرة الناقد فيحذفون ويقومون ، ومن هنا كانت أغلب قصائد أبى نواس مقطوعات صغيرة أما من الناحية العملية ؛ فقد كان يتخير بيتا جيدا ثم ينثره ، ويطلب اليه أن يعيد نظمه بعد أن يعين له الوزن والقافية ثم ينظر فيما نظم ويبين له خطأه وضعف تراكيبه ويريه البيت بعد ذلك منظوما كما هو فى الأصل فتعلم مع الوقت الصياغة الفنية

---

(١) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٢٦ .
(٢) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر سنة ١٩٤٦) .

للألفاظ من حيث انتقائها موحية معبرة ، ووضعها فى مواضعها[1].

وهكذا بدأ الفتى ينظم الشعر ، فقد امتلك الموهبة ، وامتلك الوسيلة لصقلها ، حتى لقد بلغه وهو لا يزال مراهقا أن الكثيرين يعتقدون أن ما ينسبه الى نفسه من شعر ، هو من نظم أبيه ينحله اياه فلما ذكر له ذلك ضجرا متبرما « ضحك قائلا » يجب أن تفرح بدل التبرم ، فقد بلغ شعرك درجة أن لا يصدق الناس أنه لك [2] فسرى عنه .

كان الشعر هو دنياه التى لا يعدل بها مثيلا ، فيردد من أعماقه « ما أولعنى اليوم بالشعر ، لأنى رضعت لبانه فى طفولتى ، ولعبت بأزهاره وأنا صبى ، تراقبنى عين والدى لئلا تجرح يدى الأشواك عندما أقطفها »[3] .

وجد فيه الفلسفة عند أبى العلاء فأولع به ، ووجد فيه الطموح عند المتنبى فافتتن بصاحبه ، ووجد التجديد عند بشار وعند أبى نواس فشاقه أن يكون واحدا من هؤلاء . وأحب أن يجمع مختارات لكل الشعراء المتقدمين الذين قرأ لهم . قرأ لأبى صخر الهذلى قوله :

وانى لتعرونى لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر

---

(١) سحر الشعر ص ٦٥ .

(٢) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .

(٣) سحر الشعر ص ٨٧ .

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهـوى
وزرتك حتى قيـل ليس له صبر

فأسرع بضم الأبيات الى مجموعته « عيون الشعر » ويعلن على المقطوعة مبديا اعجابه الشديد بقدرة الشاعر على تصـوير الاحساس [١] . هجرتك حتى قيـل لا يعرف الهوى ومَن من الشعراء لم يعرف الهـوى ؟ ان المتنبى نفسه الذى كان يردد « اذا كان مدح فالنسيب المقدم » قد ملأ شعره بالمقدمات الغزلية لقد شاقه أن يجرب الهوى ، ولكن من أين له هذه التجارب فى بيئة محافظة وبيت أشد محافظة ، ليس له الا أن يختلس النظرات الى كل زائر كلما ذهب الى بيت والدته[٢] .

على أن نظرة من تلكم النظرات كان لها وقع غريب فى نفسه ، كانت فتاة عربية سافرة غير محجبة ، فأخذ يختلس النظرات الى وجهها الصبوح وعينيها الساحرتين ، وخفق فؤاده خفوقا لم يعرفه من قبل ، ولم يلبث أن وجد نفسه يترنم بأبيات من نظمه هو[٣] :

لم أكن أعرف الصبابة حتى ... ظهرت لى ليلى بغير قنـاع
ثم غابت عنى فلم يبق للشمس بأفق الرجـاء غير شـعاع

نعم غابت فما السبيل الى اللقاء ؟ لقد علم أنها راحلة عن بغداد ، فلا أمل حتى فى اختلاس النظرات . ليس الا الذكرى بين خمائل البستان كل صباح فمع انطلاق الطيور ينطلق الخيال ،

(١) المرجع السابق ص ٧٢
(٢) المرأة فى حياة الزهاوى (الهلال مارس ١٩٤٧)
(٣) سحر الشعر (انظر القصة والأبيات ص ٧٨ وما بعدها .

ومع غنائها الحزين ، يبكى الفؤاد الملتاع ومع الزهر العبق ، نسمات من الأحباب . وكأنه لم يقو على أن يعبر عن أحاسيسه كلها بنظم شاعر مبتدىء ، فعبر عنها نثرا ، وانطلق مع أشجانه فى صورة من أقوى الصور تأثيرا .

« أيتها الحمامة ، أتذكرين أنى اتفقت مع الصبا على أن نزور الروض كل صباح ونحيى أزهارها المطلولة من بنفسج غض ، وياسمين ونسرين وأقحوان وشقيق ، وأن أغرد مع البلبل الصداح أغاريد فى العتاب أملأ بها الفضاء . ولعلك أيتها الحمامة قد سمعت شيئا من أناشيدى حين ألقيتها على بنات الروض ورأيت دموعى ترتجف فى مآقىّ فتنزل .. انى أيتها الحمامة قد ألقيت قصيدتى فصفقت لها اعجابا بما تضمنته من لوعة وشكاة ، فغنينى أنت أيضا أيتها الحمامة أو أنشدينى شيئا من شعرك فى الفراق ، فانك كلما أنشدتنى منه شيئا ، ذكرتنى بأحبتى الذين رحلوا الى غير لقاء ، فهيجت فىّ أشجانا هن الدموع التى ترين عيونى مغرورقات بها . أيتها الحمامة تعالى أقاسمك الهموم تعالى ، فاذا تقاسمناها خف وقرها علينا . ولعل السماء اذا سمعت نشيجنا ورأت انكسارنا تندم على ما قضت به علينا ، فترجع أيامنا السعيدة كما كانت وترجع ابتساماتها .

أيتها الزهرة الحمراء ، لقد دنا الخريف فهو بعد أيام يزور الروض فتتضوح أزهاره ولا تنفتح البراعم من جديد ، وتتناثر فى البساتين الأوراق من الأفغان ، وتدوسها الأرجل غير مكترثة لها فتحطمها كأن لم تكن بالأمس خضراء مفعمة حياة ولا كانت

زينة للأشجار . هل أنت أيتها الزهرة الذابلة يتيمة فى الروض ليس لها من يبكى بعد موتها على شبابها الغض أيام كانت تبتسم لأشعة الشمس التى كانت تداعبها فى كل شروق . لا تحزنى اذا لوى عنك جيده الهزار عندما رآك ذاوية توشكين أن تسقطى على الأرض وتتعثرى على التراب . أنا والشعر سنبكى شبابك اذا كان ما لا نود أن يكون وتقف على جسمك الهامد المعفر بالتراب نادبين الحسن والرواء . أنا أغسل بدموعى عنك ما لصق بك من التراب وأودعك قبرا أحفره لك تحت شجرة الليمون »[1] .

ولكن هذه الذكرى سرعان ما توارت من مخيلة الفتى ، وما أكثر جروح الشباب التى تبرئها الأيام ، فقد شغلته الحياة بجدها ولهوها ، ووجد فى الشعر بلسما للماضى وأملا فى المستقبل، فانطلق مع الأمل والشعر ، يصدح فى مجالس أبيه .

---

(١) سحر الشعر ص ٨٠ - ٨٢ .

فى مجلس أبيه

نما الفتى وبلغ مرحلة الشباب كما وصل الى المستوى الذى يمكنه من الاستماع الى المناقشات التى كانت تدور فى مجلس أبيه . وفى هذا الوقت كانت حركة البهائيين قد انتشرت انتشارا كبيرا بعد عام ١٨٧٠ على مدى السنوات العشرين التالية ، وكان صاحبها « بهاء الدين » قد تنقــل ما بين ايران والعراق وتركيا وفلسطين التى استقر فيها أخيرا ، ولكن دعوته وصلت الى كل مكان فى الأرض . وترجع أصل الدعوى الى « الميرزا على محمد » الشيرازى الذى ظهر قبل أن ينتصف القرن الماضى « وكانت العقلية فى ذلك الوقت تسيغ فكرة رجوع المهدى . وقد شهد له من رآوه بأنه كان ذا عقلية فائقة ، فادعى أنه قد أتى ليؤدى رسالة سامية ، وأنه باب المهدى « فتبعه جماعة من الأمامية الباطنية . ثم أسمى نفسه « الذكر » قائلا انه المقصود من قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » « واســألوا أهــل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ثم كتب كتابه « البيان » وادعى أنه هو المقصود من الآية « خلق الانسان علمه البيان » .

وقد حاول مناقضة فقه الملا (وهو الاسم الذى يطلق على علماء الدين فى فارس) والتخلص من ضيقه وجموده . ولذلك

فسر القرآن تفسيرا مجازيا ، ولم يهتم بفرائض الاسلام ، كما أول حساب الآخرة والجنة والنار تأويلا مخالفا لما عرفه المسلمون . وقد سبقه فى هذا أصحاب الفرق السابقة الذين أولوا من قبل « لقاء الناس لربهم » والبعث بأنه مظهر دورى متجدد للروح الالهية اللاحق فيه لا علاقة له بالسابق ؛ وينقل الحياة الى ما يليه .
ولم يكن ما أتى به « الميرزا على محمد » قاصرا على المسائل الخاصة بالعقيدة . بل نفذ بتعاليمه الى الظروف الاجتماعية ، فرغب فى أن يجعل المرأة على قدم المساواة بالرجل ، والغاء الفوارق بينهما ، وذلك بانتشالها من الوضع الذى وصلت اليه باسم تقاليد الدين . وبدأ بالغاء الحجاب الذى فرض عليها ، وانكار فكرة الطلاق أو تعدد الزوجات كما رسمت ذلك الشريعة الاسلامية ، بل وانكار التفرقة بين المرأة والرجل فى الميراث . وأضاف الى ذلك أفكارا كثيرة تتعلق بواجبات الأسرة فى الحياة كخلية توثقها الرابطة الزوجية . ورأى أن أداء رسالته نتيجة حتمية ملازمة للتطور التاريخى للاسلام . وأودع مجموعة نظرياته فى كتاب « البيان » غير أن هذه الآراء بدت مناقضة للتعاليم الدينية ، وظهرت للسلطات فى فارس أخطار سياسية يمكن أن تنجم عنها أيضا ، خاصة أنه بدأ ينتقم من معارضيه بقتلهم ، فلم يسع السلطات هناك الا أن تحاربه وتطارده حتى قبضت عليه وقدم للمحاكمة ، ثم أعدم رميا بالرصاص وألقيت جثته فى خندق احدى القلاع . ولكن أتباعه ينفون قتله ويؤكدون رؤيتهم اياه وهو صاعد الى السماء من حيث أتى ، وذلك بالرغم من أن لهم فى

طهران مدفنا باسمه ، وبالرغم من أنهم نقلوا رفاته بعد حين الى عكا ، وله هناك مزار [1] .

وكان ضمن أتباعه أخوان هما يحيى ولقبه صبح الأزل ، وحسين وهو الأصغر ولقبه بهاء الله ، قبضت السلطات أيضا عليهما رهن المحاكمة ، لمحاولة تأليب بعض الثوار ، ولكن قنصل روسيا تدخل لصالحهما فكان أن نفيا .

واستقرا فى بغداد . وهناك اتفقا على أن يختفى صبح الأزل ليقول البهاء ان اللاهوت قد حل فيه ثم عرج الى السماء . وبالفعل ادعى البهاء هذه الدعوى وحاول اثارة فتنة من جديد ، وانضم اليه خلق كثير . ولكن الحكومة العثمانية تداركت الأمر ونفت الأخوين بعيدا مع بعض أتباعهما الى مدينة « أدرنسة » وهناك لم يجدا أمامهما مجالا للعمل ، فتشاحنا . وكان سلاح البهاء أمضى ، اذ أنكر أخاه قائلا انه صعد الى السماء وليس الموجود الا مدع . وشمر كل منهما عن ساعديه ، ففرقت بينهما السلطات العثمانية ، وأرسلت صبح الأزل الى قبرص ، وأرسلت البهاء الى عكا . ومن هناك واصل دعوته واعتبر نفسه مظهر العقل الكونى لكافة البشر ، ولذلك بعث بكتبه الى الأمم والحكام فى أوربا وآسيا وأمريكا . وقد ساعده على ارتفاع شأنه تحقق بعض تنبؤاته . فقد بعث الى نابليون الثالث برسالة تنبأ فيها سقوطه قبل هزيمته بسنوات قليلة .

---

(١) العقائد ص ١٥٤ وما بعدها .

ثم ألف كتابا سماه « الأقدس » وادعى أن ميرزا محمد لم يكن الا مبشرا بوجوده ، كما أن يوحنا المعمدان كان مبشرا بظهور المسيح ، ومن هنا أضفى عليه أتباعه صفات ترفعه فوق مصاف البشر ، فى أناشيدهم الدينية ، متناثرين بزعمه أن لكتابه أصلا فى السماء بين الكنوز الالهية المكنونة ، وأنه لا يكشف عن كل ما يشتمل على مذهبه من درر محققة لنجاة الانسان وخلاصه . وهو فى آرائه السياسية يتشبث بالعالمية ، وأفضل طريقة فى نظره لتحقيق الوئام العالمى هو ايجاد لغة عالمية واحدة ، وأبدى رغبته الملحة فى أن يتمكن رؤساء الدول من الاتفاق على احدى اللغات المستعملة — كلغة عالمية — أو على ايجاد لغة جديدة تفرض على الناس فى كافة أنحاء العالم أن يتعلموها فى مدارسهم . ولم يسمح لأتباعه باثارة الحروب فهى فى نظره محرمة تحريما قاطعا .

كما حظر الرق اطلاقا ، وأرسل الى السلطان فى تركيا تعنيفا شديدا لأنه فرق فى الحقوق والامتيازات بين طوائف السكان ، لأن جوهر تعاليم البهائية المساواة بين أفراد الجنس البشرى .

أما من الوجهة الدينية فالثواب والعقاب فى رأيه يتم بالتلذذ أو التألم من تذكر ما اقترفه الانسان من الخير والشر ، والروح تعود للعالم الانسانى مرة أخرى بعد الموت ، ولكنها تعود فى صورة أشبه ما تكون فى تأثرها بفكرة تناسخ الأرواح . ثم أخذ يردد فكرة توحيد الأديان . وبالطبع اختار البهائية لتكون الدين الأوحد لأن كل الأديان أساسها سماوى ، وبما أن المسلمين

يعترفون بالمسيح وبموسى والنصارى يعترفون بموسى ، فالاتفاق بينهم سهل ، وليس من الصعب الانتماء الى البهائية مع المحافظة على الدين الأصلى لأنها تحترم كافة الأديان ومن واجب البهائى البحث عن الحقيقة لأن العبادة هى العمل .

فالبهائيون فى الواقع ليسوا الا عقليين منكرين للأديان ، وقد رأوا أن من صالحهم سواء أكانوا فى فارس أم فى البلاد الاسلامية الأخرى ، الابتعاد عن الجهر بمعتقداتهم المناقضة للاسلام ، والابتعاد أيضا عن الجدل الدينى لأنهم يمثلون مذهبا عالميا ولا يكونون فرقة من الفرق الاسلامة ، ولذلك روجوا لدعوتهم داخل وخارج العالم الاسلامى . فكلمة بهائى أصبحت تشبه كلمة « زنديق » القديمة التى استعملت من قبل فى هذا المعنى ، وكانت تطلق فى العصر العباسى على من ينحو من المسلمين فى تفكيره الدينى نحو العقائد الزرادشتية والمانوية [1] .

هذه الدعوة كانت تنتشر فى الوقت الذى كان الفتى قد بلغ فيها مرحلة الشباب ، وقد كانت بغداد مركزا لبهاء الله بعض الوقت [2] ، فمن الطبيعى أن تكون موضع جدال فى مجلس مفتى العراق ، وهو مجلس كان يضم كبار المثقفين يجتمعون ويتناقشون فى شتى الموضوعات ومختلف المشاكل العلمية . وكان الشاعر

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٢٤٢ ــ ٢٤٩

(٢) ظهر البهاء فى بغداد مرة ثانية عام ١٨٨٩ (راجع تاريخ العراق بين احتلالين حـ ٨ ص ١٠٨ ، ١٠٩

الشاب يحضر هذ الجلسات ويستمع الى ما يثار من قضايا ، فهل تأثر بأفكار البهائيين فى ذلك الوقت ؟

أكبر الظن أنه درس عقائدهم ، فقد كان فى هذه الفترة من عمره شغوفا بالمعرفة منكبا على الدراسة ولوعا بأن يحقق لنفسه ثقافة تجعله أهلا لحضور هذه الجلسات . والذى لا شك فيه أنه قد تأثر بأفكارهم تأثرا كبيرا وضح فى شعره بعد ذلك كما وضح فى تفكيره وأسلوبه فى الحياة . ولا نستطيع أن نجزم بأنه اتخذ البهائية دينا له ، لأن تعاليمهم سرية فلا يبوحون ولا يقرون ببهائيتهم أمام الناس مخافة بطش المسلمين بهم .

كذلك كان كثير من شعراء عصره ورجال الأدب يحضرون هذه الجلسات التى يعقدها مفتى العراق بداره ويختلف اليه رجالات العلم والدولة وأمراء البيان والكلام والأدباء والشعراء والأعيان والوزراء ، وتبحث فيه المسائل العلمية والمشاكل الأدبية ، وتحل فيه غوامض العلوم ، كما تثار الفتاوى والأسئلة المحيرة من جهات الدنيا . وقد حفظ المعمرون من طلابه كثيرا من أخباره[1] .

فهل تأثر الزهاوى بشعر الشعراء ، كما تأثر بأفكار البهائيين ؟ لقد كان من شعراء عصره فى ذلك الوقت الأخرس والقزوينى والحبوبى والجومرد والعمرى والطباطبائى وغيرهم وكان شعرهم على ألسن الأدباء والمتأدبين ، وهو المثل الأعلى للعصر . كان أكثره من المدائح النبوية ومدائح السلطان والولاة ، كما كان يدور

---

(١) البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ١٣٩ .

حول مجالس السمر . وكثيرا ما كان شعراء بغداد يتحدون شعراء الحلة أو غيرها من البلدان فيما يشبه المناظرات . فها هو ذا أحد شعراء بغداد يقول :

موسى بن جعفر والجوا | د ومن هما سر الوجود
هـذا غياث الخائفين | وذاك غيث للوفود

فيصر أهل المجلس على ارسالهما الى شعراء الحلة ، فيأخذها أحد شعراء الحلة ويزيد على كل بيت كلمتين : [١]

موسى بن جعفر والجواد ومن هما
سر الوجود وعلة الايجاد

هـذا غياث الخائفين وذاك
غيث للوفود وروضة المرتاد

وهكذا كانت الحياة الأدبية تدور فى هذه المجالس ، وكان هذا الشعر تحديا مرة وألغازا مرة أخرى .

والمثل الأعلى للشاعر هو قدرته على أن يزخرف قصيدته بالبديع ، مهما ظهرت فقيرة فى قيمتها التعبيرية أو خيالها أو معانيها ، فهى طاقة شعرية ضائعة فى الصناعة اللفظية وحدها . وكان أقصى ما يفهم من معانى التجديد أن يقول أبياتا فى « الترام » أو « التلغراف » أو « الباخرة » أو ما شابه ذلك من المخترعات التى يراها لأول مرة فى العراق . على أن دهشة الشاعر أمام تلك المخترعات لم تدفعه الى التعبير الوجدانى بقدر ما دفعته الى

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ٢٠٦ .

التقليد فى الأسلوب وفى الفكرة فالطباطبائى يصف الترام وقد انبهر أمام انقياد الحديد للحديد فلا يذكر الا صهوة الحديد والخلاخل والقطيع :

كيف تنقاد قلعة من حديد أو حديد ينساب فوق حديد
أبدلوها من الصعيد حديدا فاعتلت صهوة الحديد الحديد
قيدوا موضع الخلاخل منها بقيود فأطلقت بقيود ..
لا كمثل القطيع أوجع ضربا فى جلود بقطعة من جلود[1]

وعندما اخترع « التلغراف » ووصل العراق ، استقبله العمرى بأرجوزة طويلة فكيف كان احتشاده لهذا الاستقبال ؟ لا شيء أكثر من تلاعب بالألفاظ يوضح مقدرة الشاعر فى هذا العصر على التفريق بين المزيج والمركب .

ذو أحرف من أبجد وهوز تقرب الأقصى بلفظ موجز
خط على خط استواء ركبا تركيب مزجى كمعد يكربا[2]

فأى شيء من هذا الشعر يمكن أن يدفع فنانا الى التأثر به ، وهو الذى قرأ شعر المتنبى وأبى نواس ، وبشار وغيرهم من دواوين العصر العباسى التى طبعت ، وانكب عليها مفتونا بها ، ان المقارنة تدفع الفتى الى هجر هذه النماذج والى عشق القديم

---

(١) ديوان الطباطبائى ص ٧١ .
(٢) الترياق الفاروقى ص ٣٥٤ .

الذى أنتجته الثقافة العربية فى طور الرقى ، وأنتجه الذوق فى فترة السلامة ، حتى يستطيع أن يختط لنفسه طريقة جديدة غير تلك التى سلكها شعراء عصره .

ولكن أكانت هذه المجالس بعد ذلك سبيلا الى يقظة الفتى الفكرية ، وهل كانت غذاء ثقافيا كافيا ؟ الواقع أنها كانت تضم طوائف غير متجانسة فى العلم والسياسة والدين . فأصحاب المجالس يفتحون بيوتهم لأن ذلك مظهر من مظاهر الجاه والفخر وحب الظهور ، وهم يقدمون فيها المأوى والطعام . وكانت تعرض فيها الى جانب المناقشات الأدبية والدينية مشاكل الأفراد الخاصة بالزراعة أو التجارة ، ولم تكن توجه عنايتها الى التراث الفكرى الا بقدر وبين أفراد معدودين كما أن الثقافة المحدودة التى كانت موجودة فى ذلك الحين ، لم تكن حية نامية لأنه لم تكن هناك عوامل يقظة خارجية تؤثر فى القديم الموروث ، فتتفتح عقول الناس على الجديد[١] . ومن هنا كانت ثقافة الفتى الخاصة التى وعاها من كتب التراث هى التى أمدته بالغذاء العقلى ، وان كانت مجالس أبيه قد فتحت أمامه أبوابا للتفكير وللرغبة الملحة فى استكمال ثقافته .

على أن أباه كان يبغى أن يزوده بكل حدود الثقافة التى يفهمها فى الأدب وفى الدين وفى اللغات .

علمه الفارسية حتى أتقنها ، لأنه كان يعرفها ، وعلمه الكردية

---

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ٢٠٥ .

لأنها لغة لأجداده ، وعلمه التركية لأنها لغة البلاد الرسمية ، وعلمه العربية لأنها لغة القرآن ولغة الشعب ، فأصبح يجيد عدة لغات كان لها أثرها فى ثقافته وفى حياته من بعد . ثم درس له بنفسه التفسير فى البيضاوى والفقه فى شرح المواقف [1] حتى اذا أحس بنضوجه الفكرى ، هيأ له السبيل ليقتحم الحياة العملية ، لتزداد تجاربه على الأيام .

---

(١) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر سنة ١٩٤٦) .

الشاب الطموح

أقبل عام ١٨٨٤ وقد بلغ الشاب الحادية والعشرين من عمره ، وحصّل علوم عصره كالتفسير والمنطق وعلم الأصول والنحو والصرف [١] ، فليبدأ اذن حياته العملية كما بدأها والده من قبل حين وصل الى بغداد ، معلما بالمدرسة السليمانية [٢] وهى مدرسة دينية ملحقة بأحد المساجد [٣] فالدراسة فيها لا تعدو أن تكون امتدادا طبيعيا لما حصله من قبل [٤] .

كان يتزيى بزى الشيوخ فيلبس الجبة والعمامة ، ويصطحب معه كتب العلم ثم يذهب الى « ساحة الميدان » حيث تقع المدرسة ، ويتحلق حوله الطلاب يستمعون اليه ويناقشونه وهو فى كل ذلك متمكن من مادته قوى الحجة ، فما من مسألة تعرض له الا قتلها بحثا [٥] . على أن الأمر لم يكن يخرج فى ذلك الوقت بكل المدارس الدينية عن دائرة الشروح ، يقضى الطالب فيها

---

(١) الكائنات ص ٥ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العراقى (المجلد الخامس ١٩٥٨) محمد فيضى الزهاوى لمحمد الخال ص ١٢٨ .

(٣) تاريخ مساجد بغداد وآثارها لمحمود شكرى الآلوسى ص ٧٥ .

(٤) مختارالزهور ص ٢٠٣ ، الزهاوى وديوانه المفقود ص ٢٣ .

(٥) الزهاوى الشاعر ص ٢١ .

بضعة عشر عاما كما قضى جميـل نفسه قبل أن يصـبح معلما بالسليمانية ، فهى دائرة مفرغة يدور فيها الطالب والأستاذ دورانا متصلا لا يكاد يخرج عن نطاقها الموروث .

وكانت أعداد « المقتطف » الأول قد بدأت تصل بغداد ، وهى من المجـلات التى أسهمت بحق فى لفت الأنظار الى ثقافة الغرب العلمية بما استوعبته من مقالات مترجمة ، وبما نقلته من تجارب الغربيين العلمية فى الطبيعة والرياضة والفلك وغيرها ، فكانت رافدا من تلك الروافد التى ربطت بين الشرق والغرب من الناحية الثقافية . والواقع ان مصر حين ظهرت بهـا مجـلة « المقتطف » كانت قد وصلت الى مرحلة من التطور الثقافى أحست فيها بحاجتها الى نقل المعرفة للجمهور . فمنذ مطلع القرن التاسع عشر والصلة بينها وبين الغرب تزداد أصـالة يوما بعـد يوم عن طريق البعثات وحركة الترجمة والمد الغربى . وما كان ممكنا أن تقوم ثورة الشعب بمصر عام ١٨٨٢ لو لم تكن النفوس قد تهيأت لطلب الاصلاح وسرى الوعى بينها بعد أن تفهمت مبادىء الثورة الفرنسية وأحست بحاجتها الى ثورة مماثلة .

ولكن هذا الشاب البغدادى المتوثب شعر أن ثقافة المقتطف غريبة عليه ، فقد عاش داخل أسوار العلم الموروث وداخل الأسوار التى بناها العثمانيون حتى لا يتصل البغداديون بالحياة الأوربية . ومن هنا بدأ يقرأ بنهم غريب ، فقد أحس أنه يستطيع تحطيم محيط تلك الدائرة التى فرضت عليه ، وأن يخرج الى آفاق أوسع ، وأن المعرفة لا تقتصر على ما تعلمه وما يقوم بتدريسه ، وشعر أنه

فى حاجة ماسة الى زيادة معارفه ، غير أنه لا يعرف لغة أوربية تمكنه من التعمق الذى ينشده فليقرآ اذن ما يترجم الى التركية أو الفارسية .

وهذه الفترة من عمره كانت مرحلة التكوين الأصيلة ، فقد الكب على القراءة يدفعه شوقه الى التهام كل ما تصل اليه يده من الكتب حتى استنفد كل حيويته الجسمية ، وسرعان ما أصبح هزيلا لا يبدو عليه شيء من نضارة الشباب ، فاختفت عيناه وراء عوينات سوداء وشحب لونه واشتعل رأسه شيبا [1] .

قرأ النظريات التى دافع عنها الرياضيون فى القرن الماضى ، والتى بثها هنرى بوانكاريه الرياضى الفرنسى المشهور ، بعد أن ترجمها الى التركية صالح زكى مدير جامعة الأستانة [2] . وفهم رأى العلماء الذين أرجعوا كل الحركات والتغيرات التى تحدث فى الكون الى الجاذبية ، وان مرونة الهواء وحركة الماء وهوى الأجسام الثقيلة وصعود الأجسام الخفيفة ، كل ذلك يرجع الى المبدأ نفسه وعندما يستنبط هؤلاء العلماء الالتئام والتحليل والتجمد والافراز الحيوانى والتخمر وكل العمليات الكيميائية ، عندما يستطيعون ذلك من الجاذبية التى لا تحس بين أقل الجزئيات فى أصغر المسافات ، وعندما يضيفون اليه أنه بلا مبادىء كهذه لا يمكن أن تكون فى العالم حركة ، وأنها لو وقفت لوجب أن تنقطع كل حركة ، عندما يقولون ذلك لا يعرف المرء ولا يفهم

---

(١) الزهاوى الشاعر ص ٢٣ .
(٢) الزهاوى الشاعر ص ٢٥ .

شيئا آخر غير أن الأجسام تتحرك حسب نظام معين ، وأن حركتها لا تصدر عنها .

وقرأ ترجمة الدكتور شبلى شميل « لشرح باخنر على داروين » [1] وفهم رأى داروين ونظريته فى النشوء والارتقاء فيما يتعلق بالانسان ، تلك التى يقرر فيها من الأشياء التى لا تسلم بها العقول مشابهة الانسان عن طريق المصادفة للقردة العليا فيما لا يقل عن سبع عضلات من عضلات جسمه ، أما اذا اعتقدنا أن الانسان متسلسل من صورة تشابه صورة القردة العليا ، فمن الممكن ادراك هذا التشابه .

ولم يكن عقله وحده المشغوف بالمعرفة ، فقد كانت نفس الشاعر تتطلع الى تراث الغربيين الأدبى ومن هنا قرأ شيكسبير وهوجو وجوته مترجمين [2] وبدأ عقل الشاب يفكر فى تلك النظريات العلمية التى استوعبها حول الجاذبية وتعليلها ، وحول موقف العلم المتطور من الدين . ان سر قوة الغرب تكمن فى ايمانهم بالعلم ، واذا آمن هو بعلمهم فما موقفه من الدين ؟ والواقع أن تقدم العلم لم يؤثر فى حقائق الدين ، وأن نظرية داروين نفسها ليس هناك ما يقطع بصحتها ، ولكن عقل الشاب بقى حائرا . وكما بدأ يفكر فى النظريات العلمية ، بدأ أيضا يدرك الدور الحقيقى للشعر وللقصة وللأدب بوجه عام فى تصوير المجتمع

---

(١) الزهاوى الشاعر ص ٢٣ .

(٢) رسائل الزهاوى .

وفى محاولة توجيهه ويقتنع أن شعراء عصره لم يقوموا بواجبهم بما ينظمونه فى مجالس السمر من مساجلات .

بدأ الشاعر الشاب يحس بثقافته الممتازة حين يقارن نفسه بشباب عصره ، بل حين يجلس فى مجالس أبيه ، فقد وصل القديم بالحديث وبقوا على الموروث . وما كانت هذه التجربة لتمر به دون أن يتردد أثرها العميق فى نفسه ، فقد بدأ يحس أنه لا يعيش فى البيئة الملائمة التى تقدره حق التقدير .

وكيف يتساوى معلموا السليمانية ممن لم يخرجوا فى حياتهم عن دائرة النحو والصرف والأصول به وهو المطلع على أحدث النظريات الغربية فى الطبيعة وقارىء داروين وشيكسبير وهوجو وغيرهم ؟ لا شك أن الحظ قد تجهم له وابتسم لغيره ممن يقلون عن ثقافته ويرتفعون الى أعلى المناصب :

رقت بأناس جاهلين حظـــوظهم
الى رتب فى الجاه والحظ مرقـــاة
تزول منـــافاة النقيضـــين منهما
وبين الحجا والحظ تبقى المنافاة[1]

بين العلم والحظ تنافر أشبه بتنافر قطبى المغناطيس ، هكذا ردد المثقفون فى كل عصر ، وهكذا ينبغى أن يطمئن الى ســنة الطبيعة فى توزيع المواهب والأرزاق لولا أن طموحه قد بلغ به حدا ينفى عنه الطمأنينة . طموح المثقف الذى يتلفت حــوله فلا يجد حرية ولا عدالة ولا ثقافة والحرية تنفس عن آماله الكبيرة

(١) الكلم المنظوم ص ١٧ .

والعدالة تنصفه مما يحسه من ظلم اجتماعى والثقافة تلائم تفكيره وعقليته .

لقد ثار المتنبى من قبل على البيئة التى عاش فيها وثار حتى على نفسه وتنقل فى أرجاء الوطن العربى فلم يحقق أمـــلا من آماله ، ولم يشعر فى بيئة من البيئات أنه أرضى طموحه ورضى من نفسه وتعصف بنفسه الثورة الجامحة ، فلا هو بقادر على أن يتلاءم مع الوسط الذى يعيش فيه فيطمئن كما يطمئنون ، ولا هو قادر على أن يغير هذا الوسط بشعره « ولا هو بقادر بعد ذلك على أن يحقق لباناته فينعم بلذة العيش الهانىء . ويتخذ الفن الثائر لسان الشاعر ترجمانا فيردد :

ولست أخاف الموت أو أرهب الردى
ولكن لنفسى يا أخا الود حاجـات
قضى كل ذى حاج لبانة نفســـــه
وما قضيت لى فى الحياة اللبانات (١)

ولكن المتنبى كان أكثر جرأة من شاعرنا ، غير أن الزهاوى كان أكثر سخطا وبرما « ولعله كان فى الواقع يخشى الموت ويرهب الردى فلم يملك الا سلاح الشعر يوجهه الى نفسه الثائرة .

كان شأن الكثيرين ممن يفكرون فى أهداف لا يستطيعون الوصول اليها فيشكون من تصاريف الزمان وكان شأن القليلين ممن عاشوا فى غير عصرهم بتفكيرهم ولكن عصرهم عرف أقدارهم أو عرفت أقدارهم بعد عصرهم . ولعله أدرك ذلك وخشى أن

(١) الكلم المنظوم ص ١٧ .

يكون حظه مثل حظ الفريق الثانى ورغب رغبة شديدة فى أن يحظى بشىء من التقدير فى عصره ، فهيأ نفسه للعمل من أجل تحقيق ذلك .

فى أواخر عام ١٨٨٧ عين « مصطفى عاصم » واليا على العراق من قبل الحكومة العثمانية ، وقرأ فضيلة المفتى « محمد فيضى الزهاوى » الدعاء باللغة العربية طبقا للمراسيم التقليدية [١] . وكانت فرصته أمام شاعرنا أن يمدح الوالى الجديد ، وأن يسعى فى أن تصل اليه قصيدته التى يقول فيها .

بكيت ولكن لا بكاء الغمائم
ونحت ولكن لا نواح الحمائم ...
وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من صرف الزمان بعاصم[٢]

وما من شك فى أن الوالى الجديد قد عرف عن سعة ثقافته الكثير بعد هذا المديح ولعله أراد أن يجامل المفتى فى شخص ولده فما هو الا قليل ، حتى كان شاعرنا عضوا فى مجلس معارف بغداد وهو منصب لم يكن يحلم به الا القلة من شيوخ بغداد ولم يقع فى أيام هذا الوالى ما يستحق تدوين المؤرخين . فلم يكن أمام أعضاء مجلس المعارف اذن ما يشغلهم ، ولم يكن أمام شاعرنا الا أن يزيد تعميق ثقافته ولعله أحس بالرضا والطمأنينة

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين جـ ٨ ص ٨٣ .
(٢) الكلم المنظوم ص ١ .

وشعر أن علمه أوصله الى هذا المنصب المرموق فازداد شغفا بالقراءة ، ولم نعد نسمع صدى النفس الثائرة .

وفى هذه الفترة كانت جريدة الزوراء الرسمية قد انحطت كثيرا من حيث المادة واللغة ، ويبدو أن أسلوبها الركيك كان موضع انتقاد فى مجلس الولاية [1] فعهد الى جميل الزهاوى بتحريرها ، وأسندت اليه ادارة مطبعة الولاية وكان ذلك عام ١٨٨٨ [2] . وكانت « الزوراء » تنشر شئون الولاية وأصولها والقوانين والأنباء الرسمية ، والبراءات السلطانية ونصوص المعاهدات والوثائق وأخبار السلطنة وبعض أخبار الدول الأخرى الرسمية ، فهى أشبه بالوقائع المصرية فى مادتها ، وأشبه بها فى حجمها أيضا .

والأديب لا يجد مجالا فى مثل هذه الجريدة لاظهار مواهبه والتعبير عن نفسه وانما هو يصوغ أفكار غيره ويصحح أساليبهم وينسق أخبارهم ، ومن أجل ذلك لم يضق شاعرنا حين ترك هذه الجريدة وعين عضوا بمحكمة الاستئناف عام ١٨٩٠ . [3] فصلة الزوراء بالأدب واهية ، بينما صلة العدالة والقانون بما درس من فقه قوية أصيلة .

« كانت المحاكم على ثلاث درجات : بدائية واستئنافية وتمييزية . فالمحاكم البدائية توجد فى مركز كل ولاية .. ومحكمة

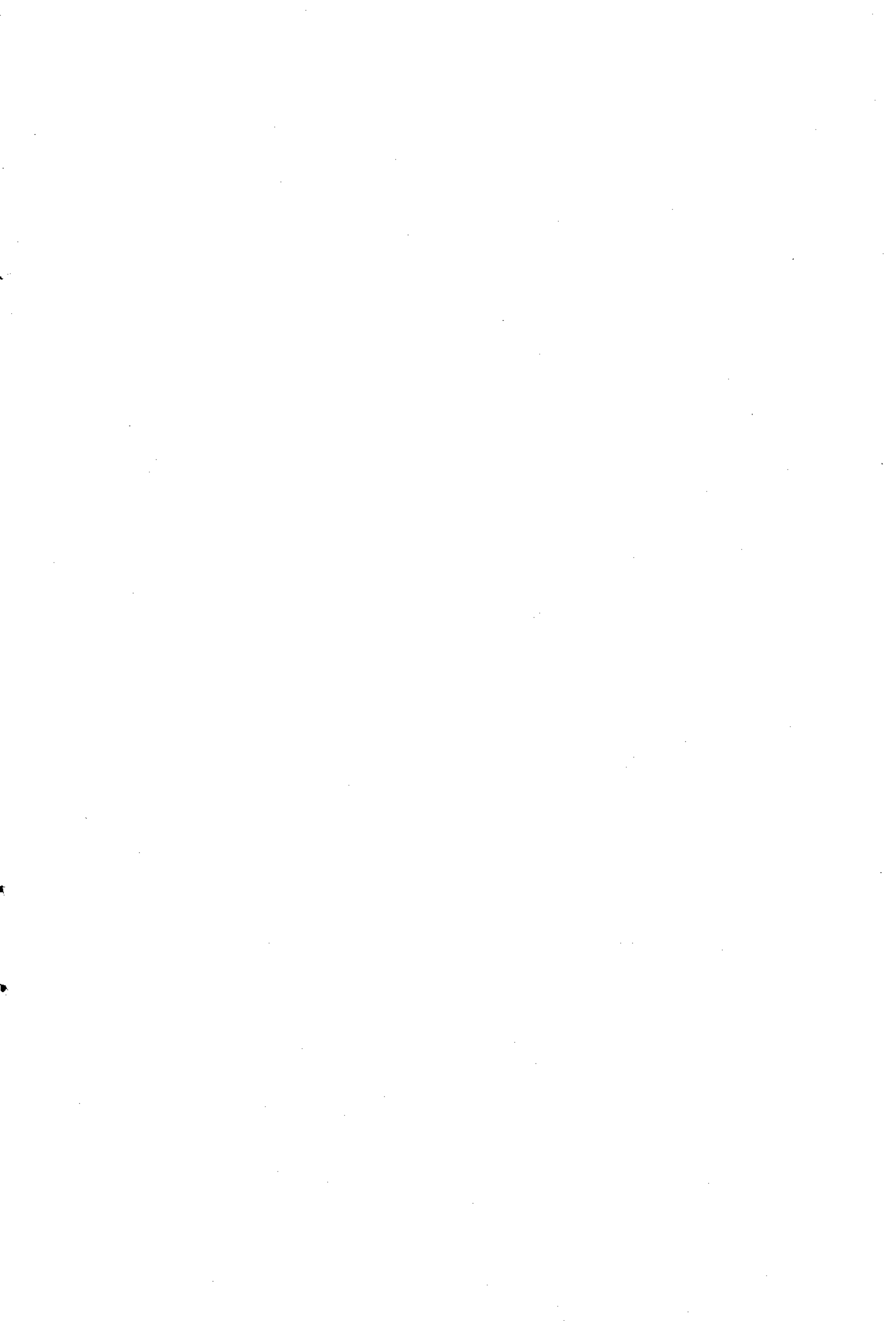
(١) الصحافة فى العراق ص ١٥ و ١٦ .
(٢) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٢٣ .
(٣) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٢٣ .

الاستئناف التي مقرها بغداد وتنظر فى القضايا المستأنفة من أنحاء العراق المختلفة ، وهى تتألف من حكام معينين بارادة سنية ، ومن هيئة من الأهلين أيضا . وفى حالة التمييز فمقرها استانبول . ولم يكن راتب العضو الأهلى فى المحكمة يتجاوز الليرتين ونصف ، ولكن الوجوه كانوا يتنافسون على هذا المنصب ، ويبذلون الرشوات بسخاء للحصول عليه . ومن الطبيعى أن يكون رأى هؤلاء صوريا بالنسبة الى رأى الرئيس ، فهم موافقون دائما على قرارات الحكام مهما شطت عن السبيل السوى » .

وهكذا ابتسم الحظ للشاب الطموح فوصل فى سن السابعة والعشرين الى ما لم يصل اليه غيره فى شيخوختهم . وحياته فى هذه الفترة غامضة أشد الغموض ، فليست هناك محفوظات لقرارات المحاكم ، وليس هناك من المعمرين من يمتد عمره الى ذلك التاريخ وكانت له صلة بشاعرنا فى ذلك الوقت ، ولم يتحدث الشاعر فى رسائله عن تلك الفترة وأهملها اهمالا ، ويبدو أنه لم يكن فيها ما يستحق التسجيل فرئيس المحكمة هو صاحب الرأى الأول ، ولكنه اكتسب من التجارب ما أفاده فى حياته من بعد .

ولم يكد يهنأ جميل بمنصبه الجديد ، حتى فجع فى أقرب الناس اليه فقد مات والده بعد أن عمر طويلا ، وشغل منصب الافتاء ما يقرب من أربعين عاما ، وانفضت مجالسه التى كانت مقصد الأدباء والعلماء وكبار الشخصيات فى بغداد ، ودفن فى المدرسة التى علم فيها حين وصل بغداد ، وعلم فيها شاعرنا حين بدأ حياته العملية .

كان يكفكف من عبراته وهو يفكر فى مصيره ، وأحس بشىء من الدهشة فى هذا الفراغ الذى خلفه والده بعد رحيله ، وبوحدة قاتلة بعد أن تهدم السند الذى كان يرتاح اليه . لم يعد أمامه الا أن يشق طريقه بنفسه صعدا ، مهما أدمت الأشواك قدميه . كانت الحياة الى اليوم خمرا ، وغدا سيكون لها شأن آخر .



الباب الثاني

في الآستانة

رب الأسرة

آن للشاب الطموح أن يعرف شيئا من الاستقرار ، وأن يبحث عن الزوجة الصالحة . ولعله أراد أن ينسى أحزانه بوفاة والده ، فهو لا يذكر تاريخ زواجه الا مقرونا بهذا الحادث ، ولعله أحس أيضا أنه قد وصل الى منصب مرموق تطمح اليه الأنظار . واذا كان قد أمسك بيده ميزان العدالة ، فمن العدالة أن تعرف نفسه الطمأنينة ، خاصة وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ، وهى سن لم تكن مبكرة فى الشرق منذ ما يقرب من قرن [1] .

كانت العادة أن تختار الأم أو الأخت الزوجة للابن أو الأخ ، فاختارت له والدته الفتاة التى توسمت فيها الذكاء والجمال ، وهى الآنسة زكية [2] .. من أسرة تركية معروفة فى بغداد . ولعله لو خير بينه وبين نفسه لطلب أن يختارها بنفسه ، فكثيرا

---

(١) يقول هلال ناجى فى كتابه عن الزهاوى أنه تزوج فى الخامسة والعشرين من عمره (ص ٢٧) والواقع أنه تزوج بعد ذلك بعامين لأن والده مات عام ١٨٩٠ كما هو ثابت فى تاريخ مساجد بغداد (حاشية ص ٧٥) والشاعر يذكر فى مذكراته لأحمد عيش أنه تزوج بعد وفاة والده ، وجميل كما ذكرنا وذكر مؤرخو الأدب قد ولد عام ١٨٦٣ .

(٢) رسائل الزهاوى (الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦) .

ما تصدعت الأسرة من جراء هذا الاختيار الغريب ، فالرجل يلتقى بشريكة عمره كله دون أن يكون الاختيار أو الاختبار من حقه .

وبدأ يؤثث بيته . على عادة العراقيين ، ولكن ما قيمة كل هذا ان لم تكن الزوجة قادرة على فهم زوجها ، وعلى أن تحيل بيته الى عش هنيء يحس فيه بالراحة والسكينة ، وهو الشاعر الفنان ؟ فلتأخذ الأيام بسرعة بيد « العزوبة » الى خير السبيل ، فقد طالت عليه ، ومهما يكن من أمر الغد فهو يتفاءل خيرا ويحس أن هذه الأسرة الجديدة التى يكونها هى امتداد للأسرة التى كونها أبوه وأجداده . نظام دورى نجرى فيه دون أن نعرف مداه ، ولكنها على أية حال سوف تكون أسعد من الأسرة السابقة التى كونها أبوه ، فقد حرم من حنان الأمومة صغيرا .

عرف الشاعر الشاب الحياة الأسرية ، ورأى لمسات الزوجة الرقيقة ، فى كثير من مظاهر حياته . فبيته على بساطته منسق أجمل تنسيق ، وهو على شاكلة البيوت العراقية ذو طابق واحد تحته السرداب الذى يلجأون اليه اذا ما اشتد حر الصيف . ويتكون من أربع حجرات . احداها للاستقبال وأخرى للطعام وثالثة للنوم ورابعة خصصها لتكون صومعة له ومحرابا . ولم تكن غرفة مكتب بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، وانما كانت الغرفة الوحيدة بالبيت التى لا تعرف النظام . عشرات الكتب تنتشر هنا وهناك ، وأعقاب السجائر تملأ الأرض ، وأوراق وأقلام مكدسة وكرسى وحيد بالغرفة ، وحشية فوق البساط يستلقى عليها الشاعر

ان أتعبه الجلوس [1] ثم مكتبة تضم بعض القواميس ودواوين الشعر وكتب النقد وروايات مترجمة .

ولكن بقية الغرف علت جدرانها بعض الصور واللوحات ، وأكثرها التقطت للشاعر فى مناسبات خاصة [2] .

وأحاطت بالبيت الصغير حديقة كسا العشب أرضها ، وعن يمين البيت وعن يساره نافورة صغيرة يندفع منها الماء الذى يجرى الى قناة ممتلئة بطول الحديقة ، فيسقى شجيرات النارنج والبرتقال وبراعم الورد ، والنخيلات التى تقف كالحراس خلف البيت على أطراف الحديقة . ومن الواضح أن خيال فنان هو الذى رسم هذه الحديقة ، وأن يد فنانة هى التى نسقتها وأشرفت على رعايتها . وهكذا رفرف الحب على هذا البيت الهادىء ، حب من جانب الزوجة ، وتقدير من جانب الزوج .

كان يستقيظ من نومه مبكرا مع شقشقة الفجر وشدو الطيور التى تملأ أشجار الحديقة ، فيتناول طعام الفطور ، وغالبا ما يتكون من البيض الطازج والتمر مع اللبن الرائب . ثم تتولاه زوجه بعد ذلك فتمشط له شعره وتلبسه بيديها ملابسه . وقد حملت عنه كل أعباء الحياة اليومية ، فكانت تشترى له كل حاجاته حتى

---

(١) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ (ذكريات عن الزهاوى لمحمد مهدى الجوهرى) .

(٢) من حديث بينى وبين الأستاذ حكمت عبد المجيد « قريب الشاعر » .

ملابسه ليفرغ لعمله وحده . وهى تعلم ما يحب من الأطعمة ، تعرف أنه يشتهى فى الغذاء أيدى الضأن أو السمك المشوى فتهيىء له ما يهوى ، ثم تعلم أن البيت والحديقة ينبغى أن ينسقا فتشرف على الخدم فى اعداد الطعام وفى تنسيق البيت[1] حتى اذا ما عاد الشاعر من عمله وقت الظهيرة ، وجد ما يبهج صـــدره ويزيده احساسا بهناءته وتعلقا بحياته الجديدة .

كان يواجه مشاكل الحياة فى الخارج بنفس قلقة ، فاذا ما دخل بيته عادت اليه الطمأنينة ، وكأنما أدركت زوجه منذ البداية أن الشاعر يحكم خياله أكثر الأحيان فى واقع الحياة ، ويعيش بأعصابه ، فلا مفر من أن تحكم هى عقلها فتزيل ما يعتريه من توتر كل حين . كان محافظا فى بيته ، أبى أن تكون زوجه سافرة برغم اقتناعه بآراء قاسم أمين ، فأطاعته ، ولكنه سمح لها بزيارة أهلها كلما أرادت فقدرته ، وأبت هى أن تتلف جمال الطبيعة بالطلاء الزائف فاحترمها[2] .

وكان يجلس عصر كل يوم فى الحديقة مع زائريه من أصدقائه ، يسمرون أو يرددون الشعر ، ويناقشون قضاياه ، وهو فى كل ذلك قوى الحجة فى نقاشه ، فكه فى حديثه ، ممثل فى القاء شعره.

واذا ما أقبل المساء وانفض مجلس السامرين ، بقى ليدخن ويشرب القهوة ، ويطالع وجه السماء . يدور عقله دوران المحقق فى النجوم

---

(١) رسائل الزهاوى لأحمد عيش .
(٢) المرأة الشرقية (الهلال أكتوبر ١٩٢٤) .

ويهيم خياله هيام الشاعر المأخوذ بسحرها [1] وعلى هذا النحو تتابعت به الأعوام .

وهو شاعر يسبيه الجمال وتفتنه الرقة ، ويأخذه الفن مجسما فى شتى الصور ومن هنا عرف نساء آخريات عرف « راحيل » الأسبانية معرفة الفنان الذى يستمد من تجاربه مادة لفنه والهاما ووحيا . وما من شك فى أنه أحبها كما أحبته [2] أحبت فيه عقله لأنه لم يكن وسيما ولا فاتنا ، وأحب فيها فتنتها — وكانا يلتقيان كثيرا فيحس احساسين غامضين ، احساس العاشق السعيد ، واحساس المذنب الآثم . وهو لم ينجب من زوجه وكان أهله قد بدأوا يقلقون ، ويلحون عليه أن يفكر فى الزواج من أخرى . ولعله قد فكر فى الزواج من « راحيل » ولكنه عدل لاختلاف الدين وامتنع حرصا على كرامة زوجه الوفية ، هكذا انتهت هذه الصلة نهاية آسفة ولكنه قلق لا يصبر على طول اللقيا ، ولا يصبر على طول الفراق ، فعرف نساء غير « راحيل » معرفة لم يطل أمدها . وكانت زوجته حين يبلغها شىء من ذلك تبتسم ابتسامة الواثقة [3] ولعل هذا من الأسباب التى دفعتها أن تمسك بيد قوية ايراد زوجها [4] دون أن تتصرف تصرفا أهــوج من شأنه أن يعكر صفو البيت الهنىء .

---

(١) رسائل الزهاوى .
(٢) الزهاوى ديوانه المفقود ص ٢٧ .
(٣) من حديث بينى وبين الأستاذ حكمت عبد المجيد .
(٤) من حديث بينى وبين الأستاذ أحمد حامد الصراف تلميذ الشاعر وصديقه .

ولعل مظاهر حبه للفن تتجلى فى أسمى صورها حين كان يستمع الى الموسيقى ، فلا يملك دموعه فى كثير من الأحيان [1] خاصة اذا انبعثت من أنامل « ملك الكمان سامى الشوا » كما تتجلى حين يأتى بعض الفنانين الى بغداد وعلى الأخص من المصريين .. فلم تفته حفلة واحدة من الحفلات التى أقامها يوسف وهبى وفاطمة رشدى ونادرة وسامى الشوا ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ، ولم تفته احدى هذه الحفلات دون أن ينظم قصيدة يعبر فيها عن مشاعره .. ولا يزال البغداديون يذكرون يوم اعتلى الزهاوى خشبة المسرح فى حفل أم كلثوم ووقف ينشد :

الفن روح أنيق غير مشئوم
وأنت بلبلة يا أم كلثوم
لا تفزع الكاعب الحسناء من كلمى
فان نصل سهامى غير مسموم

ويفهم الجمهور المعنى البعيد ، فيشتد التصفيق ويعلو الهتاف ، ويستعاد البيت ويرد الشاعر للجمهور تحيته ، وتهتز كوكب الشرق لثناء الشاعر اهتزاز سامعيها لغنائها ، ويستمر الشاعر :

بلى جئنا بلحن قد شدوت به   وقبل ذلك ما كنا مجانينا
ماذا علىّ اذا آليت فى كبرى   ألا أغازل الا الربرب العينا ؟

ثم يقبل أم كلثوم فى جبينها — كما قبل فاطمة رشدى —

---

(١) رسائل الزهاوى .

فتطلع صحف الصباح منكرة عليه هذه الخفة مدعية أنه ينشد الشهرة ، ولكنه لا يعبأ بانكارهم ، ويرد بأنه ان لم يعبر عن أحاسيسه ازاء جمال الفن « انى اذن حجر من الأحجار » أما شهرته فأقوى من أن يحاول اثباتها « فهل شهرتى ضاعت فأصبحت ناشدا ؟ [1] » .

وهكذا كان يعتبر الزهاوى قصائده هى أبناؤه ، فلم يحس يوما أن رغبته فى نعمة الأبناء يمكن أن تتلف عليه حياته .. وهو يعلم أن الطبيعة تحرق جهود العبقرى لتنير الطريق للناس ، فلا تتطلب منه جهدا آخر ، ففلسف الموقف بأن العقم ربما كان منه هو ، وهو بذلك يريد أن يزيح القلق الذى يستبد به بعض الأحيان ويطمئن نفسه .

كان أمامه حادث لا يود أن يبرح مخيلته ، هو فراق أبيه وأمه ، فقد أحس أن الرجل يتجنى على المرأة أحيانا من أجل رغباته ، ويبرر الأسباب التى يقنع بها نفسه ويرضى ضميره . وهو فى كل ذلك لا يحكم منطق الأحداث ، وانما يحكم عواطفه ، فزوجه كريمة معه وفية له ، فكيف يتصور فراقها من أجل أمر لا يد لها فيه ؟ ولعلها أشد شوقا الى الأبناء منه ، ثم أى سعادة هذه التى يبنيها على شقاء أقرب الناس اليه ؟ وهو لا يحس برابطة أخوة حقيقية تربطه باخوته غير الأشقاء — كما كان يصرخ فى

---

(١) شعراء بغداد جـ ٢ ص ٣٦١ .

كثير من الأحيان [1] — ولكنه ينظر اليهم كأبناء امرأة حرمت أمه من أبيه ، لذلك تمثلت أمامه صورة المرأة المظلومة فى كل ما كتب دفاعا عن النساء من بعد ، فقد تجسم فى خاطره حرمان المرأة وجبروت الرجل .

ولكن أمثال هذا الصراع بين عقله وقلبه ، بين ضميره وعاطفته ، ما كان يمر دون أن يترك آثاره قوية فى منامه وفى أحلامه .. يقول : « كنت فى شبابى وكهولتى أسير فى المنام ، وكانت بعض أحلامى مزعجة أنتفض لها وأهب من نومى مذعورا وكسرت فى ليلة كل ما فى غرفتى من المرايا والأدوات الصينية والمصابيح الثمينة وأنا نائم ، فدميت يداى بجراح أحدثها كسر الزجاج .

وكانت قرينتى ترتجف من الخوف فى سريرها — وقد انتبهت من نومها على صوت الزجاج والأوانى التى كانت تتكسر .. وقد رميت نفسى مرة من شباك .. ولم يصبنى الا رضوض .. وكثيرا ما أنظم فى حلمى شعرا وأنساه ، وقد أحل فى نومى مشكلا لم أحله فى يقظتى » [2] .

والأحلام المؤلمة — كما هو معروف عند علماء النفس — تشابه من بعض الوجوه الخواطر المؤلمة التى تستحوذ على الانسان فى يقظته .. انه يتأفف منها ويتململ ، والصراع النفسى

---

(١) من حديث بينى وبين الأستاذ محمود صبحى الدفترى صديق الشاعر وتلميذه .
(٢) رسائل الزهاوى .

العنيف الذى يحاول صوت العقل الواعى كبته فى اليقظة ينتهز فرصة النوم ليجول ويصول بأسلحته الرمزية التى تخرج على صورة أحلام مفزعة أو غير ذلك من ضروب التعبير[1] .

فاذا ما انتهى الليل ، انتهى معه الصراع النفسى ، وعاد الى صراع الحياة تمسها ، والى مجالسه الضاحكة وقراءاته المثمرة . كان يحب الحياة ويعشق الطبيعة الحية والصامتة ، وكثيرا ما كان يقطع مسافة طويلة ليجلس مع صديق له تحت شجرة فى العراء ، يجلس الساعات فلا يمل الجلوس ، وكثيرا أيضا ما كان يخرج فى نزهات على شط دجلة أو الفرات يجدد بها نشاطه فيعود أكثر حيوية وقدرة على مواجهة الحياة كشاعر يفلسف موقفه من الدنيا . يقول الجواهرى : « قال لى مرة يا ابن الجواهرى ، سنخرج غدا الى (الكاورية) ويصنع لنا سمك مسكوف [2] آنذاك — ولم تكن الكاورية على استعداد كامل لضيوفها — وسنأخذ معنا سماورا صغيرا للشاى .. وحل الموعد وانحدرنا بزورق أعد لنا ، وعرجنا فى طريقنا على السماكة ، وقد هيئوا لنا عشاءنا وانتصب سماور الشاى الجميل ، وكان فراشنا الرمل الأحمر الطرى ، ومدت المائدة ويا للقلق اذ اكتشفنا أنه ليس معنا ملح ، والأكلة سمك لاغير .. أتدرون ماذا دبر السيد الزهاوى .. ؟ لقد

(١) الأحلام بين العلم والعقيدة لعلى الوردى ص ٩٩ .

(٢) نوع من السمك الضخم يفتح من ظهره ويشوى على النار. الذى يمر الآن على شاطىء دجلة بشارع أبى نواس فى فصل الصيف يجد النيران مشتعلة على طول الشاطىء ورائحة هذا السمك تنبعث منها .

أمر خادمه أن يجمع له مما فى الزورق أو مما على الأرض من أخشاب خفيفة أو أعشاب وأن يحرقها ، والى هنا وأنا لا أفهم ماذا يريد الأستاذ وصنع الخادم ما أراد السيد فكانت كومة من رماد محترق طرى ، وسرعان ما نهض السيد الزهاوى فجمعها وابتدأ يذرها على السمك ، وهو يتمتم ولحيته الكريمة تخفق هذا ملح صحى ونافع وفيه ملوحة نقية[1] .

وهكذا كانت حياة الشاعر القلق ، كثيرة الهواجس اذا ما خلا بنفسه ، مطمئنة راضية بصحبة أصدقائه ولكنها أكثر طمأنينة وبهجة اذا ما جلس الى زوجته الوفية ، ولم يكن يعكر صفو حياته آنذاك الا بعض الأمراض التى أصابته فى شبابه كالسعال المزمن نتيجة اسرافه فى التدخين [2] أو اصابته بمرض عضال فى النخاع الشوكى لم يبرأ منه [3] ولكن كان يخفف من قسوة آلامه أن زوجه كانت ترعاه وتمرضه دون أن يضجرها طول الرعاية ، فقد كان زوجها كل دنياها ، وكانت لديه أربح ورقة كسبها طول عمره .

---

(١) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ « ذكريات عن الزهاوى للجواهرى »

(٢) رسائل الزهاوى .

(٣) سحر الشعر ص ٥

ضيف السلطان

كان السلطان عبد الحميد قد اعتـــاد أن يستضيف بعض الشخصيات العربية أيام دعوته للجامعة الاسلامية ، فيقضون فترة بالأســـتانة ، يعودون بعـــدها دعـــاة للسلطان وكان ممن دعاهم السلطان عبد الحميد شاعرنا جميل الزهاوى ، وذلك فى عام ١٨٩٦ [١] ولا شك أن الشاعر قد سره هذا التقدير من الخليفة ، وسره أن يزور الأستانة ، فهى أول مرة يخرج فيها من العراق .

تهيأ الشاعر للرحيل ، وكانت المشكلة أمامه هى ما معه من مال ، فقد خشى ان تركه أن يتعرض للسرقة ، فأخذه معه ، يسير به أينما سار ، ويحل به أينما حل ويتركه عند صديق ان سار فى طريق يخشى عليه فيها . وكان عليه أن يسير الى مصر أولا ثم يرحل من هناك الى عاصمة الخلافة ، وهو يعلم أن اقامته بمصر لن تطول الا أياما معدودة ، ولكنه سعى ليلتقى فى تلك المدة القصيرة بنخبة من أدبائها ومفكريها .. التقى هناك بأصحاب المقتطف والهلال ، والتقى بمترجم « داروين » والتقى باللغوى الكبير ابراهيم اليازجى وبغيرهم من أعلام العصر فى مصر [٢] ، فهل أفاد من هذا اللقاء ؟

---

(١) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٢٣ .

(٢) سحر الشعر ص ٥ .

لقد كان هؤلاء المفكرون من المؤمنين بالجامعة العثمانية ، ولكنهم كانوا يندون بسياسة عبد الحميد الاستبدادية ، واتخذ يعقوب صروف وجورجى زيدان « الهلال » منبرا لهم — كما اتخذ فارس نمر المقتطف منبرا آخـــر للتعبير عن الايمان بالجامعة الاسلامية والكفر بعبد الحميد [١] .

وكان شبلى شميل من أكثرهم تأثرا بالثقافة الغربية وبمبادىء الثورة الفرنسية ولذلك أكثر فى مقالاته الحديثة عن الحرية وسيادة الأمم والحكومة والأمة . يقول فى احدى هذه المقالات تحت عنوان (نظام الحكم) : « ان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم ، فأماتت حكوماتهم من الأمة عواطف الشهامة والاقدام بما أثقلت على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليه الاستبداد ، وقوت فيه كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع ، بما أخذت من قوى العقل باطفائها نور العلم » [٢] .

ولم يكن ابراهيم اليـــازجى اللغـــوى المعروف بمبعد عن السياسة فله ثلاث قصائد مشهورة ، كانت تتلقفها أيدى العرب الأحرار فى الجمعيات السرية ، وفى كل مكان . وتعتبر قصـــيدته « تنبهوا واستفيقوا أيها العرب » . من الأعمال التخميرية الهامة التى كان لها أثرها فى تهيئة الأذهان لبداية النضال العربى . وهكذا تشبع الزهاوى بوجهة نظر جديدة غيرت رأيه فى السلطان قبل أن يضع قدمه فى أرض الأستانة .

---

(١) التيارات الادبية فى العالم العربى الحديث ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) الفكر العربى الحديث ص ٢١٣ .

على أن شاعرنا قد أفاد أثناء وجوده فى مصر من جانب آخر ، فقد نشر عدة مقالات بالهلال والمقتطف ، كما نشر كتابه الأول « الكائنات » أما مقالتاه اللتان نشرتا بالهلال فتدوران حول « الخيل وسباقها » ، وقد نشرتا فى سبتمبر وأكتوبر عام ١٨٩٦ . ويعرض فيهما الزهاوى لتجاربه فى تضمير الخيل وسرعة عدوها .

وأما المقالة الثالثة فنشرت بالمقتطف فى أكتوبر عام ١٨٩٦ تحت عنوان « الخط الجديد » والواقع أن المقتطف سبق أن كتب عن هذا الموضوع فى عدده الصادر فى فبراير من نفس العام .. فقد كان الزهاوى مشغولا بهذا الموضوع طوال مدة عضويته بمحكمة الاستئناف . وكان أحد المتصلين بالزهاوى قد حصل على صورة لهذا الخط الجديد وكتب مقالة حوله بعثها الى المقتطف فنشرت فى العدد المذكور ، وقد ادعى أن هذا الخط كاف لأن تكتب به كل الألسنة شرقية أو غربيــة ، ووافٍ لضبط كل الألفاظ التى تنطقها الناس على اختلاف أجناسهم . وعلقت مجلة المقتطف قائلة : « والقول بأن هذه الحروف تكفى لكتابة كل اللغات الشرقية والغربية لا يقوله من له المام بتلك اللغات لأن فيها أصواتا كثيرة لم يسمعها عربى ، ولو جمعت لعدت بالعشرات ان لم تقل بالمئات » .

ولم يقتنع الزهاوى باعتراضات المقتطف أو غيره وكانت فرصة أثناء وجوده بمصر أن يبسط رأيه ويرد على هذه الاعتراضات قائلا : « أول اعتراض يورده أصحاب القديم هو من باب دينى فيقولون ان القرآن الكريم وكتب الحديث مكتوبة بخطنا القديم فاذا تبدل الخط اقتضى أن يبدل خط القرآن وكتب الحديث

وهو اعتراض بمعزل عن الصواب ، اذ لا علاقة للخط بالدين ، فهو ليس غير نقوش وضعت لضبط الألفاظ ، والقرآن أول ما كتب بالخط الكوفى الذى كان حينئذ خط عبدة الأصنام فلم ينقص بذلك من شرفه شىء وقد أبدل هـذا بالخط النسخى الشائع ولم يعترض على ذلك أحد من الفقهاء والعلماء .. والثانى أنه اذا شاع هذا الخط لم يبق من يقرأ خطوطنا القديمة فتعطل كل كتبنا العلمية والأدبية كأن لم تكن شيئا مسطورا . وهذا الاعتراض ضعيف كما ترى لأن هذا الخط لا يشيع دفعة واحدة ، بل بالتدريج فى سنين طويلة فلا تطمس الكتب القديمة الا وقد أخذت مكانها كتب جديدة .. على أن أهم اعتراضات المقتطف كانت تتركز فى الأصوات اللغوية التى لا يعرفها العرب وكان رد الزهاوى أن كثيرين ممن يعرفون لغـات أجنبية امتحنوا هذا الخط فثبت لامتحانهم وأملوا جملا من تلك اللغات فكتبها الزهاوى وأعادها دون خطأ . ولعل هذا هو ما كان يهدف اليه الزهاوى بوجه خاص ، فهو يبغى أن يكون هناك خط واحد لا للعرب وحـدهم ولكن لكل الناس ولكل الأجناس ، ويكون بذلك قد وضـع أساسا متينا تقوم عليه لغة عالمية واحدة من بعد . ومن أجل ذلك بادر بنشر اختراعه هذا لا فى مصر وحدها ولكن فى تركيا أيضا .

فقد نشرت جريدة « أقدام » فى استانبول فى العددين ٤٧٤ ، ٤٨١ أن الزهاوى اخترع خطا جديدا وأن لائحة المخترع قد أرسلت الى الصدارة العظمى وحولت من هنـاك الى نظارة

المعارف العمومية لتنظر فيها وأثنت الجريدة على هذا الاختراع وعلى جهد صاحبه [1] .

وأما كتابه « الكائنات » فقد طبعه المقتطف عام ١٨٩٦ أيضا ، وقد تناول فيه بعض انطباعاته بعد قراءاته العديدة فى الفلسفة والفلك والعلوم الرياضية فعرض فيه رأيه فى القضاء والزمان والمقدار والمادة والقوة والحياة ولكن أهم ما فى الكتاب هو حديثه الطويل عن الجاذبية ويبدو أن هذا الموضوع كان يشغله بصورة خاصة حتى أفرد فيه كتابا بعد ذلك ، ثم حديثه عن الأثير باعتباره الأصل الذى تولدت منه الحياة ، وقد بقيت هذه الفكرة تتردد فى شعره بصور شتى طيلة حياته . والفكرة الثالثة الهامة فى الكتاب هى وحدة الوجود ، ويبدو أنه كان مؤمنا بها ايمانا قويا حتى جعلها نتيجة من أهم النتائج التى وصل اليها . ومهما اختلفت الآراء حول قيمة الكتاب فهو يدل على ثقافة الزهاوى أكثر مما يدل على ابداعه [2] .

ومن العجيب أن نرى كل ما نشره الزهاوى فى مصر لا يمت الى الأدب بصلة فقد كان يشغل نفسه بأكثر من جانب . كان يقرأ فى كل العلوم ، ويشغل نفسه بالبحث والدراسة وبالفن والشعر .

والبحث والدراسة يعتمدان على العقل والفن والشعر يعوزهما الخيال المبدع والتناقض واضح بين الخيال الجامح والعقل العلمى ، ولابد أن يقوم صراع بينهما كما قام لدى أمثاله

---

(١) راجع المقتطف فبراير ١٨٩٦ ص ١٣٢ وما بعدها .
(٢) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٤٨ ، ٤٩ .

ممن حاولوا اقتحام الطريقين .. فالعقاد اكتفى فى أخريات حياته بأن يكون باحثا ، وكان « ديوان من دواوين » وهو آخر ما صدر له من شعر عملا نقديا لأنه يقوم على الاختيار من بين دواوينه السابقة ، وابراهيم ناجى فشل فى مهنته كطبيب وفصل من وظيفته ، ونجح فى فنه وانتهى شاعرا يخلص للشعر وحده .. ولكن الزهاوى على خلاف أمثاله ، فقد بقى يجمع بين الدراسة والشعر . ومن المؤكد أن شعره قد تأثر بدراساته ولكنه بقى شغوفا بالجانبين معا .

هكذا قضى الزهاوى حياته فى مصر قبل أن يصل الى الأستانة ، فلما رحل اليها ، كانت الفترة التى وصل فيها من أحرج الفترات بما تخللها من اضطرابات خطيرة قامت فى تركيا ضد السلطان عبد الحميد الذى عطل الدستور وحكم حكما استبداديا مطلقا . فبعض الأحرار من مناوئى سياسته فروا الى مصر والى أوربا وأسسوا جمعيات كان هدفها الأول تحرير الدولة العثمانية من طغيان عبد الحميد . وأكبر هذه الجمعيات وأهمها هى جمعية الاتحاد والترقى التى كانت ترمى الى أهداف بعيدة عن طريق الاصلاح على النمط الأوروبى . وتتركز هذه الأهداف فى اطفاء النزعات القومية .. وتتريك القوميات المتباينة .

وفى الوقت الذى كانت فيه الجمعية دائبة النشاط فى باريس وجنيف والقاهرة أخذ أعضاء الجمعية فى القسطنطينية يدبرون انقلابا ، ربما دون اتفاق أو حتى علم اخوانهم فى المهجر . ومحاولة انقلاب ١٨٩٦ ترتبط بالحاج أحمد أفندى الذى كان رئيسا للجنة

المركزية للجمعية فى القسطنطينية وكان الجو مهيأ لذلك ، فالمذابح الأرمينية وتدخل الدول الأوربية فيها ، والثورة الوطنية فى كريت كانت من العوامل التى أضعفت مركز السلطان عبد الحميد ، وكانت الخطة أن يقوم الجيش التركى فى القسطنطينية باحتلال الباب العالى ابان اجتماع مجلس الوزراء وخلع عبد الحميد والحصول على فتوى من شيخ الاسلام بشرعية هذا الخلع ، وكان من الممكن أن يتم الانقلاب لولا أن علم عبد الحميد بأنباء هذه المؤامرة ، فقبض على رؤساء الحركة وأجرى اعتقالا واسع النطاق تلاه حركة نفى لزعماء الحركة الى خارج القسطنطينية ، وتصفية تامة لأفراد الجمعية فى المدارس العسكرية . وهكذا صفيت حركة الاتحاد والترقى الأولى [١] .

هذا الاضطراب الخطير الذى حدث فى الأستانة أيام وجود الزهاوى بها ، أكد لديه الحقائق التى سبق أن أدركها عندما مر بمصر ، وأحس أن شخصية السلطان المستبدة أشبه بكابوس ثقيل على النفوس ، ولكن حركة الجامعة الاسلامية ما زالت أصيلة تملأ القلوب ، وان كانت فكرة القومية العربية قد بدأت تتفتح براعمها . ويبدو أن السلطات العثمانية شكت فى ولاء الزهاوى خاصة بعد أن أخذ عدد من المحررين يتردد عليه ، وأوعزت الى أبى الهدى الصيادى ألا يغفل عنه ، وأحس الزهاوى أنه مراقب ، وأراد أن يعود الى بلده ولكن السلطان أصدر أمره بأن يلتحق

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربى لمحمد أنيس (القاهرة) ص ٢٥٠ .

بالبعثة — التى كانت تتأهب للذهاب الى اليمن لاصلاح شئونه— واعظا عاما [1] .

وسافرت البعثة عام ١٨٩٧ الى اليمن برئاسة حسين حلمى وهو واليها من قبل السلطان فى ذلك الوقت ، والواقع أن مهمة البعثة كانت عسيرة ، فمنذ عام ١٨٩٠ واليمنيون فى ثورة على الحكم التركى الفاسد والحروب لا يهدأ لهيبها بين قوات القبائل اليمنية والجنود الأتراك فى صنعاء وتعز وذمار — وارتكب الأتراك كثيرا من الفظائع كاحراق القرى وسجن الأهالى ومصادرة الأموال ونفى العلماء . وكانت أهم مطالب اليمنيين تتعلق بالشريعة والحدود وترك القوانين المدنية التى كان ولاة اليمن يطبقونها واطلاق بعض الحريات العامة فى اليمن [2] .

وأمضت البعثة عاما كاملا ، ومن المؤكد أنها نجحت فى مهمتها واستطاعت تهدئة الخواطر ، وأعادت لليمنيين شيئا مما كانوا يصبون اليه ، وحفظت للدولة هيبتها ، لأن السلطان عبد الحميد أنعم على أعضاء البعثة وظفر شاعرنا الزهاوى بوسام مجيدى من الدرجة الثالثة [3] ولكن من المؤكد أيضا أن الهدوء لم يستقر طويلا باليمن .

ولم تخل حياة الزهاوى فى الأستانة من مفارقات وطرائف ،

---

(١) سحر الشعر ص ٥ .

(٢) تاريخ العالم العربى فى العصر الحديث لعزت عبد الكريم وآخرين (القاهرة) ص ١٩٩ .

(٣) مقدمة الرباعيات .

فهو على عصبيته شديد المرح ، بل هو يحيا بنوادره وفكاهاته التى يزخر بها كل محل يحل فيه .. فعندما قصد الأستانة لأول مرة وكان معمما حدثته نفسه أن يدخل أحد الملاهى ولكن عمامته وقفت تحول دون تحقيق هذه الرغبة ، فقد كانت تعليمات الحكومة تقضى بمنع ذوى العمائم من ارتياد هذه المحلات ، فخطر له أن يخلع عمامته البيضاء ويدخل والطربوش الأحمر على رأسه ففعل ذلك ودخل الملهى ناسيا أن يغير جبته ليخفى حقيقته . فلما ضبطه أحد رجال الأمن أسرع الزهاوى يتكلم بلغة فارسية معقدة أعقبها بعبارات ركيكة من التركية استطاع أن يوهم بها الشرطى أنه رجل أعجمى ، وأن هذه البزة الملائية هى لباسه الذى اعتاد عليه وأنه ليس (بملا) . وفى وسعه أن يصحبه الى السفارة الايرانية ليتأكد من صحة ذلك وانطلت الحيلة على الشرطى وأفلت الزهاوى من قبضته [1] .

على أن أيام الزهاوى فى الآستانة لم تطل بعد ذلك ، فهو قد عاد من اليمن أشد اقتناعا بظلم عبد الحميد — وما لبث أن قال قصيدته « حتام تغفل » التى رمى فيها السلطان عبد الحميد بالبغى والاستبداد ، وفيها يتوعده بالثورة قائلا :

لقد عبثت بالشعب أطمـــاع حائف
يحملهم من جـــوره ما يحمـــل
فياويح قوم فوضـــوا أمر نفسهم
الى ملك عن فعـــله ليس يسأل

(١) شخصيات عراقية ص ٧١ .

الى ذى اختيـــار فى الحكومة مطلق
اذا شاء لم يفعل وان شـــاء يفعل
وذى سلطة لا يرتضى رأى ناصـــح
اذا قال قولا فهولا يتبـــــــدل
أيأمر ظل الله فى أرضــــه بمـــا
نهى الله عنه والرســـول المبجل
فيفقر ذا مال ويغنى مبـــــــرأ
ويسجن مظلوما ويسبى ويقتـــل
تمهل قليلا لا تغظ أمــــــة اذا
تحــرك فيها الغيظ لا تتمهـــل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بهـــا
فان يد الأيام منهن أطـــول [1]

وكان لابد أن تصل القصيدة الى مسامع عبد الحميد ، وهو لم ينس بعد حركة عام ١٨٩٦ وكان الأحرار قد بدأوا يجمعون صفوفهم لمعاودة الكرة ، فاعتقل الزهاوى مع المجاهد عبد الحميد الزهراوى والشاعر التركى صفا بك [2] وغيرهما من المجاهدين وبقوا جميعا فى السجن أياما فربطت المبادىء والشدائد بينهم . ولم ينس شاعرنا هذه الروابط فرثى عبد الحميد حين أعـدمه جمال السفاح .. وذلك فى لاميته المشهورة التى بكى فيها شهداء

(١) الكلم المنظوم ص ٨ .
(٢) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٣٠ .

الكفاح العربي ، ورثى الشاعر صفا بك حين مات فى « سيواس » بعد أن نفاه اليها عبد الحميد .

ولم يبق الزهاوى فى سجنه طويلا ، فما لبث السلطان عبد الحميد أن أرسله الى بلده بغداد على ألا يبرحها ، وكأنما خشى أن يذهب الى مصر ، فيتسع المجال ليراعه ، ويكتب ضد الاستبداد ، ومصر كانت ملتقى الأحرار ، فكم احتضنت من المجاهدين ، وهيأت لهم السبل لمواصلة هذا الكفاح .

وكان عبد الحميدقد اعتاد أن يسكت أفواه المعارضين بالوعد والوعيد ، فهو لن يترك اذن شاعرنا يموت جوعا ويتضور من الحرمان ، فعين له راتبا قدره خمسة عشر جنيها كل شهر [1] .

« فما الذى فعله حين عودته الى وطنه ؟ هل استمر فى محاربة جور السلطان وعبثه وأطماعه أم سكت سكوت الشيطان ؟ .. ولدى الرجوع الى ديوانه الذى طبعه فى بيروت عام ١٩٠٩ ومراجعة القصائد والمقاطع الشعرية التى نظمها خلال هذه الفترة ظهر أنها لا تتجاوز العشرين قصيدة أو مقطعا ، لم يتطرق فيها الى التنديد بظلم الدولة العثمانية ولا بسياستها الخرقاء بل راح يخاطب العدل ويهاجم الظلم عامة ويستنهض الهمم ويذم الجهل ويكشف عن برمه بالحياة وضجره من بغداد ، وما الى ذلك من الموضوعات التى لم تمس السلطة ولو مسا لطيفا » [2] .

مثل هذه الأقوال كانت وما زالت تطلق من حين الى حين

---

(١) الكتاب (العدد الأول) ص ١٠٦ .
(٢) الزهاوى بين الثورة والسكوت ص ٣٥ .

تحاول التشكيك فى موقف شاعرنا واتجاهاته ، والواقع أن قصيدته « أنين المفارق » التى قالها عقب عودته الى بغداد أشهر من أن تنسى وكلها هجوم ضد عبد الحميد واستبداده وجواسيسه وتحريضه على الثورة ضد فساد حكمه وفيها يقول :

ولما رأيت الغدر فى القوم شيمة
وأن مجال الظلم فيهم موسع
وأن الكلام الحق ينبذ جانبا
وأن أراجيف الوشاية تسمع
خشيت على نفسى فأزمعت رجعة
الى بلدى من قبل أن أصرع
... وساروا بنا للسجن راجين أننا
نذل به للغادرين ونخضع
بلاد بها قد ضاع من كان فاضلا
وللملك من أهل الفضيلة أضيع
الى أى وقت نعبد الظلم خشية
فنسجد للقوم البغاة ونركع
رمى الله شعبا أهملته رعاته
وملكا كبيرا ركنه متزعزع (١)

* * *

(١) الكلم المنظوم ص ١٠ .

لم يسكت الزهاوى اذن عقب وصوله الى بغداد ، كما لم يسكت بعد ذلك أيضا فله قصيدة أخرى لا تقل عنفا مؤرخة ٣ شباط سنة ١٣٢٢ هـ أى عام ١٩٠٤[1] م وفيها يقول : —

لهوت عنا بما أوتيت من دعة
فابيض ليلك واسودت ليالينا

يارقق الله منك القلب من ملك
يجمع المال لكن من مساعينا

فكم شباب من الأحرار قد هلكوا
وللارادات قد صاروا قرابينا

ما ان تهضم سلطان رعيته
فالملك قبلك قد ربى سلاطينا

ان الرعية أغنام يحد لهم
عمالك المستبدون السكاكينا (٢)

ولكن الغريب حقا ، أن يقبل عام ١٩٠٦ فاذا الزهاوى يطالعنا بكتابه الجديد « الفجر الصادق » . والواقع أن الدارس للعصر يجد فرقا ظاهرا بين الايمان بالجامعة الاسلامية والكفر بعبد الحميد، فالزهاوى حين يهجو عبد الحميد ويذيع القصيدة تلو القصيدة مشددا الهجوم عليه يمثل جانبا من جوانب الموقف ولكن اذا كان الأمر يتعلق بالجامعة الاسلامية والوحدة التى ينبغى أن تبقى قوية راسخة فان الأمر يختلف كل الاختلاف ، فحول هذا العام

(١) تقويم يوسف أسعد داغر .
(٢) الكلام المنظوم ص ٧٠ .

كانت قوات الوهابيين قد دحرت قوات ابن الرشيد أمير نجد وشتتت شمل قوات الدولة العثمانية التى هبت لنصرته وقتل ابن الرشيد نفسه فى المعركة (١) وأصبح انتشار الوهابيين يشكل خطرا أمام الوحدة العثمانية والجامعة الاسلامية وخطر انقسام المسلمين أقسى من خطر استبداد عبد الحميد . ومن هنا كانت فصول الكتاب تدور حول هذا الموضوع ، تدور حول خطر افتراق الأمة ، وحول الدفاع عن خلافة الأتراك ضد من يشترطون النسب القرشي فى الخليفة . واذا كان عبد الحميد قد ظلم فان الوهابيين قد جعلوا بلاد المسلمين ميدان حرب ترتفع نيرانها كل حين (٢) .

لم يكن الأمر اذن أمر تناقض كما ظن بعض الدارسين (٣) ولعل مما يؤكد هذا أن شاعرنا حسب السلطان عبد الحميد تلقى درسا نافعا ، وأنه لا يلبث أن يرفع مظالمه عن بقية البلاد الاسلامية

---

(١) راجع تاريخ نجد لأمين الريحانى (بيروت ـ ١٩٢٧) ص ١٤٨/٩٦٧ .

(٢) راجع الفجر الصادق .

(٣) عوض يوسف عز الدين لهذه النقطة فى دراسته عن الزهاوى الشاعر القلق وفسر كتاب الفجر الصادق هذا التفسير الواعى فكرة الجامعة الاسلامية ولكنه لم يفسر التناقض الذى عرضنا له والذى يبدو للوهلة الأولى حين يمدح الزهاوى عبد الحميد ثم يهاجمه .
وعرض هلال ناجى للموضوع نفسه فرأى التناقض وأثبته ولم يفسره ، ولعله قد ارتاب حين وجد الزهاوى بعد حين يمدح عبد العزيز آل سعود كما ذكر ذلك . وحقيقة الأمر أن ديوان الأوشال الذى صدرت به قصيدة « تسرها الأحلام وهى التى مدح بها عبد العزيز آل سعود صدر عام ١٩٣٤ وفى ذلك الوقت كانت =

ولا يلبث أن يستجيب لدواعى الاصلاح » ولكن خاب أمله ، فالجزيرة كلها خرجت من قبضته وما زال باقيا كما عهده سادرا فى غيه . والكتاب حقيقة نشر فى مصر عام ١٩٠٦ ولكن الزهاوى كان قد انتهى منه أواخر عام ٩٠٥ كما صرح فى نهايته ، وفى نهاية عام ١٩٠٦ يطالعنا الزهاوى بقصيدة جديدة يعبر فيها عن رأيه الأخير فى عبد الحميد مشيرا الى موقف أهل الجزيرة :

نحن فى دولة تداركهـــا الله   تبيـــح المحظـــور للحـــكام
وعدها بالاصـــلاح جم ولكن   لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص   واحد أن نعيش كالأنعـــام
ربَّ قوم من العدالة محرومين   فازوا بها بحد الحســـام [1]

على أن الأمر لم يطل بعد هذا العام ، فما لبثت الأحداث أن تبدلت فى تركيا بعد ثورة الجيش وآن للسجين أن يخرج من سجنه الكبير وأن يرحل عن بغداد قاصدا الأستانة نفسها ، آملا أن يبدأ حياة جديدة .

= الخلافة قد ألغيت وتوارت الفكرة الاســـلامية » وكانت بطولة مصطفى الغازى موضع حديث الناس بالرغم مما حولها من شوائب كما كانت بطولة عبد العزيز بن سعود وتمكنه من توحيد الجزيرة تحت امرته وقد أكسبته شهرة كبيرة . والزهاوى فى قصيـــدته يصرح بأنه يتحدث عن الابطال الذين أعجب ببعض أعمالهم الكبيرة .

(١) الكلام المنظوم ص ١٥٧ .

الأستاذ

انطلقت قوات نيازى وأنور مع وحدات الجيش التى يتولون قيادتها الى الجبال معلنين الثورة ، وأيدتهم بقية القطاعات ، حينما أرسلوا البرقيات الى السلطان عبد الحميد مطالبين باعادة الدستور ، فلم يسع عبد الحميد الا الرضوخ أمام هذا الموقف واعلان عودة الدستور والحياة النيابية . ولم تكد الثورة تحقق هذا النجاح حتى التقى الأحرار واندفعت جموع الشعب فى الشوارع تحركها موجة من الاستبشار يهتفون للعدالة والحرية والمساواة [1] .

وكان الزهاوى من أشد الناس طربا ؛ فقد انزاح كابوس ثقيل عن صدره ، وأحس أن أبواب السجن قد انفتحت على مصراعيها ، وأن نسيم الحرية بدأ يهب فيزيح ركود الجو الخانق الذى عاش الناس فيه زمنا . الحرية العدالة المساواة ، ما أروعها من أحلام لو حققها الزمن ، انها أمل البشرية ومعاولها لهدم صروح الاستبداد والظلم والتفرقة وهكذا خرج الزهاوى عن عزلته مستبشرا ؛ وصار يخطب فى الناس مؤيدا الدستور الجديد متحمسا له :

(١) العرب والترك لتوفيق برو (القاهرة ـ ١٩٦٠) ص ٧٥/٦١ .

خود العدالة يا قلبى السعيد وفت
بوعدها وهى كل السؤل والحاج
أشر علىّ وقل من أين ألثمها
أمن ترائبها ، أم طرفها الساجى
لولا اعتصامى بحبل من حمايتها
لطال فى الذل تأويبى وادلاجى
وقفت والعين تبكى من مسرتها
أمام قوم من الأفراح عجاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب
أمام جيش من الأصوات رجراج
قد أعلنت للورى حرية فمضى
زمان سخرة ذى أمر وقرباج [1]

على أنه فى الوقت الذى كان فيه الزهاوى وأنصار الدستور يخطبون مؤيدين ، كان أعداء الاتحاديين يثيرون الناس ضده .. فعندما حضر مندوب جمعية الاتحاد والترقى الى بغداد لحث الناس على تأييد الدستور والانضمام الى الجمعية « اجتمع بجماعة من أشراف المدينة وأدبائها ثم حضر معهم فى جامع الوزير وحضر أيضا العلامة المرحوم شكرى أفندى الألوسى والشاعر الكبير جميل أفندى الزهاوى وبلبل العراق معروف الرصافى وعبد اللطيف حلبى وفريق من الاتحاديين والكتاب والأدباء وبعد أن فرغوا من

---

(١) الكلم المنظوم ص ١٨٤ .

صلاة العصر مع الجماعة صعد الرصافى على كرسى أعد له فى وسط صحن الجامع خارج المصلى وتلى الرسالة التى جاء بها مندوب الاتحاديين التى تتضمن الحث على الاتحـاد والسعى فيما يرقى الأمة والبلاد ، ثم نزل وخرج الجميع . ولما تفرق الناس أشاع أعداء الاتحاديين أن القوم قد أهانوا الدين الاسلامى ، وأن الرصـافى أسكت قارىء القرآن وأهانه من أجل تلاوة كتاب الاتحاديين الى غير ذلك من المفتريات والطعن فيمن حضر لاستماع كتاب الاتحاديين ، فثارت عامة بغداد فى اليوم التالى ، وضربوا الطبول فتبعهم غوغاء الناس والصبيان ، وطافوا فى الشـوارع والأسواق .. وأخيرا خرج اليهم الوالى ناظم باشا الأول ووعدهم بكل ما يريدون (١) .

غير أن جهود الزهاوى لم تذهب سدى ، فقد صـدر الأمر بتعيينه أسـتاذا للفلسفة الاسلامية فى المكتب الملكى ومدرسا للآداب العربية فى دار الفنون بالاستانة .

لابد أن يثير ذلك ذكريات الشاعر السابقة ، يوم رحل الى الاستانة مستبشرا فعاد كئيبا خائبا ، ولكن الأمر يختلف اليوم كل الاختـلاف . وهكذا رحل الزهاوى الى تركيا عام ١٩٠٧ يحدوه الأمل القوى فى هذه المرة . وهو ان لم يكن ضيفا الا أنه عرف تركيا فى زيارته الأولى ، فلن يشعر بحيرة الغـريب ، كانت مختاراته التى جمعها من قبل أساسا للمادة التى يلقيها على طلابه

---

(١) مختصر تاريخ بغداد على ظريف الأعظمى (بغداد ـ ١٩٢٦ (ص ٢٤٩/٢٥٠) .

فى الآداب العربية ، يقرأ النص ثم يعلق عليه تعليقا يهتم فيه بقواعد النحو ، لأنها وسيلة فهم المعنى . هكذا كانت طريقة تدريس الأدب فى ذلك الوقت ، لأن مناهج البحث لم تكن قد تطورت ، وحركة النقد ومدارسه لم تكن قد اتسعت .

أما دروسه فى الفلسفة الاسلامية فتعتمد على مناقشة آراء السلف وآراء الغربيين . ولم تكن هـذه الدراسة جديدة عليه فهو قد هضم مادته من قبل وشغف بها حبا ، ولذلك كان يجتهد فى تفسير النصوص ويدلى بآرائه التى كونها بعد دراسة طويلة وقد جمعها فى كتابه الذى نشر باللغـة التركية تحت عنـوان « حكمة اسلامية درسلرى » [1] — ولم يعجب المحافظون اجتهاد الزهاوى فرموه بتضليل الطلبة . ويبدو أن الحملة اشتدت حتى اضطر أن يدافع عن نفسه أمام وزير التربية بأنه لا يجبر الطلاب على التزام رأيه ، بل يعرض القضية ثم يترك لهم حرية تكوين رأى مستقل [2] .

وكأنما بدأ التاريخ يعيد نفسه مع الزهاوى ، فقد بدأت غيوم كثيفة تتجمع فى أفق السياسة ويشهدها شاعرنا عن كثب . فقد أصر الضباط على طرد المقربين للسلطان ، ثم اتهموا رئيس الوزراء بأنه انتهك الدستور ، فاضطر الى الاستقالة . وبدأت حركة تطهير كاسحة فى الادارة لكافة العناصر التى عرفت بولائها لعبد الحميد وسيطرت جمعية « الاتحاد والترقى » تماما عـلى الموقف فى

---

(١) دروس فى الفلسفة الاسلامية .
(٢) رسائل الزهاوى لأحمد عيش .

البرلمان ، غير أنها سرعان ما وجدت حزبا معارضا لها هو حزب « الاتحاد الحر » الذى كان ينادى باللامركزية بينما كانت جمعية « الاتحاد والترقى » تدعو للمركزية . وبدأ الاحتكاك بين الحزبين حين قتل محرر جريدة « الاتحاد الحر » ثم تلا ذلك قيام الاضطرابات فى العاصمة فى أوائل ابريل عام ١٩٠٩ على يد حركة موحدة من أنصار عبد الحميد « والاتحاد الحر » وكان عبد الحميد نفسه وراء هذه الاضطرابات . واحتل فريق من الجنود بقيادة أحد الألبانيين البرلمان ، وقتل ضابطين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، فاضطر رئيس الوزراء الجديد الى الاستقالة ، ثم قتل وزير العدل وجرح وزير البحرية ، وأصدر عبد الحميد فرمانا بالعفو عن الثوار . وفى نفس الوقت بدأت مذابح الأرمن فى بعض المدن .

ولولا هذه المذابح لكان فى امكان عبد الحميد أن ينجز الانقلاب الرجعى . فلما بلغت أنباء هذا الانقلاب سالونيك ، زحف محمود شوكت بقواته الى العاصمة لحماية الدستور بالقوة . واجتمع مجلس المبعوثان فى شكل جمعية وطنية وأعلن موافقته على خلع السلطان عبد الحميد ، على أساس فتوى من شيخ الاسلام وتولية السلطان محمد الخامس الذى ظل ألعوبة فى يد الجمعية[1] .

ولم تكن تهدف حركة الاتحاد والترقى حقيقة الى المساواة بل

(١) الدولة العثمانية والشرق العربى محمد أنيس (القاهرة) ص ٢٥٥ وما بعدها .

الى تتريك كافة القوميات ، ولم يكن هذا ممكنا فى عصر تحرك القوميات ، كما أنه كان يعنى أن تتخلى هذه القوميات عما اكتسبته من حقوق — حقيقة أن العرض الذى منحه النظام الجديد بدلا من حقوق الملل كان مغريا ، وهو حقوق المواطن المتساوية مع الأتراك ، ولكن هذا العرض كان نظريا فقط ، فمن الناحية العملية بدأ القلق من الجانبين ظاهرا للعيان لأن كل القوميات لم تمثل فى المجلس الا بعد قليل . ولم تتورع الحكومة الجديدة عن القيام بأعمال تفوح منها رائحة استغلال السلطة لمصلحة العرق التركى ، غير أن الذى أقلق العرب على مصيرهم هو محاولة الأتراك القضاء على اللغة العربية ، فلم يتسامحوا فقط فى فتح المدارس الأهلية التى تلقى فيها الدروس باللغة العربية [1] ثم ما لبثت الحركة أن امتدت للتاريخ وظهرت الكتب التى تصور الأتراك ينتمون الى العنصر الطورانى ويرتبطون بتاريخ التتار والمغول أكثر من ارتباطهم بالتاريخ العربى ، وتبنت الحكومة هذه الحركة ، فغالى الناس فيها وذهبوا فى الغلو كل مذهب ، حتى طلبوا أن تنزع أسماء الصحابة والتابعين من العرب عن قباب المساجد ، وتوضع بدلا منها أسماء عظماء الترك والتتار والمغول . ثم طالبوا بصبغ الجيش ، وبصبغ القوانين وبصبغ الدراسات بالصبغة التركية . والطريق أن بداية هذا الاتجاه جاء من كتابات الروائى الفرنسى (Leon Cahun) الذى اتخذ غزوات المغول

---

(١) العرب والترك ص ٩٨ .

موضوعا لمؤلفاته القصصية — حضورهم فى صورة الأبطال — فلما ترجمت الى التركية ظهر أثرها فى نفوس الأتراك الذين كانوا يشعرون بتفاهة تراثهم الحضارى [1] .

لم تدم نشوة الناس طويلا ، فشدة الانفعال دائما يعقبها نوع من التراخي والقوانين نفسها غير كافية فلا بد من تشرب لروح الدساتير ، وهكذا بدأ الناس يرون أن الدستور لم يكن الدجاجة التى تبيض الذهب وعادوا ينقدون ويفندون .. وقد عاصر الزهاوى كل هذه الأحداث ، بل هو قد كتب سلسلة مقالات عن هذا الوضع تحت عنوان « تفاصيل فتنة الاستانة بعد الدستور » ونشرها فى المقطم خلال هذه الفترة .

وبدأ يضيق بالاستانة ، خاصة بعد أن تقلب عليه مرضه القديم المزمن ، وأحس بالحنين يدفعه الى العودة ، وأن نهاية الرحلة لم تكن خيرا من سابقتها ، فشد رحاله الى بغداد ولم يمض على بقائه بتركيا أكثر من عام واحد [2] .

لم يتغير الحال كثيرا ، فقد انتقل من تدريس الفلسفة والآداب الى تدريس « المجلة »[3] بمدرسة الحقوق فى بغداد عام ١٩٠٨ ولم يكن له من قبل صلة بالقانون فبدأ يقرأ فى القانون المدنى الذى كلف بتدريسه [4] حقيقة أن القانون يحدد العلاقات

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٥٨ .
(٢) رسائل الزهاوى لأحمد عيش .
(٣) القانون المدنى .
(٤) راجع شرح المجلة لمنير القاضى (بغداد ــ ١٩٤٢) .

بين الناس ، ولكنه عدو للشاعر الطليق الذى يود أن ينفض عن كاهله كل القوانين . ماله ولنظرية الالتزام . ولنظرية الضمان وللأحكام كلها . ماله وللمكارى ينقل بضاعة فتصل أو لا تصل الى صاحبها ان المكارى المسكين يسير فى حمارة القيظ مرهقا ، وهو لا يدرى أن الزهاوى وطلبته يتجادلون فى أمره [1]
هكذا كان يعرض للقوانين والعقوبات بأسلوبه الساخر فى درسه ، والطلبة يستمتعون بتعليقاته الفكهة أكثر مما يستمتعون بعقليته القانونية .

على أنه لم يكد يعرف شيئا من الراحة ، حتى حرم منها ، ولم يكد طلبته يستمتعون بطرائفه حتى حرموا منه ، فلم يلبث أن دخل معركة عنيفة ، خرج منها مثخنا بالجراح مبعدا عن التدريس للقانون .

---

(١) من حديث بينى وبين تلميذه فى مدرسة الحقوق الأستاذ محمود صبحى الدفترى .

فى المعركة

كان الزهاوى أثناء تدريسه بمدرسة الحقوق يراسل مجلة المقتطف وجريدتى المقطم والمؤيد . حتى اذا كان اليوم السابع من أغسطس عام ١٩١٠ طلعت جريدة المؤيد وبها مقالة للزهاوى تحت عنوان « المرأة والدفاع عنها — صوت اصلاحى من العراق » يتحدث فيها حديثا عاطفيا عن أثر المرأة فى حياته منذ كان طفلا ترعاه وترضعه ، وشابا يهيم فى غرامها فاذا بالدنيا مشرقة أمام ناظريه ، وشيخا يحتاج الى عونها فى ضعفه .

ثم ينتقل فيتناول قضية المرأة تناولا منطقيا فيرى أن سيادة الرجل ليس لها ما يبررها فان كانت القوة البدنية فان هناك من الحيوان من هو أشد منه نابا وأوجع رفسا ، وان كانت القوة العقلية ، فان الرجال أنفسهم يختلفون فى المستوى العقلى ولم يهضم أحد منهم حق الآخر .

ثم يعدد الجوانب التى هضم فيها الرجل حق المرأة ، فيتحدث عن الطلاق الذى يقذف به الرجل فى وجه المرأة فاذا هى شريدة مع أطفالها منه ، بينما ينتقل هو الى زوجة أخرى « فهى مهضومة لأن عقدة الطلاق بيد الرجل يحلها وحده ، ولا أدرى لماذا يجب رضاء المرأة فى الاقتران ولا يجب رضاها فى الفراق الذى يعود

تبعته عليها وحدها؟» فهى فى بيتها ضائعة الحقوق وهى فى المجتمع كذلك لأن الرجل يتزوج أربع نساء وهى لا تتزوج الا واحدا . وهى مهضومة لأنها تعد نصف انسان وشهادتها نصف شهادة ، وهى فى الحياة مقبورة فى حجاب كثيف ، محرومة من ميراث مساو لميراث أخيها ، بل لعلها فى الأخرى محرومة كذلك لأن الرجل يعطى الحور العين وهى لا تعطى الا زوجها .

لقد انزلق الزهاوى الى الهوة وأسرف على نفسه وعلى قرائه ففى بداية المعركة كان يتتبع خطى قاسم أمين فى موضوع الطلاق ، الا أن قاسما كان أكثر فهما وأشد عمقا فى تحليله للموضوع ، ولكن الزهاوى مس الدين حين انتقل من الحديث عن التقاليد الى الحديث عن التشريع ، فلنتتبع بقية المقال لأن الرواية لم تتم فصولا .

« وأما ما يترتب على الحجاب من المضار فكثير : أولها أن المرأة المحجوبة تفقد الثقة بالرجل فلا يكبر عليها أن تخونه والثانى أن المحجوبة اذا مشت الى محل الريبة فلا تخشى أن يعرفها أحد فى الطريق .. الحجاب سبب لاعتزال النساء وشيوع ما تحمر الانسانية منه خجلا فى منادمة الغلمان ، الأمر الذى يكسر من عزة النفس ويضاد الطبيعة ويجلب الأمراض ويقلل النسل .. الحجاب مضيعة للحقوق ، فان كثيرا من الطامعين سجلوا أنهم اشتروا عقارا من امرأة وشهد بذلك الشهود ، ثم تبين أخيرا أن البائعة ليست هى المالكة للعقار ، ولكن الشهود جهلوا هويتها بسبب الحجاب » .

واذا كان الزهاوى قد أدخل الدين سببا فقد أخرجه من قبل قاسم أمين حين قرأ عن شهيدات النساء المسلمات ، بل حين رجع الى أصول الاسلام الأولى ورأى مكانة المرأة السامية كما رسمها الدين . وحين عرض قاسم لحقوق المرأة ، لم يقل ما قاله الزهاوى ، وانما قارن بينها وبين الرجل « له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » ولكن الزهاوى تأثر بقاسم حين عرض لمسألة الحجاب ، فرآه من أسباب الفتنة اذ هو يخفى شخصيتها ولو كان وجهها مكشوفا فان كرامتها أو نسبتها الى عائلتها يشعرانها الحياء والخجل فى كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات الأنظار . والحجاب مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وتقدمها وبديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها لأن عفتها اختيارية ، أما تلك فعفتها قهرية ، ثم أليس من الغريب أنه لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ ولم يكتف قاسم بأسلوبه المنطقى الذى يخاطب العقل والوجدان فى وقت واحد ، بل راح يعتمد على الاحصائيات حين عرض لموضوع الطلاق ورسم الخط البيانى المرتفع الذى سجلته الاحصائيات ليثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الأسرة منهارة فاشلة فى ظل الحجاب وعدم الثقة . ولم يقف قاسم موقف الزهاوى المتعجب

من وجود العصمة بيد الرجل ، لأنه يعلم أن الدين قد منح المرأة الحق أن تكون العصمة بيدها ان شاءت ولكن رأى أن مضمون القرآن يحتمل أن يكون الطلاق أمام القاضي الذى يحاول التوفيق واصلاح ما بين الزوجين قبل أن يمزق وثيقة الرباط المقدس [1] .

هكذا تأثر الزهاوى بقراءته لتحرير المرأة ، ولكنه تجاوز آراء قاسم كما رأينا فى كثير من النقاط ، واشتط فى مطالبه ، وخانه التوفيق فى العرض ولا شك أنه كان ينظر فى بعض زوايا المقال الى موقفه من أسرته والى موقف أسرته منه ، كان ينظر الى والدته كما قلنا وقد حرمنا من الحياة الأسرية ، وكان ينظر الى أخوته من أبيه فلا يحس بعاطفة الأخوة وكان ينظر الى شريكة حياته التى حاولت أسرته أن تزوجه من غيرها حتى يظفر بنعمة الأولاد فأبى ، فهو من هذه الناحية لم يناقض فيما كتب وفيما طبق فى الحياة واذا كان البعض يأخذ عليه أنه دعا للسفور ولم يسمح لزوجته بأن تخلع الحجاب ، فقد فعل ذلك قاسم أمين من قبل ، لأنه رأى أن للطفرة أسوأ العواقب ، وأن الدعوات الاصلاحية تأخذ طريقها تدريجيا الى قلب المجتمع .

ومثلما تعرض قاسم من قبل لضروب من المضايقات ، تعرض الزهاوى ، ولكن شتان بين الموقفين . لم تكد تصدر المقالة فى مصر ، حتى تناقلتها الأفواه فى العراق ، والعراق قطر متمسك أشد التمسك بالتقاليد الموروثة ، وما تزال المرأة فى العراق الى

---

(١) قاسم أمين (مجموعة أعلام العرب) ص ١٤٣/١٥٤ .

الآن تلبس العباءة فى أكثر الأحيان ، بل ان الغالبية العظمى من طالبات الجامعة لا يخلعن العباءة الا داخل الحـرم الجامعى »
فما بالنا بوضع المرأة فى ذلك الوقت ؟ لم يثر رجال الدين وحدهم ، وانما ثار العامة أيضا ، ومن الروايات المتواترة فى بغداد أن ثلاثة من الشباب طرقوا منزل الزهاوى بعد مقالته هذه ، فلما سألهم عن حاجتهم أجابوه أنهم يريدون أن يتزوجوا حليلته حتى يحققوا بعض رغباته فى المقالة حين أنكر على الرجل أن يتزوج بأربع نساء ويظلم المرأة حين يحبسها على رجل واحد . وتملك الرعب قلب الزهاوى ولم يستطع أن يخلص منهم الا بعد جهد شديد .

وخشى الزهاوى عاقبة هذه الثورة فكتب الى ناظم باشـا والى بغداد يومئذ يقول : « أسـمع أن أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى فى بغداد — هذا البلد الذى يسيطر عليه حكم الدستور وعدلك الواقى — أخذ يدير رحى فتنة ، فقام يحرض الجاهلين على الايقاع بى باسم الدين البرىء من الظلم جزاء مقالة اجتماعية نشرت بامضائى فى المؤيد الأسبوعى كما فى « تنوير الأفكار » — دفاعا عن المرأة . وهى عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها ، لم يتعين بعد أكاتبها أنا ، أم هى مزورة على لسانى من عدو لى فى العراق . والذى أرجو من الحكومة الدستورية أن لا تقتص من الصابغين أكفهم بدمى اذا كان ما يريده المحرضون — أظنهم أكثر من واحد — بل تعنى بتعليمهم وانقاذهم من الجهل

لئلا تمتد أيديهم فى المستقبل الى منكد آخر على مثلى ، يتمنى فى كتاباته اصلاحا للأمة اجتماعيا » [1] .

تنصل اذن الزهاوى من مقالته بعد أن خشى عاقبتها ، وتملكه الرعب فقبع فى بيته ينتظر مرور الأزمة بينما زاد هـذا الموقف نفسه قاسما من قبل اصرارا على رأيه وجمع حجج المعارضين ثم فندها فى كتابه « المرأة الجديدة » .

ولكن الأزمة لم تمر ، وبدأت الغيوم تتلبد فى سماء حياة الزهاوى منذرة بالخطر ، فقد ثار مع الثائرين العلامة مصطفى نور الدين الواعظ وقابل الوالى ، وبين له أثر المقالة الخطير فى المجتمع وخروج صاحبها على أحكام الشرع ، ولم يجد الزهاوى ذلك التنصل المشبوه ، وكانت النتيجة أن عزله الوالى من وظيفته بمدرسة الحقوق [2] .

ولم تهدأ المعركة عند هذا الحد ، بل ارتفع غبارها فى العراق حتى وصل الى مصر ، فشارك بعض أدبائها فى المعركة ، وشرعوا سيوفهم يتنازعون الموقف بين مؤيد ومعارض ، نثرا وشعرا .

أما فى العراق فقد سكتت الأصوات الا صوت رجال الدين مثلهم محمد سعيد النقشبندى مؤلف كتاب « السيف البارق فى عنق المارق » والواقع أن الكتاب لا يمثل عقلية ناضجة ولا هو صيغ صياغة منطقية ، وانما يمثل حماسة رجل من رجال الدين

---

(١) الرقيب ٧ شوال ١٣٢٨ هـ .
(٢) الزهاوى بين الثورة والسكوت ص ٤٤ .

فى ذلك الوقت . وأهم ما وقف عنده مسألة السفور والحجاب ، فرمى الزهاوى بالالحاد وأخذ يدافع دفاعا ساذجا عن الحجاب قائلا : « بعض الملحدين قال فى الحجاب مضرة .. وانما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، قوله ان المرأة المحجبة تفقد الثقة بالرجل فلا يكبر عليها أن تخونه ، أقول هذا مصادم للعقل والروية وذلك أن المرأة المحجبة المصونة ليس لها أخدان وليس لها خلان حتى تتحرك ، بخلاف الشرع — وأما المرأة المكشوفة ، فكم خل صاحبته ، وكم خدن لاطفته ، فالبلاء بكشف الحجاب نازل والثقة بالستر حاصل [1] وهو كتيب صغير مسموع ، ضعيف الحجة .

وفى مصر تردد صدى المعركة القومية فى كتاب « المرأة فى الاسلام » لمحمد حمدى النشار الشاعر . وقد أسمى مقالة الزهاوى « العراقية » بعد أن حاول شاعرنا التنصل منها ، وسمى صاحبها « الأستاذ العراقى » .. ويتتبع النشار مقالة الزهاوى فقرة فقرة ، فيرد عليها ردا قويا مفحما ، مبنيا على أصول الشرع وأصول المنطق فى المناظرة . ويبدأ بقضية الطلاق فيعرض قول الزهاوى « أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة » فيرى أن صريح لفظه طعن فى جواز الطلاق ، وهو أمر لم يجزه المسلمون قسوة منهم ، بل رخصة أجازها الله الحكيم فى كتابه ، فان كان يعلم ذلك فقد ظلم نفسه وقراءه بهذا التعبير وان كان لا يعلم فينبغى أن نعلمه .

---

(١) السيف البارق ص ١٤ .

ثم يفصل حكمة الشرع فى هذا الموضوع ، ويذكر أن أبغض الحلال الى الله الطلاق .

والظلم الثانى « أن المرأة لا ترث من أبيها الا نصف ما يرث أخوها » والله تعالى يقول (للذكر مثل حظ الأنثيين) ثم يرد قائلا : نسى الشيخ أو تناسى أن المرأة فى كل أدوار حياتها مكفولة بالرجل الذى هو ملزم بالقيام بشئونها والانفاق عليها فهى قبل الزواج فى رعاية أبيها أو وليها ، وبعده فى رعاية زوجها ، وبعد وفاته فى رعاية أبنائها أو من يقوم مقامهم فى كفالتها ولذلك يقول الله تعالى فى كتابه (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم) » .

والظلم الثالث يتعلق بشهادة المرأة ، على أن الأمر ليس فيه ظلم على الاطلاق فالمسألة تتعلق بالذاكرة والنسيان ، ومن المسلم به أن المريض معرض للنسيان أكثر من الصحيح ، والمرأة لما يعتريها من مرض شهرى ومن ظروف الحمل والنفاس تكون مريضة معرضة للنسيان ، بينما لا يتعرض الرجل لمثل هذه الظروف ، فالأمر لا يتعلق بالتفضيل وليس أمر تفريق على الاطلاق دون مبررات مقنعة .

والمظلمة الرابعة هى تعدد الزوجات . ويؤخذ من الاعتراض أنه كان الأولى ألا يباح تعدد الزوجات للرجل كما لم يبح تعدد الأزواج للمرأة ، وحيث أبيح الأول كان الأولى أن يباح الثانى . فان كان يريد بقاء تخويل الرجل هذا الحق مع تخويل المرأة مثله

كان مدمرا من حيث حسب نفسه مصلحا ، أفلم يخطر على بال الفيلسوف اختلاط الأنساب ؟

أما المظلمة الهـامة الأخيرة فهى قضية الحجاب . ويعرض المؤلف لوظيفة المرأة الاجتماعية ووظيفة الرجل ، ويرى أن مهمتها الأولى العمل داخل البيت من أجل اسعاد الأسرة وتربية الأبناء وعمل الرجل فى الخارج من أجل اتمام هذه السعادة المنشـودة وتكملة عمل المرأة فى محافظته على دخل كاف لرعاية أسرته .

ثم يتساءل عن الفائدة التى يمكن أن يجنيها المجتمـع من من اختلاط المرأة بالرجل ، أو الفائدة التى تجنيها المرأة نفسها ، ويخلص الى مفاسد الاختلاط التى تنقلها الينا الدراسات عن الحياة الغربية ، أما اذا كان الهدف هو التثقيف فالحجاب لا يحول بين المرأة وبين التعليم . وأما ما عرض له صاحب المقالة العراقية من الحيف الذى يقع على المرأة المحجبة فى المحاكم ، فمن حق القاضى أن يطلب الى المرأة شرعا رفع الحجاب للتأكد ، وحـل القضية لا يكون برفع الحجاب عامة . ويعجب المؤلف من رأى صاحب المقالة الذى عرض فيه لانتشار منادمة الغلمان بعـد حجاب المرأة ، وكأنما أحس المؤلف أن صاحب المقالة قد بدأ يترنح من ضرباته ، فوقف يسخر منه ضاحكا من هذا الرأى الذى يريد به صاحبه أن ينادم الرجال النساء فتفسد النساء ولا يفسد الغلمان وترفع المرأة الحجاب من أجل ذلك [1] .

---

(١) راجع المرأة فى الاسـلام ص ٢٤ و ٣٣ و ٣٥ و ٣٨ و ٤٦ و ٤٩ و ٨٧ و ١٠٨ .

أما ولى الدين يكن فقد كان شاعرا متطرفا فى آرائه كما نعلم ، فأيد الزهاوى وكتب قصيدة ينصره فيها ، ولعل أهم ما أثاره هو ما أصابه من جراء هذه المقالة من الفصل وثورة الناس ضده ومن أجل ذلك لا نجد فى قصيدته ما ينم عن اقتناع الشاعر بآراء الزهاوى :

أسير بدار الظلم أعيـــــاه أسره
أما من فتى فى الناس حر ، يناصره
أفى النـــاس أحرار ، وفيهم أحبــة
فما لأخيهم لا يرى من يناصـــره
عفــاء على الزوراء بعـــــد جميلها
اذا ربعها المعمـــور أخلق دائره
فاما قضى فيكم جميــــل بحسرة
ستبقى عليكم شاهدات مآثـــره
وأن تحجبوا من فضــــله كل باهر
فليس ضياء الشمس يحجب باهــره
أخى وفجاج الأرض بينى وبينــــه
أعيذك من هم تبيت تســــاوره
وان فريق الظــلم ان طال ظلمــه
سنمشى اليه بالسيوف نبــادره [1]

ولكن اذا كانت هذه المعركة هزت الزهاوى وجعلته يحاول التنصل من المقالة أمام الناس ، فهل غير رأيه ؟ الواقع أنه ثبت

---

(١) المرأة الجديدة البيروتية ج ٤ السنة الرابعة .

على رأيه بعد ذلك ، والذى يقرأ ديوانه المطبوع عام ١٩٢٤ يجد عدة قصائد فى المرأة كلها تدور حول تمسكه بهذا الرأى يقول فى احدى هذه القصائد تحت عنوان « ضلوا وأضلوا » :

الناس فى الشرق ضـــلوا ســـــبيلهم وأضــلوا
ظن النســـاء رجـــال صنف أذاه يحـــــل
لأربع محصـــــنات منهن يكفل بعـــــل
على الشعوب بمـــرقى نســـائها يســـتدل ..
يا أم لا تحـــــزنى ان أتى يعقك نجـــــل [1]

ويذكر تلميذه أحمد حامد الصراف [2] أنه أرسل اليه خطابا عام ١٩٢٦ بعد صدور ديوانه بعامين ، ووقع الخطاب باســم « نعيمة عبد القادر عبد الله » ، وفيه يقول على لسان احــدى الفتيات ان الحيوان حتى الكلاب ، وحتى القــردة تطلع عليها الشمس وتنعم بالحرية ، فالام تظل الفتيات يا قاسم أمين العراق محجبات فى غياهب السجون ؟ فتأثر الزهاوى تأثرا بالغا وكان يقرأ الخطاب لكل من قابله قائلا : البنات يستنجدن بى ، وبعد أيام قلائل طلع على الناس بقصيدته الثائرة التى يطلب فيها الى النساء أن يمزقن الحجاب ما دام الرجال يأبون أن يقتنعوا بمضاره :

أسفرى فالحجاب يا ابنة فهــر هو داء فى الاجتمــاع وخيم
كل شىء الى التجــدد ماض فلماذا يقر هـــــذا القديم
انزعيه ومزقيه فقـــد أنكره العصر ناهضـــا والحلــوم

(١) ديوان الزهاوى ص ٣١١ .
(٢) من حديث بينى وبينه .

لم يقل بالحجاب في شكله هذا بنى ولا ارتضاه حكيم [١]

فالزهاوى كان يعتقد أنه داعية للاصلاح ، وهو ان أحنى رأسه أمام العاصفة لتمر ، فقد تمسك برأيه ولم ينحرف عنه . ولكن عبد الرزاق الهلالى حين عرض لهذا الموضوع رأى أن الشاعر قد صب جام غضبه على الوالى الذى عزله من وظيفته وسماه « طاغية بغداد » دون مبرر فقد استتب الأمن أيام هذا الوالى ثم اتهم الزهاوى بالتناقض حين قال « ومن يطالع ديوان شاعرنا الكبير يجده فى قصيدته (يا جهل) يثور على من قال له (انك حرمت الجاه بهذا العزل) :

وقائل قد حـــرمت الجـاه قلت له
ما الجاه فى دولة الأوغاد من أربى
لا تقربن كثيرا من حـــكومتهم
فان مكروبها أعـــدي من الجرب

لقد أوصى الزهاوى قومه ألا يقربوا كثيرا من حكومة الأوغاد لأن مكروبها أعدى من الجرب فهل التزم هو نفسه بهذه الوصية بما نصح به غيره ؟ كلا ، لأن فصله لم يدم طويلا » [٢] .

والمتعمق فى الأمر يجده على خلاف ذلك ، فما كان الزهاوى بمستطيع أن يهجو الوالى لو لم تكن صفحته نفسها بها الكثير من السيئات .. فيقول عباس الغزاوى وهو الذى نقـل عنه عبد الرزاق الهلالى — فى حديثه عن الوالى ناظم باشـا ، ان

(١) محاضرات عن جميل الزهاوى ص ٥٤ .
(٢) الزهاوى بين الثورة والسكوت ص ٤٤/٤٦ .

الزهاوى قد هاجمه من جراء قضية سارة — وهى فتاة أراد أن يغتصبها فلما أبت أراد أن يزوجها بأحد رجاله لتكون قريبة منه ، ولكن بغداد كلها ثارت وساعدت الفتاة على الهروب خارج العراق واتهمت الوالى بكل قبيح من الصفات — وكان لا يفهم العربية فلا يتمكن من الاطلاع على أحوال الأهلين ، ثم يختتم حديثه عنه قائلا : « هذا ولا ينكر أن بغداد نالها السوء .. من سفك دماء وهتك أعراض وغصب حقوق فأخذ منها الفساد مأخذه » [1] .

وقد أنصفه الزهاوى فذكر حسناته وسيئاته ولكنه من أجل قصة سارة سماه « طاغية بغداد » .

عامل الناس بالعدالة والظلم
فكانوا يلقون نورا ونارا
أفقر القوم بالعراق وأغنى
وسع الطرق ، ضيق الأفكارا
رام شينا لبنت بغداد يزرى
فعلى الشعب شعبها أن يغارا
فنجت بالفرار من مخلب الصقر كعصـ
فور بعد أن ريع طارا
أيها المصلح الكبير أهذا
ما يسميه بعضهم اعصارا ؟
قد مشاها خطى تعثر فيها
لا أقال الرحمن منه العثارا

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ص ١٩٥ وما بعدها .

وأما قصيدة « يا جهل » التى يرد فيها على القائلين له قد حرمت الجاه ، وينصح فيها بالابتعاد عن الحكومة حتى لا تصيبهم عدوى الجرب ، فهى منشورة فى الكلم المنظوم المطبوع عام ١٩٠٩ ومؤرخة عام ١٩٠٦ [1] .

فالديوان كله طبع قبل أن يكتب مقاله عن المرأة وقبل أن يفصل ، والقصيدة المذكورة قالها وهو سجين ، والحكومة التى يعنيها حكومة عبد الحميد زمن الاستبداد قبل اعلان الدستور . فالأمر اذن لا تناقض فيه .

ولم تدم المعركة طويلا ، فقد هدأ غبارها بعد عام واحد ، وبدأ الشاعر يضمد جراحه التى خرج بها من المعركة ، ويقول الشعر الذى ثبت فيه على رأيه والذى هجا فيه الوالى « طاغية بغداد » عام واحد عزل بعده الوالى نفسه ، وجاء وال جديد هو جمال باشا فأعاد الزهاوى الى مدرسة الحقوق [2] ونفض الشاعر عنه غبار المعركة .

---

(١) الكلم المنظوم ص ١٤٨ .
(٢) سحر الشعر ص ١٠ .

في مجلس المبعوثان

ما هى الا أشهر مضت من عام ١٩١٢ حتى أجرى الوالى « جمال بك » انتخاب المبعوثين ، فكان الزهاوى نائبا عن « المنتفك » فسافر الى الاستانة ممثلا للشعب فى مجلس المبعوثان العثمانى . والواقع أن الاتحاديين كانوا قد استخدموا فى تلك الانتخابات كل ألوان الضغط وتلاعبوا بأوراق الانتخابات المزورة .

وهكذا حصل الاتحاديون على أكثرية ساحقة من مقاعد المجلس بحيث لم يعد المعارضون قوة يحسبون حسابها . لكنهم لم ينعموا بهذا الفوز ، لأن الرأى العام العثمانى بدأ يظهر سخطه وتجاوب الجيش مع هذه النقمة ، ولما يمض غير شهور على انتهاء المعركة الانتخابية « فقد ثار كبير من ضباط الجيش فى مناستير » ضد الحكومة الاتحادية بقيادة اليوزباشى الألبانى طيار بك ، الذى كان قد اشترك مع نيازى بك وأنور بك فى ثورة عام ١٩٠٨ ، ولجأوا الى الجبال فى ١١ حزيران ، يونيو ١٩١٢ وطالبوا بتشكيل حكومة من غير الاتحاديين ، تستطيع أن توحى بالثقة الى العالم الخارجى وعدم مساهمة غير المسئولين فى شئون الدولة العامة وحل مجلس المبعوثان الجديد واجراء انتخابات جديدة مع ترك

حرية الانتخاب للشعب حتى يكون المجلس الجديد ممثلا تمثيلا صحيحا للأمة العثمانية »[1] .

وهكذا حل المجلس ، ولكن الاتحاديين أجروا الانتخابات الجديدة أواخر عام ١٩١٣ ولم تكن هناك أحزاب فى المملكة سوى حزب الاتحاد والترقى الذى لم يأذنوا بقيام غيره .. وكانت انتخابات العراق من أبرز الدلائل على عودة الاتحاديين الى أساليبهم السابقة فى الضغط واستعمال القسوة لتزييف عملية الانتخاب لصالحهم وقد جرى افتتاح المجلس الجديد فى الرابع عشر من مايو عام ٩١٤ . وشرع النواب العرب فى الأسابيع الأولى من قدومهم الى الاستانة فى التعارف والتفاهم ، ومرت روح عامة بينهم فى وجوب الدفاع عن حقوق العرب . غير أن الاتحاديين لجأوا الى طريقة مبتذلة فى اسكاتهم عن طريق اثارة الضجيج فى الجلسات . يقول سليمان فيضى مبعوث البصرة وزميل الزهاوى فى المجلس : « كانوا اذا عرض الرئيس قانونا ترغب الحكومة فى تصديقه أو طرح سؤالا للاكتفاء بالمذاكرة حول موضوع ما تخشى الحكومة معارضته ، صرخ أنصارها بملء حناجرهم (قبول ، قبول) لكى لا يبقى للمعارضين مجال لطلب الكلام حوله .. وكان منظر هؤلاء وفيهم بعض المعممين وذوى اللحى الطويلة وبعض الشيوخ والباشوات وهم يأتون من الأعمال ما يخجل عن اتيانه الصبيان ، أقول كان منظرهم أحيانا يثير الضحك والاشفاق »[2] .

---

(١) العرب والترك ٣٨٣ .
(٢) فى غمرة النضال ص ١٥٢ وما بعدها .

فماذا صنع جميل الزهاوى نائب بغداد فى مجلس المبعوثان ، وهل كان جديرا بثقة الناخبين ؟ وهل طبق ما اتفق عليه النواب العرب ؟ أم تراه تخاذل واستكان وخشى بأس الاتحاديين ورأى السكوت من ذهب ؟

كانت جلسات يونيو من عام ١٩١٤ جلسات صاخبة ، ففى جلسة ٢٩ من ذلك الشهر قام الزهاوى ليقول فى المجلس « أسست الحكومة فى مركز السلطة وبقية الألوية المحاكم لتحقيق العدل ، ومن البديهى أنه يجب أن يكون الحاكم قادرا على الافهام والتفهيم ، فاذا لم يتوفر ذلك لا يستطيع الحاكم أن يفهم قصد المتهم ولا العكس ، بل حتى المستمعون لا يفهمون شيئا ، وفى بغداد تجرى المحاكمات باللغة التركية حيث لا يتوفر الافهام والتفهيم .. فطالما تجرى المحاكمات باللغة التركية فلا تتحقق العدالة ، فغلطة المباشر قد تؤدى بالمتهم الى الاعدام أو الى السجن المؤبد — وقد يتعمد المباشر ذلك الغلط لغرض فى نفسه . ان اجراء المحاكمة فى بغداد باللغة التركية كاجراء المحاكمة فى الأناضول باللغة العربية ، فهل تؤمن الغاية اذا أجريت المحاكمات فى الأناضول باللغة العربية طبعا الجواب لا ، فعليه أوجه الى الوزير — ضوضاء كفى كفى — سؤالين :

أولا — ان المحاكمات تجرى فى سوريا باللغة العربية ، فلماذا لا تجرى فى بغداد كذلك ؟

فارس الخورى : توجد بذلك ارادة سنية .

الزهاوى : مستمرا — ثانيا : ان المحاكمة لا تجرى باللغة العربية فهل تتحقق العدالة ؟ وما هو سبب التفريق بين سوريا وبغداد ، أريد أن أفهم ذلك ؟

وزير العدلية : نحن لا نفرق بينهما .

الزهاوى : ماذا تسمى هذا اذن ؟ هل يمكن أن يكون التفريق أكثر من هذا ؟ هل يكون الأسود أحمر ؟

وزير العدلية : الحكومة عممت ارادة سنية تقضى باجراء المحاكمات باللغة العربية فى الأماكن التى يتكلم أكثر من ثلثيها بالعربية ، فنقلت الحكام من هذه الأماكن وجاءت لهم بحكام يعرفون العربية ولكن ذلك لا يمكن أن يطبق فى كل الولايات العثمانية لأنه يقتضى ايجاد حكام يعرفون اللغة العربية ونحن نواجه فى ذلك مصاعب لا أستطيع أصورها لكم — فاذا وجدت فى بعض الولايات العربية محاكمات تجرى باللغة التركية ، فليس معنى ذلك أننا نفرق وانما لهذه المصاعب ، ومع ذلك فنحن ساعون الى ملافاة هذا الأمر وان شاء الله نوفق الى ذلك .

الزهاوى : متشكرين على كل حال ان هذا يستلزم الشكر ، ولكنى مع ذلك أطلب تنفيذ الأمر بسرعة [١] .

مطالبة عادلة ولكنها فى صيغة جريئة والعربية عدو يحاربه الأتراك فى ذلك الوقت والاتحاديون علـى وجه الخصـوص ، ولم يتأثر الزهاوى بالصخب والضجيج ، ولم يقتنع برد ممثل الحكومة فراح يناقشه بأسلوب فيه شىء من السخرية ، بل لم يقتصر الزهاوى على هذا الخطاب وحده فى الدفاع عن العربية فطالب فى جلسة أخرى أن تكون لغة الدراسة الرسمية فى البلاد العربية ، كما طالب بتأسيس المدارس العالية فى بغداد ثم عرضت علـى المجلس بعض القـوانين الهامة وأبرزها قانون محاكمة الصحفيين ، وكان الغرض منه خنق حرية الصحافة ، فكان جميل الزهاوى من أسبق النواب الى معارضة هذا المشروع . والمواد التى كانت موضوع نقاش ، هى التى تمنح النائب العام سلطة رفع الدعوى مباشرة وأن يحضر المتهم خلال أربع وعشرين ساعة وأن يتم التحقيق فى أسبوع اذا كان الهجوم يتضمن القدح والذم فى الحكومة — ولم يعط المشروع للمحكمة أكثر من ثلاثة أيام للبت فى الدعوى وخمسة أيام لتدوين الحكم وتبليغه أما مـدة الاعتراض فلا تزيد على ثلاثة أيام . وقد نص هذا القانون على

(١) شخصيات عراقية لخيرى العمرى ج ١ ٦٩/٧٠ نقلا عن محاضر جلسات مجلس المبعوثان ، وقد ترجم المؤلف عن التركية بعض هذه المحاضر فى كتابه .

معاقبة رجال القضاء الذين يتهاونون فى تنفيذ الأحكام التى نصت عليها بنود المشروع .

فقام جميل الزهاوى وعارض المشروع قائلا : « لقد جربت الأمم الحقيقة الآتية وهى أنه بقدر ما تضيق الحكومة على أرباب الأقلام والأفكار ، بقدر ما يكون الانفجار عظيما وسريعا ، فنحن نضع مواد قانونية شديدة العقوبة ، نقدم فيها محاكمة الكتاب على محاكمة المجرمين والقتلة الا أننا نخطىء فى هذا الفعل الذى لا تدعونا الحاجة اليه ، فهو يليق بالحكومات المستبدة ، لا بالحكومات الحرة .

كان من الناس فى زمن الحكومة الحميدية من لا يجرؤون على التفوه بكلمة ، فلما جاء الدستور منع ذلك الحيف ، ثم رجعنا اليوم اليه » [1] وطالب زملاءه بعدم التصديق على المشروع .

وقد عارض المشروع بعض النواب العرب مثل سليمان فيضى وفارس الخورى وغيرهما وكان سليمان فيضى خطيبا يستثير النفوس ، فى معارضته وكان فارس الخورى قانونيا ينقد نقدا يستند الى النظريات الدستورية ، وبالرغم من ذلك كله ، فقد قبل القانون كما عرض دون أى تعديل فيه [2] .

وضح اذن موقف شاعرنا فهو اتحادى ، وقد نزل الانتخابات وفاز على هذا الأساس ولكنه حر لا يقبل أن تداس حرية التعبير فى سبيل حرية الحزب ، وهو شاعر لا يقبل القيود ، فأراد أن

---

(١) فى غمرة النضال ص ١٦٢ .
(٢) العرب والترك ص ٦٠٥/٦٠٦ .

يحطم قيود المشروع ، وهو عنيف فى هجومه حين يصور تكميم الأفواه فى عهد عبد الحميد بتحطيم الأقلام فى عهد الاتحاديين ويقدم مصلحة الحزب قربانا يضحى به على مذبح الحرية .

ومن أجرأ الخطابات التى ألقيت فى مجلس المبعوثان ، على الاطلاق ، خطاب ألقاه الزهاوى منددا فيه بسياسة الدولة فى فرض الضرائب وجبايتها ، مطالبا بالمساواة فى جمعها — بين الفقير والغنى ، بدلا من محاباة الأثرياء على حساب الشعب الجائع : « لماذا تجبى الضرائب من الفقــراء عن دورهم وتؤخــذ عن قصور وضيعات أسرة آل عثمان وسائر أملاكهم مع أنهم يتقاضون رواتب ضخمة من خزينة الدولة ؟

ولما قوبلت هذه الكلمة بالضجيج أردف قائلا : انى أحترم آل عثمان أكثر منكم ولكنى أطلب المساواة التامة [1] .

وهكذا دافع الزهاوى عن شعارات الثوار « العدالة الحرية المساواة » ، تلك التى آمن بها الأحرار فى كل مكان ، دافع عن عدالة مطلب العرب فى تعلم لغتهم وفى أن تكون المحاكمة بالعربية التى يعرفونها حتى لا يغبنوا ولا يظلموا فى بلادهم أمام قضاة لا يعرفون العربية ، ودافع عن حرية الصحافة ، وحرية الرأى العام فى انتقاد الحكومة ، ودافع عن مساواة الفقير بالغنى عند جباية الضرائب . ولم تكن تعليقات الزهاوى تخلو من المفاكهة فى بعض الأحيان ، مهمــا جرت عليه من شغب واتهامات فروحه المرحة

---

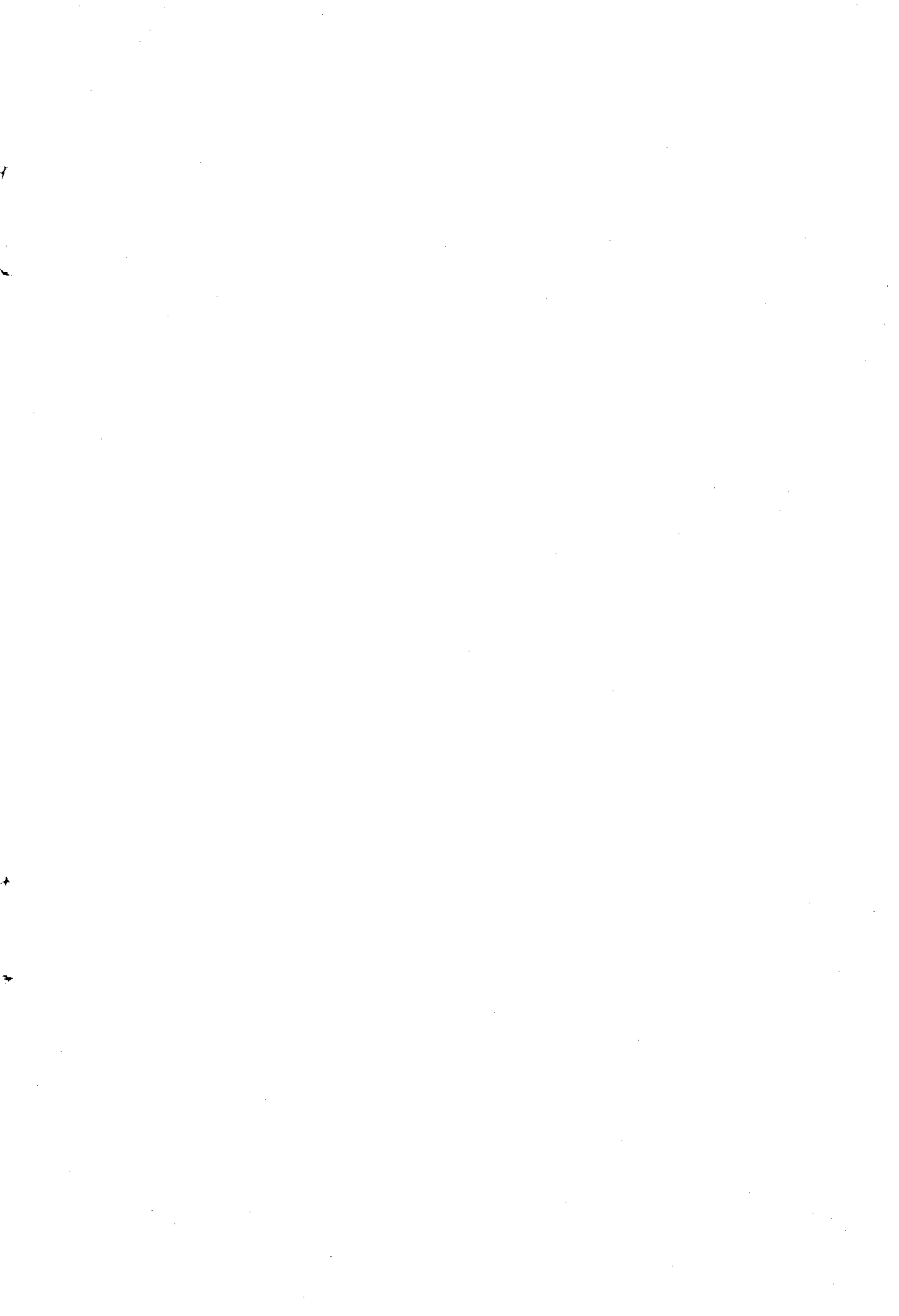
(١) فى غمرة النضال ص ١٦١ .

لا تفتأ تظهر من حين الى حين مهما كانت جدية المناقشات . كان المجلس يبحث ميزانية وزارة البحرية ، فقرر أن يخصص مبالغ الى موظفين يقومون بتلاوة بعض الأحاديث النبوية الشريفة دفعا للخطر الذى قد يداهم الأسطول العثمانى فاعترض الزهاوى على ذلك وقال بتهكم : أيها السادة ان البواخر تسير بالبخار وليس بالبخارى . فضج المحافظون سخطا وتبرما [١] .

انتهت دورة البرلمان فى السابع من أغسطس عام ١٩١٤ ، وعاد النواب الى مناطقهم ولكن نقمة العرب على الاتحاديين بدأت تزداد وبدأت حملة صحفية من الجرائد العربية ضد الحكومة وردت الصحف التركية متمادية فى جرح شعور العرب واستمر الصراع بين العرب والترك الى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى ودخلتها تركيا ، فأخذت الأمور وجها آخر وانتهت صفحة من حياة الزهاوى تعد من أكثر صفحات حياته اشراقا وكفاحا ، عانى فيها مرارة الحرمان وعاش حلاوة الظفر ، وقطع فيها شوطا طويلا فى طريق الأمل .

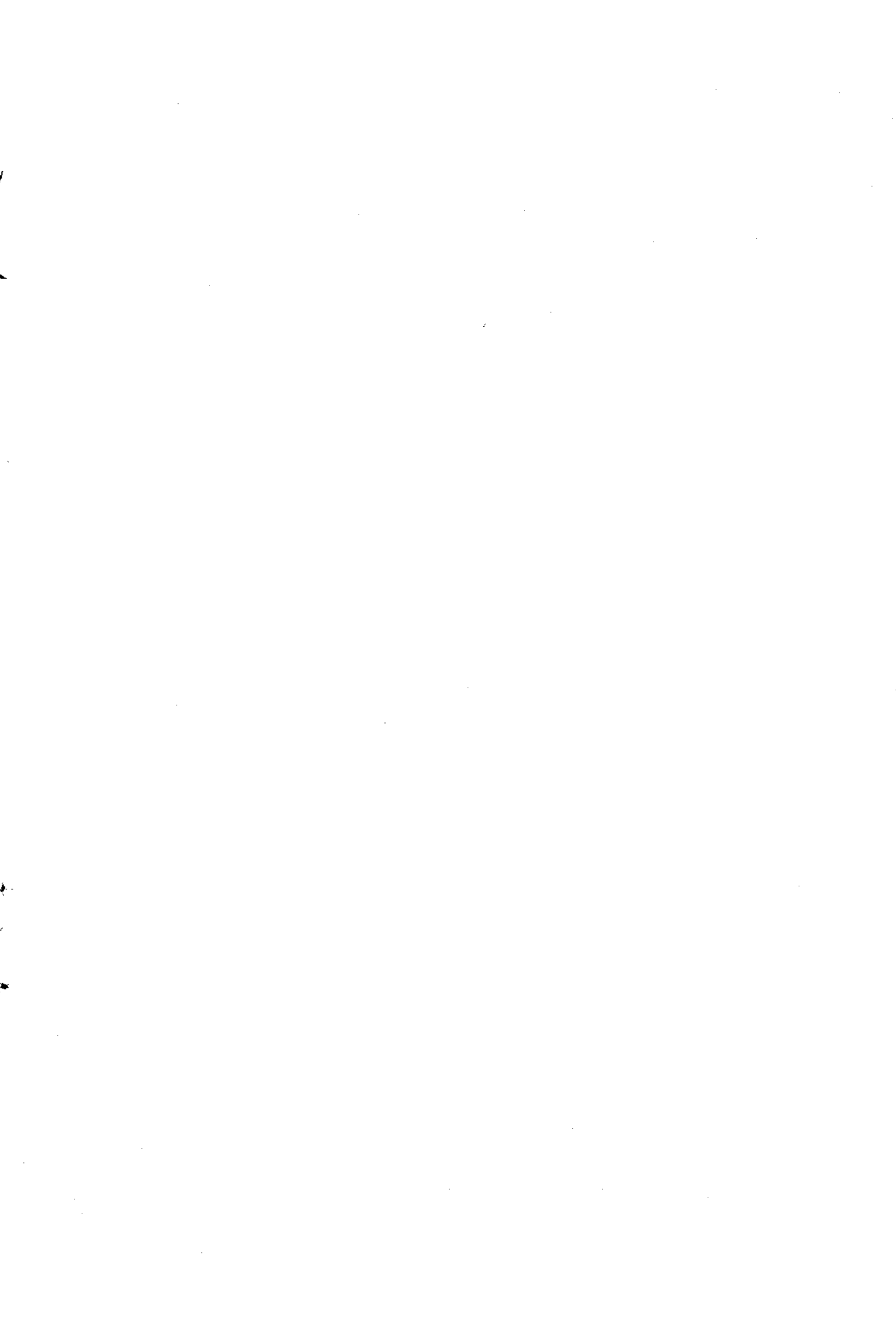
---

(١) شخصيات عراقية ص ٧١ .



الباب الثالث

فى مصر



في غمرة السياسة

كانت الغيوم قد بدأت تتلبد فى سماء السياسة العربية التركية ، والصراع يحتدم بين فكرة العروبة وفكرة التتريك ، ويئس العرب من الاتحاديين وبدأوا ينفضون أيديهم من الآمال التى علقوها عليهم ، ولم يذهب شاعرنا الزهاوى بعد اعلان الحرب الى تركيا لحضور مجلس المبعوثان الأخير ، حتى لا يصدق على اعلان الحرب ضد بريطانيا [1] وآثر أن يبقى فى بغداد .

وكانت دعوة الخليفة محمد رشاد الى الجهاد دعوة غريبة ، فالذين تأثروا بها من مسلمى مصر والهند لم يكونوا فى واقع الأمر يملكون سوى العطف عليها بقلوبهم وأما الشريف حسين ، فلم يكن رجال تركيا الفتاة فى نظره الا مجموعة من الملاحدة ، ولم يستطع شريف مكة أن يستسيغ هذه الدعوة الى الجهاد الاسلامى مع اشتراك ألمانيا فيه ، ولذلك أخذ يماطل فى دعوة الاتحاديين اياه الى تأييدهم . والخطة الحربية التى وضعها الأتراك بالاتفاق مع الألمان كانت تعود بالأضرار الأكيدة على البلاد العربية ، فقد أرسلوا الجنود العراقيين الى « قافقاسيا » فى شمال شرق الأناضول وهى بلاد شديدة البرودة ، فكانت النتيجة أن مات

---

(١) مقدمة الرباعيات .

معظمهم نتيجة البرد القارس قبل أن يدخلوا ميدان القتال . واستراب العرب فى الأمر ، فليس من المعقول أن يفوت ذلك واضعو الخطة والى جانب هذا ، فان تلك النتيجة قد أدت الى ترك العراق محروما من حامية قوية وكان جمال السفاح قد بدأ بحركة ارهاب . شديدة فى الشام فأعدم جماعة من زعماء العرب واتخذ خطة جهنمية تقضى بتجويع الشعب العربى ، فاحتكر سائر الغلات الزراعية فكان الناس يتساقطون جوعا فى الطريق .

ومن الطبيعى أن يفكر القوميون العرب فى مصيرهم بعد أن اتضحت خطة الحكومة التركية ، ومن الطبيعى أيضا أن يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت وخطة الانقضاض على الدولة الى جانب الحلفاء ، فالسكوت نهايته مرة على أى الحالين اذا انتصر الأتراك ، فالتتريك هو النهاية المحتومة للبلاد العربية ، واذا انتصر الحلفاء ، فالعرب أعداء حرب . أما خطة الثورة على الأتراك فان نهايتها أحد أمرين ، أما ان ينتصر الأتراك ، فتكون النهاية السابقة نفسها ، وهى التتريك ، واما أن ينتصر الحلفاء وفى هذه الحالة ستظل البلاد محتفظة بكيانها القومى وبلغتها العربية .

ومن هنا بدأت المراسلات واستمرت عاما كاملا بين الشريف حسين والسيد هنرى مكماهون حول قيام العرب بالثورة نظير استقلال البلاد العربية عند انتصار الحلفاء . ويخطىء من يظن أن الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين وآله وحدهم ، فالحقيقة أن تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية ، وما من عربى استطاع أن يؤازرها أو أن يلحق بها

الا أقدم على ذلك عن طيب خاطر ، وأما الذين وقفوا مرتابين ، فقد نظروا الى المسألة نظرة اسلامية عاطفية ، مع أن تركيا كانت ستلغى الخلافة بعد سنوات [1] .

وعلى ضوء هذا الوضع تصرف الزهاوى فى هذه الفترة من حياته . فعندما اجتمع ببعض رجال السياسة فى بغداد وناقشوا الوضع العام فى البلاد العربية وموقف تركيا من الحرب « حضر هذا الاجتماع أعضاء مجلس المبعوثان ، وكانت تركيا ما تزال مسيطرة سيطرة كاملة ، وكان الحاضرون تدفعهم عاطفتهم الاسلامية الى مساندة تركيا وجمع المال والسلاح من أجل الوقوف الى جانبها ، فماذا كان موقف الزهاوى من هذا الاجتماع ؟ لو امتنع عن توقيع الوثيقة التى تضمنت هذا المعنى لفقد حياته فى لحظات ، لأن تركيا فى حالة حرب ، ولو وقع على الوثيقة لخالف ما عزم عليه أمره » وكان موقفا حرجا للغاية ، لم يستطع أن يخلص منه الا بأن وقع « جميل » [2] .

والواقع أن القوات البريطانية كانت قد احتلت البصرة فى نوفمبر عام ١٩١٤ وواصلت تقدمها ، الا أن موقعة « الكوت » عرقلت هذا التقدم ، حتى أرسلت بريطانيا الجنرال « مود » ومعه امدادات كبيرة فاستطاع أن يحتل بغداد فى مارس سنة ١٩١٧ » . وقد ساعد الانجليز على النجاح تأييد الرأى العام العراقى فى

---

(١) حركة البعث فى الشعر ص ٣٠/٣٨ .

(٢) أطلعنى الأستاذ محمود صبحى الدفترى على هذه الوثيقة التى يحتفظ بها ورأيت توقيع « جميل » .

ذلك الوقت لفكرة انتصار الحلفاء ، فقد سمعوا عن نجاح الثورة العربية التى يقودها الشريف حسين فى الحجاز ضد الأتراك ، وعلموا بالوعود التى بذلها الحلفاء للعرب » [1] .

فاذا قرأنا للزهاوى فى هذه الفترة قصيدة أو أكثر فى مدح بريطانيا ، فالأمر اذن طبيعى يفسره واقع الظروف والملابسات التى عاش فيها العراق فى تلك الأيام وعندما يقول الزهاوى انه « مدح الانجليز بقصيدة نشرت فى ديوانه ونصح العرب بالالتجاء اليهم وترك حكومة الأتراك » [2] فقد كان موقفه موقف المعبر عن الروح العربية فى هذه الاثناء [3] .

---

(١) تاريخ العالم العربى فى العصر الحديث ص ٢٤٠ .

(٢) مجلة الكتاب العراقية أبريل ١٩٦٢ .

(٣) وعلى هذا الأساس نرفض انتقاد هلال ناجى فى حديثه عن مآخذ الزهاوى وانتقاد يوسف عز الدين الذى فسر الأمر بأنه قلق نفسى استحوذ على الشاعر الذى كان مكرما أيام حكم الأتراك فخشى ضياع منزلته الكبيرة حين دخل الانجليز العراق فاضطر الى مدحهم ، ورأى على الخاقانى وعبد الرزاق الهلالى فى نفس الموضوع . فقد فسروا موقف الزهاوى تفسيرا منفصلا عن العصر والأحداث الجارية فيه وتطور مفهوم القومية ورأوا تعارضا بين مدح الزهاوى للأتراك ومدحه للبريطانيين الذين احتلوا العراق . ففسروا هذا التناقض جميعا بأن الشاعر كان عونا للاستعمار على أبناء وطنه « راجع الزهاوى ديوانه المفقود ص ٣٧ ، الزهاوى بين الثورة والسكوت ص ٥٣ ، الزهاوى الشاعر القلق ص ٢٧ ، شعراء بغداد جـ ٢ ص ٣٥٧) والقصيدة التى أخذها عليه كل النقاد ، هى التى يقول فيها :

تبصر أيها العربى واترك	ولاء الترك من قوم لئام
وول الانجليز رجال عدل	وصدق فى الفعال وفى الكلام

ومن الحق أن هذه الأحلام قد تبددت بعد ذلك . (ففى ابريل ١٩٢٠ تقرر فى مؤتمر « سان ريمو » أن يوضـع العراق رسميا تحت الانتداب البريطانى ، وبذلك تثبت أقدام البريطانيين فى البلاد على أســاس الحكم المباشر بدلا من تأسيس حكومة وطنية كما كان يرجــو العراقيون ، وأدرك الشعب أن بريطانيـا لن تفى بوعودها ..

كانت قبائل الرميثة التى تسكن الفرات الأدنى أول من أشعل نيران الثورة فقد قام نزاع بين أحد شيوخ تلك القبائل وموظف بريطانى ، وترتب على هذا النزاع القاء القبض على الشيخ ، عند ذلك هجم رجاله على مركز الحكومة وفكوا سراحه بالقوة ، ولم تستطع القوات البريطانية أن تخمد تلك الثورة . وفى آخر شهر يولية ١٩٢٠ علم الأحرار العراقيون بنبأ سقوط دمشق فى يد الفرنسيين ، فقرروا القيام بعمل حاسم وأعلنوا الجهاد ، وامتدت

وقد نشرت هذه القصيدة بجريدة العرب عام ١٩١٨ والحرب لم تضع أوزارها بعد يقول مهندى العبيدى : « ثم يقوم خطيبا فى الحفل الذى أقيم فى منزل « مود » عام ١٩١٩ فيقول : أما الحرب العامة التى أثارتها أهواء الطامعين من الألمان على الأمم والحكومات ودامت مع كل ويلاتها خمس سنين ، فقد انتهت والحمد لله بظهور حزب الحق وهم الحلفــاء وبينهم العرب على حزب البــاطل وهم المتفقون » ـ (حقيقة الزهاوى ص ١١٤) ومع أن المؤلف أورد النص فى معرض الطعن على الزهاوى ضمن كتابه الذى تحامل فيه على الشاعر ، فمن الواضح أن الخطبة قيلت عقب انتهاء الحرب مباشرة وأن الزهاوى يعتبر العرب من الفريق المنتصر فى الحرب والذى يطمع فى غنائمها . وهذا هو المفهوم الذى كان يراود أحلام العرب فى ذلك الوقت .

الثورة فشملت معظم بلاد العراق — ما عدا بغداد التى كان الجيش البريطانى مسيطرا على الموقف فيها — ووقف مستعدا للدفاع ، واضطرت حكومة الاحتلال الى طلب الامدادات من الهند [1] ولما يئس الانجليز من اخماد الثورة وقمع الحركة بالطرق المشروعة لجأوا الى العنف وأعدموا بعض الزعماء . والواقع أن العراقيين ما كانوا مستعدين لثورة منظمة ، ولم تكن لها خطة مرسومة حتى أن ثوار بعض البلاد ما كانوا يعلمون بأوضاع الثورة فى بلدة أخرى مجاورة ، وانقسم الزعماء أنفسهم ، فانتهت الثورة بالفشل [2] .

فماذا كان موقف شاعرنا من الثورة ؟ لقد انتقده الكثيرون[3] هل صمت صمتا مريبا ، فلم يقل قصيدة واحدة فى الثورة ؟ [4] الواقع أن الزهاوى كان قد اجتمع قبل الثورة ببعض ساسة العراق وقر قرارهم على أن يطالبوا الحكومة البريطانية المحتلة باستقلال البلاد استقلالا تاما لا تشوبه شائبة مهما كلفهم الأمر [5] . كان ذلك يوم ٢٠ يوليو عام ١٩٢٠ أيام « ولسن » ولكن الثورة ما لبث أن اندلعت بعد ذلك بأيام ، وكان بعض زعمائها من الاقطاعيين والرأسماليين لا يبحثون الا عن مكاسبهم الشخصية

(١) تاريخ العالم العربى الحديث ص ٢٤٢ .
(٢) الشعر العراقى الحديث ص ١٥٥ وما بعدها .
(٣) الحقائق الناصعة فى الثورة العراقية ج ٢ ص ٤١٠ .
(٤) محاضرات عن جميل الزهاوى لناصر الحانى ص ٤ .
(٥) الحقائق الناصعة ج ١ ص ١٢٣ .

من وراء الثورة [1] لم يؤيد الزهاوى الثورة لعلمه أن الشعب الأعزل غير المنظم لن يستطيع الوقوف أمام القوات المحتلة ، ورأى أن الثورة سوف تفوت على الساعين بالطرق الدبلوماسية الفرصة للمفاوضة الناجحة .

ثم كان أن دعا السير « ولسن » مندوبى الشعب العراقى الثائر للمذاكرة واختار من الأشراف العراقيين الذين لم يتظاهروا بالاتفاق مع الثائرين عشرين شخصا كان الزهـاوى أحدهم ، فلما فرغ مندوبو الثورة من تبيان مطالبهم انتظر المندوب السامى كلمة الذين اختارهم ، وكان يعتقد أنهم حتما فى جانبه . فقـام الزهاوى خطيبا وقال : « بالأصالة عن نفسى والوكالة عمن انتخبوا معى أشترك مع مندوبى الأمة فى مطالبهم الحقة ولا أرضى بغير الاستقلال للعـراق فلم يكذبه أحـد من المختارين ، واستاء المندوب السامى من كلمته [2] » واستمرت الثورة شهورا ، وبدأ الأمل يداعب المتشائمين وعقد الأحرار فى بغداد مؤتمرا يؤيدون فيه الثوار ، فهل تخلف الزهاوى خوفا وهلعا ؟ لا : فقد بدأ يفقد الأمل فى « ولسن » ويداعبه الأمل فى الثوار ، فقام فى ذلك الحفل ليقول قصيدته التى جاء فيها :

لا تكثرن من الخصـم توغـلا
فأخاف أن يجتاحك التيـار

(١) الشعر العراقى الحديث ص ١٧٢ .
(٢) رسائل الزهاوى .

أخذت تفضـــل أن تموت عــزيزة
بعض النفوس لأنهن كبـــــار
يا قوم قد وعــــر الطريق أمامــكم
فاذا عزمتم تســـهل الأوعـــار
لا يرفع الوطن العزيز ســوى امرىء
حــر على الوطن العزيز يغـــار
ان هــدم العــربى حوض جدوده
سخطت عليه يعـــرب ونزار [1]

وواضح أنه يثنى على الثوار ولكنه يخشى عليهم ، ويتمنى لوطنه كل الخير ، ولكن طريق الثورة وعر كما يقول الزهـــاوى وكما قال المؤرخون لها نظرا للظروف التى أحاطت بهـــا ، وان اختلف نهجه عن نهج الثوار فالكل يجمعهم هدف واحد هو الغيرة على الوطن .

ثم وصلت الامدادات للجيش المحتل وكانت مذبحة « الرميثة » التى قتل فيها مائة رجل وسبعون من النساء والأطفال قبيل عيد الأضحى [2] عندئذ تحقق ما كان يخشاه الزهاوى ، ذبائح ، ثم

---

(١) راجع القصيدة بعد أن جزأها الشاعر فى ديوانه ص ٣٤ ، ١٩٨ وضجت القاعة بالتصفيق كما حدثنى محمود صبحى الدفترى الذى حضر المؤتمر .

(٢) الثورة العراقية الكبرى لعبد الله فياض (بغداد ــ ٦٣) ص ٢٦٩ .

لا شيء » وينفعل الشاعر انفعالا شديدا ، وكأنما اتخذت العاطفة لسان الشاعر ترجمانا لهذا الانفعال فقال قصيدته « بضاحية الرميثة » يرثى فيها الشهداء ويسجل تضحياتهم من أجل الوطن :

ماذا بضاحية الرميثة من غطارفة جحاجح
ولمن أقيمت فى البيوت على كرامتها المنادح
ولأية ندبت من الليل الحمامات الصوادح
قوم الى دار البوار مشوا فمن غاد ورائح
طلبوا مساواة الحقوق فطوحت بهم الطوائح
فزكت دماء قد أريقت فوق هاتيك الأباطح

أقلوك من عيد به كثرت من العرب الذبائح
اذ باد حيّ كامل عن عز بيضته يكافح
بعد الذين تجندلوا بالأمس وجه الدهر كالح [1]

وكأنما خشيت بريطانيا أن تظل الثورة مشتعلة لأنها تحارب قبائل يهدأون ويثورون وهم مدربون على حرب العصابات فى أرضهم « وعينت من أجل ذلك السير برس كوكس الذى عرف باعتداله ويفهم نفسية العرب ليكون مندوبا ساميا لبريطانيا فى العراق . وعندما وصل المندوب السامى الجديد فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ كانت الثورة مشتعلة فى أغلب البلاد العراقية فشرع يفاوض الزعماء على أساس .. جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلالها عصبة الأمم وتنتدب بالنيابة عن بريطانيا »[2] .

(١) الديوان ص ١٧٦/١٧٧ .
(٢) تاريخ العالم العربى الحديث ص ٢٤٣ .

جاء السير برس كوكس ، فاستقبله السيد طالب النقيب ، ووقف الزهاوى يلقى قصيدته التى أثارت ضجة جديدة والتى يقول فيها :

عد للعـراق وأصـلح منه ما فسدا
واثبت به العدل وامنح أهله الرغدا
حبل السياسـة قـد أمست به عقد
فحل أنت بأيدى رأيك العقـدا
غدا الى النـاس فى الأيام منتظـر
والظن أنك تلقى بالسـلام غـدا
أتيت توفى بوعد كنت معلنـه
ان الكـريم لموف بالذى وعـدا
قالوا عسى أن تنيل الشـعب ثورته
سعادة غير أن الشعب ما سـعدا
لا يأمن المدلج السـارى تورطه
ما لم يوطد له من عقـله رشـدا
لو قدروا الأمر ما ثارت عجـاجتها
ولاشكت عينهم من خوضها الرمدا[1]

وانتهت الثورة بعد ذلك بشـهور ، ورضى الزهاوى عن المندوب السامى ورضى المندوب السامى عنه وشكلت أول وزارة برئاسة عبد الرحمن النقيب وكان الزهاوى قد سارع بالانضمام الى حزبه « الحر المعتدل » وهو يعلم أنه سيشكل الوزارة وكان

(١) الديوان ص ٣٢٠ ، ١٤٥ .

يدفعه الأمل أن يحظى بمنصب من مناصب الوزارة غير أن أمله تبدد بعد حين [1] ولكن لماذا نرجم الزهاوى من أجل سياسته هذه وليس فيها ارتماء فى أحضان الاستعمار ؟ ان كثيرين قد صنعوا ما صنعه الزهاوى ، ومحمد عبده الذى لا نشك فى وطنيته قد هادن الانجليز من أجل أن يتمكن من تنفيذ برنامجه الاصلاحى .

حقيقة ان الزهاوى كان عضوا فى مجلس المعارف وفى لجنة تعريب القوانين أيام الاحتلال [2] ، ولكنه لم يكن نكرة حتى نستكثر عليه هذه المناصب فقد كان من قبل أستاذا بمدرسة الحقوق وعضوا بمجلس المبعوثان . وكان معه أعضاء آخرون لا نشك فى وطنيتهم مثل محمود شكرى الآلوسى فى مجلس المعارف .

« وفى يونيه سنة ١٩٢١ وصل فيصل الى العراق كمرشح للعرش العراقى فرحبت به أغلبية الشعب ، وقرر مجلس الوزراء تقديم عرش العراق له ، وتقرر اجراء استثناء شعبى بشأن قرار المجلس ، ففاز بأغلبية ساحقة » واحتفل بتتويجه ملكا على العراق فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ [3] .

وكأنما كان مجىء فيصل ايذانا بأفول نجم شاعرنا ، فقد ألغى وظيفته فى العدلية وقطع راتبه منها فاضطر الى ترك وظيفته فى

---

(١) الزهاوى الشاعر القلق ص ٢٩ .
(٢) مقدمة الرباعيات .
(٣) تاريخ العالم العربى فى العصر الحديث ص ٢٤٣ .

المعارف وبقى بلا راتب بعد أن كان يتسلم سبعمائة وخمسين روبية كل شهر .

يقول الزهاوى « وجىء أخيرا بجلالة فيصل لتتويجه ملكا على العراق ، فأقامت له الأندية والمعاهد حفلات شائقة وكنت أؤمل فيه اعادة مجد العراق وأنه سيرفع مقام الأدب ويبث العلوم والمعارف فى ربوع القطر فيرقيه ويجعل أهله سعداء . فأنشدت فى كل حفلة قصيدة أرحب به فيها وأنفخ فيه روح الحماسة أريد أن يسعى لتحرير الشعب وينيلهم الاستقلال . وأول ما كان هو الغاء وظيفتى فى العدلية وقطع راتبى وعلمت أن سيقطع كذلك راتبى فى المعارف فتركته من نفسى ...

وبعد أشهر من الغاء وظائفى وصلنى مغلف من البلاط الملكى يبلغنى فى داخله رئيس الأمناء أن قد صدرت ادارة جلالة الملك بتعيينى شاعرا له براتب شهرى قدره ستمائة روبية أعطاها من صندوق البلاط الخاص . فكتبت اليه أنى أرفض هذه الوظيفة فلا أريد أن أكون مداحا تلقاء أجرة أعطاها . وأنى اذا شاهدت أن جلالته يخدم بلادى أمدحه على خدماته بدون أجرة ، وحينئذ يكون لكلماتى تأثير أكبر مما اذا مدحته وأنا أجير .. وقابلنى بعد شهور وجيهان من وجوه البلد يقولان اننا مرسلان من البلاط لمفاوضتك بأن جلالة الملك يريد اذا وافقت أن يصدر ارادته هذه المرة بتعيينك شاعرا له ومؤرخا للعراق معا » براتب شهرى قدره ثمانمائة روبية على أن تتسلم هذا الراتب من تاريخ التكليف الأول ، وكان قد مضى عليه أكثر من ستة شهور ، فأجبتهما

أما المؤرخية فأقبلها ، وأما الشاعرية لجلالته بأجرة فلا .. فقالا لا يريد جلالته فصلهما وأصرا وأوعدنى أحدهما فلم أخضع » [1].

وأكبر الظن أن الملك فيصل أراد أن يضرب عصفورين بحجر ، فقد كان الانجليز يعتبرون الزهاوى شاعرهم [2] فأراد أن يحرمهم من شاعر يؤثر فى الناس ، وأن يكون له هو نفس الشاعر الذى يعبر عن سياسته .

فالملك قد جاء الى الحكم بعد جهاد عنيف من أجل العروبة ، وهو لم ينس بعد خديعتهم له ولوالده ، فأراد أن يتشدد فى مجابهتهم [3] ، وأن يكون ملكا حقيقيا ، لا ملكا على الورق .

---

(١) مقدمة الرباعيات .
(٢) الزهاوى الشاعر القلق ص ٢٩ .
(٣) تاريخ العراق السياسى الحديث (عبد الرزاق الحسنى ـ بيروت ـ ١٩٥٧) جـ ٣ ص ١٠ .

الرحيل

تخطى الشاعر زمان الفتوة ، واشتعل رأسه شيبا وتكالبت عليه الأمراض ، آلام بالظهر لا تفارقه ، وشـلل بأصابع قدمه اليسرى ، وفارقته قوته التى كان يعتد بها أيام شـبابه ، واذا ما استرجع العمر كله لم يجد الا صراعا مرا وأحلاما لم تتحقق نهاياتها ، وهو قد كان يملك الشباب ويشغل عن نفسه بالصراع الدائب واليوم فارقه الشباب ، ولم تعد له الا شيخوخته العاجزة ، والافراغه الذى يدفعه دفعا الى التفكير فى أحزانه والى أن يعزف هذه الأحزان ألحانا مشجية فى رباعياته :

تبكين يا عينى فقولى لنـــا   من أى شىء أنت تبكينــا
أمن صروف نزلت أم عـلى   دنيـا تمتعنا بهـا حينـا [1]

لم يبك الشاعر من قبل فما بال دموعه طيعة اليـوم ، ولكنها ليست دموع الاستسلام بل دموع الثائر الذى ضاقت به بلده فهو يهدد بالرحيل عنها الى مصر التى اجتذبت كل الأحرار .
ولكن الرباعيات تقول أكثر من هذا انه يعرض فيها بالملك فيصل ،

---

(١) الرباعيات ص ٢٠٦ .

ويذكر عزة نفسه حين أبى أن يكون شاعرا أجيرا ، ويقرع نفسه لأنه مدح من لا يستحق مديحه :

رب مـال هو لو شئت اقتناء عند لمسى
انما تمنعنى من نيـــله عـزة نفسى

* * *

قد مدحت الذين لم يسـتحقوا مدائحى
احسبوها على ضرورتها من قبائحى (١)

وكأنما قد تجمعت الظروف كلها عـلى مشاكسة الشاعر ، فها هو ذا الرصافى يعلو نجمه ويكاد يختطف منه زعامة الشعر ، وتلاميذه لا يفتأون يناوشون . فيكتب واحد منهم أن الرصافى أول من نظم الشعر فى القصص التراجيدى ، فاذا ما دفع هو رفائيل بطى للرد على تلاميذ الرصافى علقت المجلة تعليقا أقرب الى السخرية :

« جاءتنا هذه الكلمة من أحد الأدباء ، ونخشى أن يكون الأستاذ الزهاوى هو الذى أملاها على كاتبها وذلك لكثرة ذكر الأستاذ لهذا الموضوع فى مجلسه » (٢) .

واذا ما كتب هو سلسلة مقالات ينقد فيها قصيدة شوقى فى رثاء اسماعيل صبرى لما فيها من ابتداء بالنكرة الذى لا يجوزه النحويون وما فيها من الحشو البارد الذى لا يتجرع حتى فى حمارة الصيف وما فيها أيضا من مفارقات ثم نشر قصيدته هو فى

---

(١) الرباعيات ص ١٧٨ .
(٢) راجع الناشئة الجديدة ٧ يناير ١٩٢٣ .

رثاء اسماعيل صبرى « انبرى طالب [1] يرد عليه بأن النحويين يجوزون الابتداء بالنكرة اذا كانت هناك فائدة وراح يصحح له أخطاءه حين يشبه شوقى الدنيا برؤيا النائم وليل العرس فيقول ان هدف شوقى هو اسراع الزمن كرؤيا النائم وليست اللذة التى تجعله يقرنها بليل العرس كما حسب .

كما أخذ هذا الطالب يتتبع سقطات الزهاوى فى قصيدته فى سلسلة طويلة من المقالات . أبلغت به الأيام أن يرد عليه طالب صغير فتنشر له الصحف تحت هذا العنوان « بين أديبين » ؟ وأن يتجمع حوله تلاميذ الرصافى فيضيقوا عليه الخناق ؟ ولكنه تعود الصراع فلم لا يثبت له ؟ لو كان يحارب فى جبهة واحدة لصمد ولكنها جبهات تفتح فى كل يوم وأكبرها جبهة القصر . لو استطاع أن يصمد لها لكسب الجولة . وها هى ذى انتخابات المجلس التأسيسى على الأبواب فلم لا يرشح نفسه فيكون فوزه انتصارا حاسما ينهى المعركة ؟ .

وفى ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٣ طلعت جريدة العراق وبها النداء التالى بامضاء الزهاوى : « يا قوم انكم أمام مستقبل رهيب تتعين فيه مقدراتكم ويتبين مصيركم فاتنخبوا لمجلسكم أناسا مجربين تمنعهم وطنيتهم الصادقة أن يبيعوا ضمائرهم ويخونوا أوطانهم ، وعلماء بالسياسة يعرفون كيف يخرجون من مضائقها ظافرين ،

---

(١) راجع جريدة العراق ٣١ مايو ١٩٢٣ وما بعدها ، رد بهجت الأثرى فى جريدة العاصمة أعداد يونيو ١٩٢٣ .

وخطباء يفصحون عما فى ضمائرهم ولا تأخذهم فى نصرة الحق لومة لائم ويدفعون الحجة بالحجة ..

« يا قوم اذا وجدتم بعد الفحص أن ماضىّ نقى وأنى أهل لأنوب عنكم فى المجلس المزمع تأليفه لسن الدستور فانتخبونى أكن عضوا يذب عن حياض الشعب وأدافع عن حقوقه وأجادل عن منافعه وأحرص على مصالحه غير هياب ولا وجل ..

« أما خطتى فهى أن يكون شكل الحكومة دستوريا نيابيا يرأسها الملك على أن تكون السلطة الكبرى لمجلس الأمة والهيمنة له على الحكومة وأن تكون مناسباتنا فى المستقبل مع الدول مبنية على أساس الاستقلال التام ، وصلاتنا مع بريطانيا العظمى على هذا الأساس وعلى المنافع المتبادلة اقتصاديا وسياسيا وأن أقبل من المعاهدة ما يؤيد استقلالنا الذاتى التام وأرفض كل ما يناقضه » .

ولكن الشاعر عاد يفكر فى الأمر بعقل الشيوخ الذين تخلت عنهم الجرأة وحب المغامرة ، وأخذ يحسب ألف حساب لتدخل الرغبات فى سير الانتخابات فقرر الانسحاب من المعركة وآثر ألا يخسرها ماديا ومعنويا ، ولم يعد أمامه الا الرحيل .

تهيأ الشاعر للسفر الى مصر وعزم على أن يبيع قطعة أرض له يستعين بها على الاقامة فى مصر فلم يجد مشتريا ، وكان قد اقتصد شيئا من المال لا يكاد يكفى ، فلم ينقص ذلك من عزمه ولكن أبت الأقدار حتى أن تواتيه وهو يزمع الرحيل فاذا بقدمه تزل وهو يسير فى داره وكسرت بعض عظام ساقه المهيضة ، فلزم

فراشه خمسة شهور لا يقوى على تحريكها ، وأنفق فى علاجها الكثير مما أدخره [1] .

لم ينثن عن عزمه بعد أن شفيت قدمه ولكن أعوزه المال فلم يتردد فى بيع مكتبته بأبخس ثمن .

ومكتبة كل أديب عزيزة عليه لا يفرط فيها الا مضطرا ، فكل كتاب فيها قطعة من ذكريات عمره ، وقصة من قصص حياته . وهكذا ودع أحبابه فى بغداد وودعه أحبابه وكتبت جريدة الناشئة الجديدة تقول :

« وان أبى العراق الا أن يقصيك يا جميل فسر فى سبيلك ، وفى ذمة الانسانية بؤسك ، وفى ذمة التاريخ رحيلك ، وفى ذمة الأدب ما يقاسيه الأديب فى العراق من بؤس وتعب وعناء » [2] .

ليس لى من بعد العراق مقر   غير مصر ومصر أخت العراق
لست أدرى أراجع أنا يوما   أم لحتفى قبل الرجوع ملاقى
سوف تنسوننى وتنسون عهدى   وتجف الدموع فى الآماق

تلك هى الأبيات التى ودع بها الزهاوى رفاقه فى العراق يوم أقاموا له حفل الوداع فى نادى الاصلاح [3] ثم ركب السيارة بعد يومين فى طريقه الى سوريا ، فقد آثر أن يقضى الصيف فى الشام ، حتى اذا جاء الخريف حط رحاله فى مصر . وراح يتذكر وهو يقطع الطريق فى المساء كيف كان العربى يقطعه

---

(١) مقدمة الرباعيات .
(٢) الناشئة الجديدة ١٤ مارس ١٩٢٤ .
(٣) الديوان ص ٣٤٤ .

على دابته فى أيام طوال يلقى فيها من المشقة ما يلقى ، [1] قطعه من قبل جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء فى طريقهم الى الملوك الأمويين ، وها هو ذا يقطعه مسرعا عجلا فى يوم أو بعض يوم ، لله ما أكثر ما قدم العلم للانسانية . غير انه لا يقطع الرحلة يحدوه الأمل فى العطاء ، ولكن فى حياة أكثر طمأنينة . وما أن وصل دمشق وتنسم عبير الفيحاء ، حتى كان المجمع العلمى بدمشق قد أقام له حفل استقبال فأنشد قصيدته :

ظننت بأن الشعر يغنى فما أغنى
وكم شاعر فى موقفى أخطأ الظنا
ولست أبالى بعد ستين حجة
أأبكى الزمان العين أم أضحك السنا
ولكننى ألفيت أن احتماله
يشق على من يشتكى مثلى الوهنا
يريدون منى أن أغنى باسمهم
وأى هضيم باسم أعدائه غنى
على أن فى بغداد لى من شبابها
اذا ضقت أنصارا ومن حولهم حصنا
وهل أنا الا ابن لبغداد نازح
اذا ذكروا بغداد يوما له حنا
نهبت فجاج الأرض فى ليلة دجت
بسيارة تطوى البعيد ولا تضنى

(١) الديوان ص ٣٥٣ .

الى أن بدا صبح يشق بضوئه
قديرا اهاب الليل من بعد ما جنا
سأثنى على قوم رعونى بفضلهم
ومن نال ما قد نلت من حظوة أثنى[1]

وفى الثالث والعشرين من أبريل واصل سيره الى بيروت ، فاستقبله أدباؤها استقبالا حافلا . ففى أمسية الجمعة بعد ثلاثة أيام من وصوله اجتمع أكثر من مائة من رجال الأدب فى منزل « بدر دمشقية » رئيس مجلس بيروت البلدى ، وكانت قرينته « جوليا دمشقية » صاحبة مجلة المرأة الجديدة البيروتية فى استقبال المدعوين ، فكانت ليلة أدبية رائعة أفاضت الصحف فى الحديث عنها .

وقد رحبت صاحبة المجلة بالشاعر العراقى الكبير ثم قالت « وأى روح لمست أرواحنا فحركت منها أسمى العاطفة كروح هذا الرجل الكبير ، الذى على بعده عنا واختلاف كثير من عوائده واعتلال صحته ، لم تطأ قدماه هذا البلد حتى جذب مجموع بيروتنا الراقى ، فامتثل بين يديه خاشعا لهيبته متوجعا لآلامه وضعف بنيته ، مفاخرا بفلسفته وشعره ، فعلى الرحب والسعة أيها النابغة الشرقى والشاعر المبتكر » . ثم قام فؤاد مغبغب فعرف بالشاعر الزهاوى تعريفا طويلا وتلاه الشاعر حليم دموس فأنشد قصيدته الرائعة التى جاء فيها :

(١) الديوان ص ٣٥٠ .

لبـــان لبنـــان رحب بفيلســـــوف العـراق
فكم حننت اليـــــه من قبـــل هـــذا التلاقى

* * *

لا تعجبـــوا لهـــزار شـــاد يغادر وكـــــره
فلن يقيـــــد حـــــر قـــد أطلق الله فـــكره

وتلاه الأديب « وديع عقل » صاحب جريدة الوطن فذكر قول الزهاوى :

أحمـــامة فى جنب دجـلة غردت
لم يبق مستمع اليـــك فطيرى

فألقى أبياتا يعلق فيها على بيت الزهاوى :

أحمـــامة فى جنب دجـلة غردت
الشرق مستمع اليـــك فزيدى
قد روعوك فطرت عن أمـــلوده
تبغين أيكا هادىء الأمـــلود

وتلاه جبران توينى صاحب جريدة الأحرار فألقى كلمة قال فيها ان الزهاوى رســول من رسل الاصلاح . وتكلم جرجس الخورى وفيلكس فارس ويوسف زخريا قاضى صلح بيروت وذكر انه كان من تلامذة الزهاوى فى دار الحقوق بالاستانة وقال ان التطور الفكرى من ثمرة الزهاوى ثم تلته الأديبة هيلانة اسحاق والشاعر توفيق وهبة الذى لقب الزهاوى « بأبى الشعر » لأنه قوض صرح القديم فهال الناس جديده . « ثم وقف الزهاوى فأنصتت الآذان وشخصت الأبصار اليه فألقى بصوته الجهورى

الحماس وألفاظه الفصيحة ولهجته العراقية الجميلة القصيدة الآتية ، فطرب لها السامعون واستعادوه أبياتها مرارا » : [1]

يممت بيروت بعد الشام فى سفرى
أجلو بأوجه أمجاد بها بصرى

انى بحملى الى بيروت فى سفرى
شعرا كمستبضع تمرا الى هجر ...

وليس يئيس أرواحا مفكرة
شيء كحق مضاع أو دم هدر

لقد تجادل ناس حول منزلتى
من خاذل مكثر ذمى ومنتصر [2]

وتتابعت حفلات الاستقبال وتتابعت قصائد الشاعر ، وكانت أكبر هدية قدمتها بيروت للزهاوى أنها أنفقت ريع بعض هذه الحفلات فى طبع رباعياته لتكون تذكارا باقيا واستقل الشاعر السيارة بعد هذه الذكرى العاطرة وترك « ضميرا من ميامنه » كما فعل المتنبى من قبل فى طريقه الى مصر « آن للغريب أن يرى حماه » ، وآن للشاعر الشريد أن يلقى عصا التسيار بعد طول الرحلة ، فما صافح وجهه نسيم الثغر حتى وقف يترنم :

أحبيك يا مصر الجميلة يا مصر
بشعر يذكيه شعورى والفكر

---

(١) المرأة الجديدة البيروتية ج ٦ السنة الرابعة .
(٢) الديوان ٣٥٤ .

أراد العدى أن يرهقونى بمكرهم
وان سلاح العاجزين هو المكر
وصبرى على ضيمى ببغداد حقبة
فما سرت الا بعد أن نفذ الصبر
وفى الأرض للرواد مرعى ومورد
وفى الأرض منأى عن مكان به الضر
ولما وصلت الثغر كان لحسنه
بوجهى وقد أحببته — يبسم الثغر[1]

وتابع مسيره الى القاهرة فاستقبله شيخ العروبة أحمد زكى وأقام له حفلا كبيرا فى داره أنشد فيه الزهاوى قصيدته التى مطلعها :

وضح الصباح وهبت الأرواح
وتبينت فى الأوجه الأفراح[2]

نزل الشاعر بفندق « سافوى » بشارع شريف وطاب له المقام مع زوجته فى مصر ، ورحبت به الصحف فنشرت قصائده فى صفحاتها الأولى وكانت الأهرام تنشرها تحت عنوان « خواطر فيلسوف » كان أقرب المصريين اليه سلامه موسى وعباس العقاد وأحمد زكى .. وأحمد زكى هو أول من احتفى به ، وسلامة موسى هو الذى ترك الزهاوى لديه ديوانه « النزغات » وعباس العقاد كان يأمل فى الزهاوى أن يكتسب شعبية تطغى على شعبية شوقى ،

---

(١) الديوان ص ٣٦٩ .
(٢) اللباب ص ٢٠٥ .

فلم تدم الصلات بينهما الا أمدا قصيرا . ولكن أنسى الشاعر بغداد حقيقة ؟ لا : فما كاد يستقر فى مصر حتى جذبه الحنين الى داره وحتى بدأ يحدد ميعاد عودته ، ولعل فى هذا الخطاب الذى أرسله الى مريده أحمد حامد الصراف ما يكشف عن الكثير من هذه الفترة .

الأخ الفاضل

وصلنى كتاب الأخ الكريم والبريد على وشك الاغلاق فما وسعنى الا الاسراع والاجمال ، أما مقامى فى مصر فحميد وقد زارنى كثير من الفلاسفة والشعراء والصحافيين وأساتذة الجامعة وأعدت زيارة كثير منهم ونشر لى المقطم قصيدتين والأهرام أربع قصائد فى أول صفحة وهاتان لا تنشران لكل أحد ، وقد وضع الأهرام لما ينشره الآونة بعد الأخرى عنوانا لقصائدى « خواطر فيلسوف » وقد رحب بى فى قصائدهم عدد من الشعراء . ومختارات دواوينى هى اليوم تحت الطبع فى المطبعة العربية شارع المزين بالموسكى صندوق البريد ٦٩٨ وعدد أبياتها أكثر من ٦٠٠٠ أما الرباعيات فقد أخذها أهل بيروت ليطبعوها على حسابهم تذكارا لمرورى ببيروت . أكتب اليكم كتابى هذا فى غرفتى وهى تطل على جنة غناء فى « شارع شريف رقم ٥ الدور الأول بانسيون سافوى » ولقد نظمت بعد مفارقتى بغداد زهاء ٢٠ قصيدة كلها دخلت فى المختارات . ومن أعز أصحابى هنا الأستاذ العقاد وقد أرسل المازنى خبرا يريد زيارتى وأكثر أصحاب الجرائد يريدون منى شعرا تجود به قريحتى لينشروها فى صحفهم ولكنى أفضل الأهرام

لأن كثيرا من محرريه أصحابى اليوم وهى أشهر جريدة فى مصر يطبع منها كل يوم ستون ألفا .

وقد تم طبع « المجمل فيما أرى » وهى رسالة فلسفية ، أنا لم أنس بغداد ولن أنساها ، ولا أنسى اخوانى بها الذين كنت مسرورا بهم . الكثير من الشبان هنا يحفظون قصائدى التى نشرت فى الأهرام وهم يطروننى كثيرا فأخجل من اطرائهم . لم أعرف الى الآن محل عائلة جدكم المرحوم أما خالكم فهو كما حققت فى الاسكندرية ، والسبب فى جهلى محل عائلة المرحوم أن الذين أجتمع بهم ليسوا يعرفونهم وأن رجلى لا تساعدنى على التجوال وأن النـاس فى الغالب هم الذين يزورونني لا أنا الذى أزورهم .

بلغوا سلامى الأساتذة الكرام معروف أفندى المحترم وفهمى أفندى المبجل وعطا أفندى الأخ النجيب الأكرم وعلى الأستاذين رشيد الهاشمى ومحمد والأستاذ حسن عضيبة وعلى الأخ المفضال جعفر الشبيبى وعلى صديقى الحميم البناء وعلى جميع أعضاء نادى الاصلاح ونادى التهذيب . وأضمن عنوان للكتب التى تأتينى هو « شارع الناصرية نمرة ٨٣ بواسطة عبد الغفور أفندى مدحت البغدادى » .

١٨ حزيران ١٩٢٤ **جميل الزهاوى**

عائلتى تقدم خالص احتراماتها الى والدتكم المحترمة وخالتكم المبجلة .

لم أقرر بعد الرجوع فربما يكون فى الخريف الآتى وهو لايتأخر أكثر من الربيع القادم .

ما أشبه مقام الزهاوى فى مصر بمقام المتنبى من قبل ، فالنقاد هم الذين اضطروا المتنبى الى الرحيل من حلب الى مصر ، وجاء المتنبى الى مصر يحدوه الأمل ولكن النقاد وكافورا اضطروا المتنبى الى الرحيل الى العراق وهكذا جاء الزهاوى الى مصر بعد أن اضطره الغاضبون والناقدون الى الرحيل ، جاء يحدوه الأمل كما كان يصرح فى كثير من شعره ، وفى مصر حركة نقدية هائلة فما كان من الممكن أن تترك الزهاوى هانئا مستغرقا فى آماله ، فالنقاد أيضا هم الذين عجلوا برحيل الزهاوى ، ولم يكن كافور فى هذه المرة مع النقاد وانما كان شخص آخر ومن العسير أن تتتبع حياة الزهاوى فى مصر وحدها فترة اقامته بالقاهرة فالصدى كان يتردد فى الصحف العراقية أيضا .

فقد أرسل المازنى خطابا الى أحد أدباء بغداد يصور فيه انطباعه عن الزهاوى ونشرته جريدة العراق فى حينه ولابد أنه وصل الزهاوى وقرأه وان كان لم يرد عليه . يقول المازنى : « غير أنى لم أطلع على كل ما كتب فى الفلسفة أو قرض من الشعر ولا أرى من الانصاف فى شيء أن أكتفى فى تقديره بالقليل الذى وقع الىّ من كلام وأصارحكم بأن ما ينشره الأستاذ الزهاوى هنا فى مصر من الشعر بجريدة الأهرام يصدمنى ويريبنى ويحملنى على ايثار التؤدة فى الحكم على الرجل لعل له ما هو خير من ذلك وأحق بأن يسمى شعرا . ذلك أن ما قرأته له من شعره الذى نظمه فى مصر لا يخرج عن الحقائق التافهة مثل العصافير تطير والانسان يمشى على قدميه والأحياء تموت .. وأمثال هذا الكلام ، ولولا

أني كما قدمت أرى التريث حتى ألم بحياته وأقف على كل ما كتب يافعا وكهلا لنصحت له بالكف عن مثل هذه الحكم الغثة والحقائق الفاترة ، فليس من الضرورى أن يكون المرء حكيما ليكون شاعرا عظيما . نعم لابد للشاعر من حكمة الطبع ليفطن الى حقائق الحياة والطبيعة الجوهرية الخالدة ، ولكن السمع بأمثال هذه الحقائق الرياضية أو العلمية أو على الأصح البديهية شيء آخر مختلف جدا ليس من الحكمة فى كثير أو قليل ، وماذا عسى أن يكون اذن الفرق بين الشاعر وعامة الناس . وأرى من واجبى أن أقول لكم ان لكم أن تنشروا وتذيعوا ما شئتم من هذه الرسالة » (1)
القاهرة فى ٢٩ تموز ١٩٢٤ .

أما شعراء الطبقة الأولى فى مصر مثل شوقى وحافظ ومطران فلم يحفلوا به كثيرا ، وهو منذ شهور كان قد انتقد شوقيا فى قصيدته التى رثى فيها اسماعيل صبرى ثم حاول أن يعارضه فلم يلحق به وهاجمه بعض النقاد فاكتفى شوقى بذلك (2) أما حافظ ومطران فلعلهما قد اعتبراه منافسا جديدا بالاضافة الى منافس عراقى سابق هو الكاظمى (3) .

اقتربت الرحلة من النهاية عندما أثيرت ضجة حول قصيدة

---

(1) العراق ٥ أغسطس ١٩٢٤ .
(2) راجع قصيدة الزهاوى فى جريدة العراق ١١ حزيران ١٩٢٣ ونقد بهجت الأثرى فى نفس الجريدة ٩ آب ١٩٢٣ .
(3) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٢١ ذكريات مع الزهاوى لكمال ابراهيم .

نشرها الشاعر فى جريدة السياسة يشك فيها ويشكك فى الروح وفى كل ما لا يقع تحت الحواس ، متأثرا بالفلسفة المادية ، وفيها يقـول :

وســـائلة هل بعد أن يعبث البلى
بأجســادنا نحيـــا ونرنو وننطق
فقلت مجيبا اننى لست واثقـــا
بغــــير الذى حسى لــه يتحقق
تقولين يفنى الجســم والروح خالد
فهل بخلود الروح عندك موثق ؟ [1]

تحداه فريد وجدى فى جريدة السياسة [2] — بعد أن وجه اليه كتابا مفتوحا — أن يدخل معه فى مساجلة حول خلود الروح ، فرد عليه الزهاوى يشكر له هذا العرض ويتخلص من المساجلة معتذرا بأن أيامه فى مصر أوشكت على النهاية . والواقع أن الشاعر كان قد أحس بالثورة على قصيدته تتخذ طريقا آخر ، فبعض شيوخ الأزهر يتزعمهم الشيخ « قطيط » أرسلوا الى مجلس الوزراء كتابا يتساءلون فيه عما اذا كان هذا الشاعر قد جاء الى مصر لينشر الالحاد ، على صفحات الجرائد فشعر الزهاوى بحرج

---

(١) اللباب (بغداد ـ ١٩٢٨) ص ٢٢٢ .
(٢) الزهاوى وديوانه المفقود ص ٣٠٠ .

موقفه ، وكان ما ادخره من مال قد أوشك على النفاد ، فقــرر المبادرة بالرحيل الى العراق [1] :

وطنى الذى فيــه ولــــد ت هــو الذى فيه أبيــد
عنــه عـــلى شـــغفى به أنآى فترجعنى العهـــــود
فشهقت فى أحضــــــانه أبكى كما يبكى الوليـــد
ان لم أذد أنا عن حقـــو ق للعـــراق فمن يذود [2]

تلك هى الأبيات التى استقبل بها الشاعر أرض العراق ، بعد أوبته ورحبت به الصحف [3] العراقية وكأنما كانت الرحلة بلسما فشفت جروحه ، وأحس الشيخ أنه أشد ما يكون حيوية وقدرة على الوقوف فى وجه العواصف ان ثارت من جديد .

---

(١) من حديث بينى وبين تلميذ الشاعر أحمد حامد الصراف وقد رواه له الزهاوى نفسه .
(٢) اللباب ص ٢٢٤ .
(٣) جريدة العراق ١ نوفمبر ١٩٢٤ .

في مجلس الأعيان

لم تطل فترة الاحساس بالضياع ، فما هى الا شهور بعد عودة الزهاوى من مصر ، حتى عين عضوا بمجلس الأعيان فى ٢٥ تموز ١٩٢٥ ، زمن وزارة عبد المحسن السعدون زميله فى مجلس المبعوثان العثمانى . وشتان ما بين الزهاوى النائب الذى كان يترصد لسقطات الحكومة ، وبين الزهاوى العين الذى أضناه طول الصراع ، فاختفت شخصيته الجريئة ولم يعد يقف تلك المواقف البطولية . ولكن شخصيته المرحة التى تشيع جوا من الابتهاج بقيت ضاحكة برغم الأيام .

« وقع مرة أن وقف أحد زملائه من أعضاء مجلس الأعيان ، ممن كانوا ينتمون الى أحد الأحزاب ، يخطب فأطنب فى خطابه وابتعد عن الموضوع الذى يدور حوله النقاش ابتعادا واسعا ، فحاول الزهاوى أن ينبهه الى ذلك ، فحسب المتكلم أن الأستاذ يريد اسكاته ، فاشتدت حماسته وصاح بصوت أجش : لن أسكت ولن أسكت ، أنا حر فى الكلام ، ومن ذا الذى يستطيع اسكاتى ، ألا قولوا من يستطيع ؟ . وهز يده كمن يتحفز للمبارزة ، فقام الزهاوى وأحنى رأسه وهو يقول : تمام مولانا أنا لا أستطيع اسكاتك ، ولكنى أستطيع أن لا أسمع ما تقوله على

الأقل . وسد أذنيه بأصبعيه وجلس ، فقهقه الحاضرون ، وفقد الخطيب حماسته فجلس ..

« ووقع أن قام جدل حول موظفى دائرة المحاسبات العامة ، وانتقد البعض أن عددهم كثير لا يستدعى ذلك وعارض الزهاوى فنشبت بينه وبين أحد زملائه مناقشة حادة ، عبثا حاول الزهاوى فيها أن يقنع ذلك « العين » [1] ، فكلما أبدى حجة جديدة وبرهانا آخر ، أصر زميله على وجود تضخم فى الموظفين ، فضاق الزهاوى أمام عناد زميله واصراره وقال يوجه الكلام اليه : صح المثل (عنزة ولو طارت) فوقف ذلك العين يقول : ماذا يقصد الأستاذ بهذه العبارة ؟ .. فأجاب موضحا .. نعم رأى رجلان شبحا من بعيد فقال الأول هو طير وقال الآخر عنزة ، وبعد قليل طار ذلك الشبح ، فقال الأول لقد ثبت أنه طائر ، فقال الآخر لا عنزة ولو طارت . » [2] .

وكان أكثر ما يطيب للزهاوى فى مجلس الأعيان أن يعارض بعض اللوائح القانونية من الناحية اللغوية ، خاصة اذا كانت تلك اللوائح قد صاغتها لجنة برلمانية اشترك فيها (أحمد فخرى) و (ابراهيم الحيدرى) ليؤكد أنه العالم الوحيد باللغة فى مجلس الأعيان . فاذا عرضت على المجلس لائحة من تلك اللوائح قام الزهاوى يصحح ما فيها من أخطاء نحوية وهنات صرفية ، فتقوم

---

(١) عضو مجلس الأعيان .

(٢) شخصيات عراقية ج ١ ص ٧٥/٧٨ .

بينه وبين العضوين — وهما من فقهاء اللغة — مناقشات لغوية لا تخلو من طرافة .

اتفق مرة أن نشبت بين الزهاوى والفخرى والحيدرى مجادلة استغرقت وقتا طويلا على عبارة وردت فى احدى اللوائح ، أخذ كل من الطرفين يدافع عن رأيه بحماسه ويستشهد بشواهد ويرجع العبارة الى أصولها ومصادرها ومشتقاتها ، فلما أعيدت تلك اللائحة لغرض تصحيح العبارة موضوع المناقشة تبين أنها غلطة مطبعية [1] .

وورد فى احدى مواد النظام الداخلى للمجلس هذه العبارة (ويخبر بذلك أيضا لرئاسة مجلس النواب) ولم يعجب التركيب شاعرنا الزهاوى فاقترح أن توضع بدلها (ويخبر بذلك أيضا رئيس مجلس النواب) ، وقامت مناقشة لغوية انتهت بأن أخذ رئيس المجلس الأصوات على العبارتين ، فرفض اقتراح الزهاوى ولم يعجب الشاعر أن يكون على صواب ويرفض اقتراحه فى مسألة لغوية من صميم اختصاصه هو ، فقال لرئيس المجلس :

— اسمح لى يا مولاى ، اذا وجدت عبارة نصب فيها الفاعل ، فهل نقبلها ونغير القواعد العربية لمجرد حصول الأكثرية فى التصويت ؟ ولكن رئيس المجلس لم يرد أن يضيع الوقت فى مثل هذه المسائل الشكلية وأبى اعادة فتح باب المناقشة بعد قبول المجلس للمادة [2] .

---

(١) شخصيات عراقية ص ٧٥ .
(٢) محاضر مجلس الأعيان سنة ١٩٢٥ ص ١٠٧ .

وبقدر ما كان ينتعش أحمد فخرى وابراهيم الحيدرى لنتائج التصويت تلك اذا جاءت فى صالحهما يتضايق الزهاوى ويردد — سبحان الله ، ان الأكثرية تتحكم حتى فى الأغلاط اللغوية — ومن المرات القليلة التى حالفه الحظ فيها فانتصر على منافسيه ، تلك التى كانت فى جلسة ٢٢ أبريل ١٩٢٧ حيث عرضت لائحة (قانون ادارة الألوية) فتصدى لها فاضل أفندى ، واعترض على ما جاء فى الفقرة الأخيرة من المادة السادسة والعشرين وهى (ان الموظفين الملكيين خاضعون لأوامر المتصرف من الوجهة العامة) وقال : أنا أستوحش من عبارة « خاضعون » فلا أحب لحكومة ديمقراطية دستورية أن تدخل فى قانونها هذه الكلمة ، حيث اذا نظرنا الى المعنى اللغوى للكلمة نرى للخضوع معانى عديدة وأشهرها الانقياد مع الذل والقهر ، وطلب استبدالها بكلمة منقادين . عندما عرض الاقتراح على بساط البحث ، توجهت الأنظار الى الزهاوى ، فقام بعد أن سبقه بعض الأعضاء الذين تكلموا فى تأييد حذف عبارة « خاضعون » وقال : أرى أن فى الانقياد كثيرا مما يخشاه الأعضاء المحترمون أكثر من الخضوع ، ان الانقياد بمعنى يقودونه كالحيوان ، فبقاء الخضوع أولى [1] .

وهكذا كانت مناقشات الزهاوى لا تخرج عن نطاق هذه الدائرة الا فى النادر من الأحيان ، حين اعترض على رفع الضريبة

---

(١) محاضر مجلس الأعيان سنة ١٩٢٧ ص ٢٣٢ .

الجمركية عن البن » وكان العراقيون يشربون القهوة باسراف كما يشربون الشاى الآن » ولكن اقتراحه رفض [1] .

كان نظام المجلس يقضى باسقاط عضوية نصف عدده كل أربع سنوات بطريق القرعة ، وانتهت سنوات شاعرنا فى يونيو عام ١٩٢٩ يقول الجواهرى : « وتشاء المصادفات السيئة أن يكون بيدى عدد خاص لجريدة العراق مقفل الصفحات ، وقد أثبت به وأنا فى طريقى الى بيت الشيخ الزهاوى ، ويكمل الزهاوى ملابسه ويهم بالخروج ويرى الجريدة فى يدى فيسألنى عما فيها فأخبره أنها لم تفتح بعد ، ثم أفتحها محاولا قراءة أهم ما فيها فيكون أول أخبارها المحلية انتخابات مجلس الأعيان المزعومة وأسماء الفائزين وليس الزهاوى بينهم . لا شك ان الزهاوى كان على أتم علم بحقيقة الأمر قبل مدة ، ومدة مديدة أيضا ، ومع هذا كله فماذا رأيت ؟ أنصت الشيخ الجليل بصمت وألم وبشىء من الانكسار الى الاسم تلو الاسم ، ثم أمال عنى بوجهه قليلا ميلانا لم يقدر أن يمنعنى من رؤية دمعة كبيرة حادة تتدحرج على وجهه » [2] .

امطرى لؤلؤا سماء سرنديب وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا ان عشت لست أعدم قوتا واذا مت لست أعدم قبرا

هذان هما البيتان اللذان كان يترنم بهما حين وصل الى حلقته

---

(١) محاضر مجلس الأعيان سنة ١٩٢٧ ص ١٩٢ .
(٢) الأديب العراقى العدد الثالث (ذكريات عن الزهاوى للجواهرى) .

الأدبية فى الباب الشرقى « بقهوة الشط » فقد دخل كسير الخاطر شاحب الوجه مقطب الأسارير ، ولم تكن ليلة مرحة كلياليه كلها ، فقد غاضت الابتسامة وثقلت الفكاهة [1] ».

وانصرف الزهاوى هادىء المظهر ، ولكن الثورة تجتاح كل جوانحه ، لقد كان من قبل مشغولا بمنافسيه متفرغا لهم أيام مجلس الأعيان ، وتمكن وحده أن يصدر صحيفة تلقمهم حجرا ، ومن الحق أن هذا الصراع استنفد أكثر طاقته ولكنه لم ينس بلده ، أليس هو القائل ليثير الشعب ضد الاستبداد :

يبتغى الشعب أن يرى للمساواة
شمولا وأن يزيل الفروقا
يبتغى الشعب أن يطالب حرا
يبتغى الشعب أن يسير طليقا
يبتغى الشعب أن يعيش رضيا
وافر العز أو يموت حنيقا [2]

ولكن الاستبداد كان فى مراحله الأولى ، أما اليوم فالملك والاستعمار جبهة واحدة وكأنما تعب فيصل من النضال وأسعده أن يكون المندوب السامى الجديد لين العريكة [3] ، فليكن اذن حربا على أعدائه وعلى الملك وعلى البريطانيين ، وليصب هذه

---

(١) جريدة الأنباء البغدادية ١٢ مارس ١٩٣٧ .
(٢) اللباب (بغداد ــ ١٩٢٨) ص ٢٤٦ .
(٣) العراق ، دراسة فى تطوره السياسى (فيليب آيرلاند ترجمة جعفر خياط بيروت ــ ١٩٤٩) فصل الملك ص ٣٣٠ .

الثورة التى تجتاحه نارا تحرق وسيلا يدمر . لقد فقد كل شىء بعد أن أحنى الصراع هامته وشل المرض ساقه ، وأكلت الشيخوخة عافيته وقبر الأعداء آماله .

ما كنت أخشى شرهـــم ... فى بدئه حتى اســـتطارا
قالوا اســـتقلوا ثم ســـدوا ... الصحف واعتقلوا الحـــرارا
يا قوم فكوا عنـــكم الأصـــ ... ـــفاد انكم أســـــارى
شـــبع الدخيــــل وانكم ... تشكون فى الوطن الســـعارا
لا تســـفحوا دمعــــا فان ... الدمع ليس ينيـــل ثارا [1]

ولكنه لم يشف غليله بعد من فيصل — أما منافسوه فشعره يلهب ظهورهم كل يوم فلتكن قصيدته فيهم طاقة ثورية هائلة :

ولقـــد يذكرنى بعـــز آفـــل ... برق لـــه خلل الســـحاب بريق
لم يحسب النفر الألى قد ضـــيقوا ... ماذا يجـــر وراءه التضـــييق
لا تحســـبن الظالمين بنجـــوة ... من نقمـــة بالظـــالمين تحيـــق
ســـأقول يوم سقوطهم فى وجههم ... هـــذا جـــزاء الخائنين فذوقوا

(١) راجع ثوراته فى الأوشال ص ١٠٠/١١٥ .

الإصابة

اشتد عنف المعارك الأدبية بين الشاعرين الكبيرين ، جميل الزهاوى ومعروف الرصافى ، ولم يكن أمام الزهاوى الا هذه الجبهة حين كان عضوا فى مجلس الأعيان وكانت فكرة جريئة حقا ، حين فكر فى اصدار مجلة « الاصابة » لتصيب منافسيه بسهامه ، وليكون واضحا وان تنكر الآخرون فى أثواب تلاميذهم . وقد صدر العدد الأول يوم الجمعة ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٦ وجاء فى فاتحته : « قد جعلنا صحيفتنا الاصابة مثارا للنضال عن الحق فى العلم والأدب ينازل فيها أبطال الجديد منهما أنصار القديم ، والذى لم يعد منه فائدة لأمة تريد نهوضا مع الناهضين فى العصر العشرين أما السلاح فيراع مرهف ، وحجج دامغة ، وهو نضال النهاية والحسم ، فلا يكون فيه رأفة بمن يتشيعون للباطل مهوشين بعصيهم شأن العميان الجاحدين للنور على المبصرين القائلين به . « والباعث الأكبر لهذا النضال وخوض معمعان هذه الحرب القلمية هو أنا قد ألفينا العربية فى العراق لا تستغنى فى حالها الحاضر عمن يقوم أودها بالتنبيه على ما يقع من الخطأ فى كثير من القصيد والمقالات مما ينشر فى صحفه ولا ينحصر هذا الخطأ فى اللفظ ، بل يتجاوزه الى المعنى الذى هو كل المراد من اللفظ ...

« وستكون عبارتها سهلة ما فيها تعقيد أو عوج فيسهل فهم القراء اياها وتتجنب الاطالة وتلتزم الاختصار ، فانالطباع تنبو عن فضول الكلام والأرواح تملها وهى مطلقة لا تتقيد بالأبواب والفصول فتكون محتوياتها كأزهار الربيع المختلفة ، ينبت الأحمر منها فى جنب الأبيض والأزرق والأصفر كأنها خليط من ألوان قوس السماء .

« وقد عولنا على أن نصدرها الآن أسبوعية فى ثمانى صفحات ثم نجعلها اذا دعت الحاجة — ست عشرة صفحة ، والأمل انها ستنمو وتتفرع أغصانها » .

أسلوب صحفى جذاب ، فهو قد جرب عمل الصحافة من قبل حين كان محررا بجريدة الزوراء ، ويعرف كيف ينبغى أن تصاغ الافتتاحية وكيف ينبغى أن يكتب المقال . ولعل أهم ما فى أعداد المجلة كلها مقال نقدى يرد فيه على مقال سابق لروفائيل بطى . والقارىء يحس احساسا قويا ، أن الزهاوى ما أصدر المجلة الا من أجل افحام خصومه ، بل من أجل هذا المقال المسلسل وحده ، ولعل بعض الصحف رفضت نشره نظرا لعنفه وانتشار تلاميذ الرصافى فى الصحافة ، وأصر هو على نشره . ومن أجل ذلك كانت بقية أعداد المجلة — بعد أن انتهت المقالة المسلسلة فاترة فتورا غريبا .

وتحت عنوان « رد على مقال روفائيل بطى » يقول الزهاوى فى مقالته : « أحللت نفسك يا روفائيل محل العارف بضروب الأدب وأحدث صوره وأخذت تعد لنا الموضوعات التى يجب أن

ينظم فيها شعراؤنا مما استظهرته من بعض الكتب الحديثة (العواطف والآمال ..) وأنكرت على أدباء العراق خوضهم اياها وتبريزهم فيها ، تحاملا منك على الحق ، وعداء لمن أقصاك عنه بعد أن عرف منك ما عرف كما هو معلوم للجميع ولكن الكلام وحده بدون ايراد الحجة لا يطفيء من غلتك ، فان كنت صادقا فى دعواك أن هناك — سواء فى الشرق أو فى الغرب — من نظم فى هذه الموضوعات فأجاد فيها أكثر من بعض أدبائنا ، فأورد لنا ذلك أو ترجمه لنا ونحن نورد لشاعرنا ما يدخل فى هذه الموضوعات ، وحينئذ يرى القراء رأيهم فيها ولكن الحقد يا روفائيل كالحب يعمى ويصم ، ولا أخالك فاعلا ، فقد عهدتك تهرب وتتخلص حينما يجد النضال . لا يكون الأديب يا روفائيل فى هذا العصر أديبا الا اذا فاز بسهم وافر من علم النفس وعلم الحياة وعلم الاجتماع وأنت لا فى العير من هذه العلوم ولا فى النفير ، ثم يجب قبل كل شيء على كل من يريد أن يكون نقادا للأدب العربى أن يجيد العربية ويكون له اطلاع واسع بقواعدها ولغتها وأنت الى اليوم لا تكتب مقالا الا تغلط فيه غلطات فظيعة ولتأخذ مقالك « ثلاث صور لشعر العراق الحاضر » مثالا ، فمن أخطائك فيه قولك « فاذا ما شام عوجا » وشام لا تستعمل الا فيما يلمع أو يشابه اللمعان ، يقال شام البرق وشام مخايل النجابة أما العوج فليس من ذلك ، وقولك « شنع به » وهو خطأ والصواب شنعه أو شنع عليه »[1] .

---

(١) الاصابة العدد الأول ١٠ أيلول ١٩٢٦ .

وينتقل الزهاوى بعد ذلك الى قصيدة الشاعر « علـى الشرقى » التى ضربها روفائيل بطى مثلا للشعر العصرى ، محاولا أن يدلل على تفككها واستحالة معانيها وامتلائها بالمبالغات والأخطاء اللغوية ، والمقالة هادئة حتى الآن ، ولكن ما أن يبدأ الزهاوى يرد على هجوم روفائيل بطى الموجه اليه شخصيا ، حتى نحس بحرارة الانفعال الوقادة . وهو يتحدث عن مكانته الأدبية الرفيعة خارج العراق فما بال الناقد يتحامل عليه ويرى أنه يريد أن يحظى بالزعامة الشعرية والأدبية بالكرباج ؟

« وهل بالكرباج جعل أدباء سوريا ومصر يحتفلون به تلك الاحتفالات الفخمة ، وجعل الصحف عـلى اختلافها فى أقطار الشرق العربى ، وحتى بعض صحف الغرب تطريه ذلك الاطراء الذى قلما حظى به شاعر فى هذا العصر ، أم هل بالكرباج نال فى حياته هذه الشهرة التى ابتسم ضحاها فى وجه الأرض شرقها وغربها واذا كان هناك كرباج فهو أدبه الجم وشعره الرائع وحججه الدامغة وهو القائل :

ساكت أنت والأعادى تقـول   ومضربك السـكوت الطويل

ما أثقل العبء الذى يحمله الزهاوى على عاتقه ، انه على شيخوخته وآلامه من الداء فى جسده يمشى بالأدب الى الأمام بين صفوف المناوئين له ، غير مبال بطعنات الحاقدين وجلبة الناقدين وحنق المحافظين ولعنات المتعصبين وشتائم الجاهلين فى ليل من الجهل أظلمت دياجيره وهدرت زوابعه ولعلعت بروقه ، يقذف بقنابل حججه ذات اليمين وذات اليسار فتنفلق وتمزق أحشاء حاسديه

حتى تذيقهم الموت الأدبى مرا . وتهد معاقل أعدائه حتى تجعلها قاعا صفصفا . برح الخفاء ولا تستطيع يا روفائيل أن تخدع الملأ بعد اليوم بانتصارك للقديم باسم الجديد فقد فندنا فى العدد السابق القسم الأول من مثالك وبينا زيف ما أوردته فيه نموذجا للأدب العصرى فاذا هو القديم بوجهه المتجعد وعينه الحوصاء وأنفه القذر بالمخاط وظهره المحدودب من ثقل العصور والأحقاب .. وانى بكتابتى هذه يا روفائيل لا أبتغى أن أفهمك مواقع زلاتك فانك لا تفهمها ، بل انما أريد افهام القراء مبلغك من العلم والأدب ، ولا غرو اذا كرهت أدب الزهاوى ، فانك تقدر الأدب بحسب درجتك منه والزهاوى كئيب لاطرائك بالأمس شعره فى (سحر الشعر والأدب العصرى) وجذل لذمك اليوم اياه فى الصحف » .

ولم يسكت روفائيل بطى على رد الزهاوى ، فقد كتب مقالين بجريدتى العراق والاستقلال يعلق فيهما على نقد الزهاوى ، ويستشهد بقصيدة للرصافى ليؤكد تخلف الزهاوى فى فهم معنى الشعر وفى الصياغة الفنية للقصيدة . وهنا يجد الزهاوى الفرصة سانحة للهجوم على الرصافى واصابته بسهامه الموجعة .

« ولو أنعم القراء النظر فيما نشره فى الاستقلال والعراق قبلا ، وفى الاستقلال أخيرا ، لوجدوا بونا بين الكتابتين ، وهو يدل على أنه نشر مقاله الأخير بعد تصحيحه بقلم أستاذه ، فان عثراته فى المقالات الأولى أكثر من أن تحصى وفى الأخيرة قليلة . ولكن هناك عثرات فى المعنى لم تصحح . ولذلك نراها بليدة

لا قرابة لها من المنطق — ومما يدل على أن الرجل لا يفرق بين القديم والجديد من الأدب انه أورد قصيدة الأستاذ الرصافى مثالا للأدب العصرى ..

« وان كان الأستاذ — يعنى الرصافى — صادقا فى دعواه أنه حرر نفسه ، فلماذا لا يمشى فى الطرقات عاريا طبقا لقوله فى قصيدته هذه :

اذا كان فى عـــرى الجسوم قباحة

فأحسن شىء فى الحقيقة أن تعـــرى

وهو البيت الذى يعده روفائيل لأستاذه ابتكارا لا يطيقه غيره ، ونحن لم نذكر ما ذكرناه الا ليعرف الناس تقرير روفائيل للأدب ، ومبلغه منه » [1] .

ولا يجد القارىء بعد ذلك فى المجلة الا بضع مقالات هزيلة ، ففى العدد الثالث مقالة عنوانها « حول الأخلاق » جـرت بين متحاورين أحدهما يرى القيم الخلقية فى تغير مستمر من عصر الى عصر فالشجاعة مهلكة والصدق سبب للعداء والكرم سفه ، وصب المجتمع فى قوالب أخلاقية يحول دون ظهور النوابغ . ويرى الآخر ان الشجاعة فضيلة خلقية والأمة التى لا تدرأ الأعداء عنها لا تلبث أن تنهار ، والصدق فى كل وقت حميد لأن الانسان اجتماعى فاذا لم يثق به الناس لكذبه لفظه المجتمع ، وليس معنى الجود الانفاق فى سفه ، وانما معناه اعطاء الفائض للمجتمع فى صـــورة تبرعات للمشاريع الخيرية التى تعود بالخير على المجتمع كله . والواقع ان

---

(١) الاصابة العدد الثالث ٢٤ أيلول ١٩٢٦ .

هـذه المحاورات الخلقية كان الزهاوى يقوم بتدريسها منذ تسع سنوات عندما كان محاضرا فى معهد المعلمين [1] .

ثم نجد فى العدد الرابع مقالة أخرى حول « خطر الجمود على اللغة » ويعرض فى هذه المقالة لرأى المحافظين الذى يخشونه خطر التوسع فى تلاعب الكتاب بها كما يشاءون ، ولكنه يرد بأن الفصحى متحولة عن أقدم منها وأخشن فهى عامية بالنسبة اليه . أترى الزهاوى اذن يؤيد العامية ؟ الواقع أنه اقترح هذا الاقتراح عندما كان عضوا بمجلس المعارف عام ١٩١٧ وكان محمود شكرى الألوسى زميله فى المجلس من أشد الثائرين عليه لهذا الاقتراح ، والذى يزعم أنه حل لمشكلة العامية والعربية [2] . والواقع أن هذه المشكلة أثيرت فى الوطن العربى كله على أساس أن العامية تقبل الجديد من المفردات الغربية بينما العربية لا تقبل الا فى حدود الصيغ والمشتقات الممكنة .

ومن قبل أثار قاسم أمين نفس المشكلة ، وكانت له فيها آراء ثورية ، فهو يرى فتح باب الاجتهاد فى اللغة كما كان يرى فتحه فى التشريع — لأن العربية كانت لغة العلم والأدب والفلسفة ومن أغنى لغات الدنيا — ولكنها وقفت مكانها زمنا فى الوقت الذى أخذت فيه اللغات تتطور وترتقى حتى أصبحت نموذجا فى السهولة

---

(١) من حديث بينى وبين الأستاذ الصراف وقد تتلمذ على الزهاوى فى ذلك الوقت واستمع الى تلك المحاضرات .

(٢) راجع أيضا مقالة (لغة الكتابة ووجوب اتحادها باللغة المحكية ـ المؤيد عدد ٦١٤٠) .

والوضوح . فاذا أتحنا للعربية أن تستوعب المصطلحات الأدبية الجديدة أثرينا اللغة ، واذا انتقينا من العامية الكلمات الفصيحة أو التى لها أصل عربى فصيح ، لم نحتج الى الاشتقاق والنحت ، فنحن خلفاء العرب وما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا [1] .

وهذه الفكرة كما هو واضح تنقسم الى قسمين القسم الأول خاص بتنقية الكلمات الفصحى أو التى لها أصل فصيح من العامية ، وهى فكرة لا بأس بها حاولها أحمد عيسى عضو مجمع اللغة العربية فى كتابه « المحكم فى أصول الكلمات العامية » وأتى فيه بذخيرة من الألفاظ كلها عربية أو من أصل عربى كما نخشى استعمالها لترددها على ألسنة العامة . وقد طبق المازنى ذلك عمليا فى مجموعات مقالاته مثل « صندوق الدنيا » و « خيوط العنكبوت » وغيرهما . ومن الحق أن هذه الكلمات ليست لها الايحاءات التى للكلمات الفصحى المكتسبة من عمرها الطويل على مدار الزمن ، ولكن لها دلالاتها القريبة التى اكتسبتها بدورانها على الألسنة فى أسلوب الحديث ، ومن هنا كانت صالحة كل الصلاحية لأسلوب الحوار فى القصة وفى المسرحية على وجه الخصوص .

أما القسم الثانى فهو خاص بفتح الباب على مصراعيه . واللغة العربية فى مرحلة اكتمالها قد أخذت من غيرها ، ولكنها حتى فى ذلك الوقت عربت أكثر ما أخذته وهضمته حتى صار بضعة منها .

---

(١) كلمات ص ١١ .

ومن المهم أن نذكر ان المترجمين فى أول القرن التاسع عشر قد عربوا المصطلحات الطبية والهندسية وغيرها دون أن يعنوا أنفسهم أو يجهدوها . ولو فتحنا هـذا الباب على مصراعيه لاضطربت أصول اللغة وقوالبها التى تكسبها شخصيتها بهذا التيار الوافد .

شفى الشاعر غليله وارتاحت نفسيته بعد أن أفرغ ما فى جعبته وبعد أن أخذ بأنفاس القراء حين هاجم الرصافى وتلاميذه ، فهل يقدر على الاستمرار فى جذب انتباه جمهوره ؟ أنه هو نفسه قد فقد حماسته ، فلم يستطع فى العددين التاليين أن يكتب شيئا فملأ فراغ الصحيفة بأحاديث عن بناء الكون والقديم والجديد ورباعيات الخيام .

وأحس الزهاوى بعد أن أصدر عدده الأخير يوم الجمعـة ١٥ أكتوبر عام ١٩٢٦ ان عدد القراء قد تناقص بشكل خطير ، وأنه غير قادر على مواصلة الكتابة وحده بهذه الصورة القاسية ، فلاذ بالصمت دون أن يودع حتى قراءه بكلمة ، وماتت المجـلة وهى ما تزال وليدة ، ولكنها أصابت خصومه بجراح شغلتهم عنه حينا .

صراع مع الرصافى

كان جميل الزهاوى يتقلب على فراشه أرقا متوجعا ، مع أن الفجر قد أوشك أن يغمر الحى بنوره ، ولكنه لا يهدأ . وكيف يهدأ أو تستسلم جفونه للنوم ، وهو يفكر فى تلاميذ الرصافى الذين يتكاثرون يوما بعد يوم ، بينما تلاميذه هو ينفضون من حوله ، الصراف والجواهرى وكمال ابراهيم وغيرهم ، ممن كان يعتبرهم أبناءه بعد أن حرمه الله من نعمة الأبناء ، وكانوا يردون سهام النقاد عنه ، واليوم أصبح شيخا محطما مهيض الجنــاح . ويل لكل شيخ أدبرت الدنيا عنه ، وعرف ما عرف هو من مرارة الوحدة وهو يصارع الحياة والأيام بيد مرتعشة وقدم مهيضة فلا يقوى عليها ، وكان منذ حين يصارعها فيصرعها بأيدى تلاميذه القــوية .

وتتدفق الذكريات على خاطره يزحم بعضها بعضا ، ثم تتوقف عند عام ١٩٢٣ ، يوم نشرت الناشئة الجديدة مقالا بقلم تلميذه السابق روفائيل بطى يمتدح فيه الرصافى ويزعم أنه أول من نظم الشعر القصصى ، ولكن تلاميذه يومئذ لم يسكتوا فهاجموا كاتب

المقال هجوما عنيفا . ولكن المجلة تعود فى عدد آخر أشد سخرية حين تكتب قائلة ان الزهاوى دعا الفيلسوف الألمانى اينشتاين الى المبارزة جذبا ودفعا ورباعيات ، ولا نخال اينشتاين يتهور فيقدم على هذه المبارزة لأن تلاوة رباعية واحدة كافية لصرعه فى حلبة المبارزة « ثم تذهب بعيدا فى التهكم فتقول ان لجنة الطب الأدبى قررت تلقيح الجرائد والمجلات بلقاح يقيها جراثيم الرباعيات ، وبأنجامعة أكسفورد قررت ترجمـــة قصيدة الزهاوى الفلكية لسيتظهرها الأساتذة المتخصصون . فيتصدى ابن أخيه ابراهيم أدهم الزهاوى ويهاجم روفائيل بطى ويقسو فى نقده لمحمود أحمد الذى زعم أن سرقات جميل الزهاوى كثيرة مفضوحة [1] .

ومن الحق أنه قد تأثر بآراء غيره من الشعراء ووقع عــلى بعض الأبيات الجميلة فى كثير من الكتب والدواوين التى قرأها ، فلم يفته أن يحاكيها [2] ، ولكن هناك فارقا بين التأثر والسرقة فحين يصبغ الشاعر العبارة القديمة بصبغته هو ، بعد أن تنطبع فى ذاته فتخـــرج وقد اكتسبت رداء من شخصيته فهو متـــأثر أما السارق فهو الذى يأخذ الفكرة بأكثر لفظها .

والذى يدمى فؤاده حقيقة أن ينقلب عليه ابن أخيه الشاعر ابراهيم أدهم الزهاوى . فقد انقطعت صلته به وأصبح يهاجمه

(١) الزهاوى الشاعر القلق ص ٣٥ .
(٢) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ ذكريات مع الزهاوى لكمال ابراهيم .

فى المجالس الأدبية ، ولكنه لا يقوى على كراهية أقرب النـاس اليه . أتراه أخذ عليه تردده بين الشك والايمان كما يدعى ؟ وهل هو نفسه قوى الايمان ؟ انه لا يكاد يفيق من أثر الخمر . لعل شخصية الرصافى التى أخذت تتدفق روافدها ، قد زعزعت فى طريقها كل الحصون ، أى والله كل الحصون . فكيف لا يؤرقه كل هذا البلاء ! ودارت به الذكرى مرة أخرى مع حلقات الدخان المتتابعة من سيجارته وهو يستعيد ماضيه القوى مـع الرصافى وابتسم وهو يقف أمـام بعض تلك الذكريات ويحـاول أن يستعيدها . تذكر يوم سأله الملك فيصل فى مجلس يضم أدباء بغداد عن رأيه فى شاعرية شوقى وكانت شهرة شوقى التى ملأت العالم العربى هى التى تؤرقه فى تلك الأيام لأن الرصافى كان ما يزال يثبت أقدامه فى ميدان الأدب ويضىء نجمه ولكن ليس بهذه القوة التى تعشى الأبصار فأجاب اجابة شفت غليله منهما معا : « ان تلميذى الرصافى أشعر من شوقى » .

لم يكن الرصافى وتلاميذه يقوون فى تلك الأيام على مجابهة نقده اللاذع ولا على اطفاء شهرته الواسعة كان الرصافى سلبيا يهرب أمامه ولا يقوى على أن يحرك شعرة واحدة مما بقى برأسه الأصلع ، مثلما حدث يوم أن أقام طلبة المدرسة الثانوية فى بغداد حفلا أدبيا دعى اليه هو والرصـافى حتى اذا حضرا ، طلب الى الأديبين أن يجلسا على كرسيين متجاورين ، فأدار ظهره للرصافى وأدار الرصافى ظهره له ، وأشاح كل منهما بوجهه عن الآخر ، حتى اذا طلب اليه أن يصعد الى المنبر ، أنشد قصيدته التى غمز

فيها الرصافى حين قال « وللشعر أعباء أقوم بها وحدى » ، فغضب الرصافى يومئذ وغادر الحفل محتجا ، وبقى هو وحده موضع التكريم .

كان يضيق على الرصافى الخناق فى كل مكان وتتحدث النوادى الأدبية بسرعة بديهته وقدرته على افحام الخصوم ، فهل خانته شجاعته وأذابت السنون كل طاقاته ، لماذا يثيره الرصافى الآن كل هذه الاثارة وما كان بقادر على شيء من ذلك قبل هذه الأيام ، حتى حين كان يرد فى المجالس لا يبعث غير الشفقة .

ولا شك أن الرصافى تصسه لم ينس يوم دعيا الى وليمة فتقابلا على منضدة واحدة وضع عليها الطعام المعروف باسم «بردة بلاوة» أو الأرز واللحم فبدأ يحفر الأرز من جانبه حتى سقط اللحم بالقرب منه ثم نظر الى الرصافى أمامه قائلا :

« عرف الخير أهله فتقدم » فضحك كل من فى المجلس ، وكان رد الرصافى مثيرا للسخرية حين قال « نبش الفأر رأسه فتهنم » .

لم يكن يستطيع الرصافى اذن الا أن يقف على معنى له فيدعى أنه سرقه من شاعر قديم مثلما حدث حين أنشده بعض الأدباء رباعيته التى يقول فيها :

أكثر الترب عظـــــام من ضـــلوع وصدور
سحقتها أرجل الدهــر وأقــدام العصـــور

فعلق عليها قائلا : « غفر الله لأبى العلاء فقد سطا على معانى

الزهاوى حين نظم قصيدته خفف الوطء » [1] ، وحين دفع بعض تلاميذه للكتابة عن سرقاته من الشعراء الماضيين .

يبدو أن الناس يهمها اثارة الخلاف بينهما ليملأوا فراغهم فى المجالس بنوادر الاثنين معا وبقصص خلافهما لأن الرصافى نفسه لم يكن من قبل شخصية سيئة فقد الف معه كتاب « الفجر الصادق » ، وأكبر الظن أن الرصافى لا ينسى أنه الذى أرسل اليه من الآستانة ليحضر وهو يتضور جوعا فى بغداد بعد أن عثر له على وظيفة لائقة ، فى جريدة « سبيل الرشاد » . [2] ولا ينسى الرصافى يوم كان يحضر المجلس بمقهى الزهاوى مع ابراهيم صالح شكر وعبد الرحمن البناء وغيرهم [3] اقد راحت أيام ، أضاعها الحاقدون بدسائسهم .

معروف الرصافى اذن ليس شخصية سيئة فقد صمت أربعة أعوام هو وتلاميذه لا يهاجمون ولا ينقدون حفل الصلح الذى أقامه الأديب محمود صبحى الدفترى فى داره على نهر دجلة . والرصافى حين أرسل الى الدفترى خطابه الذى يقول فيه : [4]

« ١ كانون الأول ١٩٢٨

سيدى الفاضل المحترم .

نظرت فى تكليفكم أمس فعز على أن أخالفكم فيه ، وما ذاك الا أنى أحترم شخصكم الكريم احتراما خاصا . فأنا موافق لكم

---

(١) شخصيات عراقية ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) معروف الرصافى لبدوى طبانة .
(٣) البغداديون أخبارهم ومجالسهم ص ٢٠٤ .
(٤) أطلعنى الأستاذ الدفترى على هذا الخطاب .

على ما تريدون ، ولكن بشرط أن يكون اجتماعنا فى داركم العامرة على الوجه الاعتيادى ، وألا يكون من الأستاذ الزهاوى ولا منى عتاب ولا خطاب ، بل نجلس ونتحادث بأحاديث المجالس حسب العادة .. فان وافقتم على هذا ورغبتم فيه فأنا نازل عند رغبتكم وان كنت كما قيل « فمكره أخاك لا بطل » أما اذا اختل الشرط فلى الحق حينئذ أن أترك المجلس وأخرج ، واذا منعنى الحياء من الخروج فلا أقل من أن يكون لى الحق فى الاستمرار على ما كنت عليه من قبل بعد انفضاض الجمع . هذا وتفضلوا بقبول دوام احترامى لشخصكم الكريم .

المخلص

معروف الرصافى

لم يكن يريد الرصافى اثارة ضغائن ، بل كان يقصد اعتبار الموضوع منتهيا . وقد انتهت الملاحاة فعلا عند هذا الحد ، ونعم كلاهما بسنوات هادئة بعض الشىء .

ولكن المثـــير حقـــا هو انصراف الجوهرى وكمال ابراهيم والصراف أقرب التلاميذ الى نفسه . وأخذ الشاعر يستعرض صلته بتلاميذه ، وتنكرهم له حينا . فها هو ذا الجوهرى الذى كان يلازمه كظله ويقضى معه أمسيات من أحلى ليالى العمــر يكتب مقالين متتابعين بجريدة العراق عنوانها « الشعراء المتقاعدون أو الرصافى والزهاوى فى الميزان » ، يستعرض فيهما كثيرا من

السقطات بأسلوب لاذع ، وكان الفراق [1] . وكمال ابراهيم ، ان صلته به ترجع الى عام ١٩٢٦ عندما كان كمال شابا صغيرا يحاول أن يثبت وجوده الأدبى كم جلس اليه فى داره تحت ظل شجيرات النارنج والبرتقال ينبعث منها صخب العصافير كان يجلس كما يجلس التلميذ الصغير الى شيخه الكبير وكله آذان تستمع الى ما يرويه أستاذه عن نفسه وشعره ومذهبه الأدبى فى التجديد وتفنيد مزاعم خصومه وهو معجب بنبرات أستاذه وأسلوبه الشيق فى التحدث الذى يقرب الى صوت الممثل .

ولكن هذا كله طوى فجأة وانتهت الصلة تماما حيث ألف كتابه الذى عرض فيه لما وهم فيه الشاعران الرصافى والزهاوى . فكيف للتلميذ أن يجرؤ على نقد أستاذه ؟ قد يكون له بعض العذر فلو خرج الكتاب مقتصرا على أخطاء الرصافى لظن أن كمال ابراهيم مدفوع الى تأليف كتابه بدافع شخصى ، ولكن هذا لا يشفع له [2] .

أما أحمد حامد الصراف فصلته به ترجع الى عام ١٩١٧ حين كان طالبا فى معهد المعلمين وانتدب هو لالقاء محاضرات فى الأدب والفلسفة بذلك المعهد ، كان تلميذه فى قسم الفلسفة ، وكانت بداية صلته به منذ أول محاضرة فى الأخلاق عن الصدق . كان يستمع الى أستاذه وهو يقول :

---

(١) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ « ذكريات عن الزهاوى » للجواهرى .

(٢) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ «ذكريات مع الزهاوى» لكمال ابراهيم .

« أنا لا أصطنع الصدق عن عقيدة دينية فقط ، ولكن اذا كذبت فقدت احترام الناس فبارت بضاعتى كلها » . ويومها قابله فى المقهى الذى اعتاد الجلوس فيه وأبدى اعجابه ، وربطت بينهما روابط العلم والأدب القوية ، ولم يفترقا منذ خمسة عشر عاما . حتى كان يوم طبع رباعياته سنة ١٩٢٨ وكان الصراف وصـــديقه محمد الهاشمى قد ترجما الرباعيات فأبى الناشر أن يقبلها بعد أن تقدم الزهاوى بها مترجمة عن الفارسية نثرا وشعرا . وغضب الصراف وكتب مقالة بجريدة العراق يتحدث فيها عن سرقات أستاذه من الشعر الفارسى ، من جلال الدين الرومى وجامى ونظامى وغيرهم ووقع المقال بامضاء « عبد القادر زين الدين » ثم جاء وعلى وجهه براءة الأطفال مدعيا أن كاتب المقالة لابد أن يكون روفائيل بطى ، ويومها كتب الشاعر مقالته القاسية التى هاجم فيها روفائيل مفتتحا اياها بقوله : « عاد روفائيل يدفعه لؤمه ، وعدنا يدفعنا حبنا .. » واتصل الصراف بالرصافى الذى كان مفتشا بالمعارف فى ذلك الوقت فأعطاه الرصافى تعليقه على الرباعيات موعزا اليه بنشرها باسمه ولكن الصراف كان أكرم تلاميذه خلقا ، فقد أبى أن يستمر فى خداع أستاذه فلم ينشرها ، وذهب الى الدفترى فأخبره أن الزهاوى عرف صاحب المقالة وغضب على تلميذه الصراف ، ولكن الدفترى وعد الصراف بأن يبذل جهده فى ارضاء الزهاوى ، وهو يعرف أنه لا يقوى على الكراهية ويعرف ضعفه أمام تلاميذه وأحبابه ، ان اعتذروا . وكان أن جلس الصراف فى طرف المجلس ، وحضر الزهاوى فلم يلتفت الى

تلميذه العاق » حتى انفض السمار ، وأقبل الصراف معتذرا يهم بتقبيل يد أستاذه ، فقام اليه أستاذه يحتضنه بعد أن صفا قلبه . ثم أطلعه الصراف على تعليقات الرصافى ويومها نشر مقالات عنيفة هاجم فيها الرصافى بجريدة الفيحاء الشامية .

كل ذلك كان قبل الصلح الذى تم بينه وبين الرصافى فى منزل محمود صبحى الدفترى ، ثم سكنت الحرب وهدأ لهيبها حتى أشعله الدكتور طه حسين عقب وفاة شوقى » حين بايع شعراء العراق بامارة الشعر . فطلعت جريدة « أبو حمد » لصاحبها عبد القادر المميز وهى تنشر فى صفحاتها الأولى خبرا مفاده أن وفدا من أدباء العراق ذهب الى الفلوجة ليبايع الرصافى بامارة الشعر . أمن الممكن أن يتم ذلك والزهاوى على قيد الحياة ؟ أليس من حقه أن يأرق هذه الليه وأن يتوجع ؟ لن يتم ذلك أبدا ، فما زال له بعض تلاميذه وأحبابه وشهرته ومكانته » ولا شك أن الخبر مكذوب أرادت به الجريدة أن تعيد الحرب التى سكنت ، فليكن لها ما تريد ولن يطلع الصباح حتى يجمع تلاميذه ويملى عليهم ما يكتبونه فى الصحف ، فوداعا للسلام . وداعا للسلام الى أن تتعادل الكفتان فلا يقوى تلاميذ الرصافى على كثرتهم على ترشيحه لامارة الشعر ، ويومها سوف يعتزل الحرب » فلم يعد فى طاقته حمل السلاح .

مع العقـــاد

لم يكد يفيق الزهاوى من صراعه المزمع مع الرصافى حتى وجد نفسه فى صراع آخر مع عملاق رهيب ، مع العقاد .. وكأنما قدر له ألا يعرف الراحة أبدا ، وتلك ضريبة الشهرة يدفعها كل موهوب من أعصابه ، ولكن خطورة هذا الصراع الجديد أنه مع العقـــاد ، ولن يكون محصورا فى العراق كصراعه مع الرصافى ، فهو فى مصر ، التى يعتز بجمهوره فيها ، فكم حدثه تلاميـــذه العائدون من مصر باعجاب شداة الأدب هنـــاك بشعره ، وشغفهم بالسياسة الأسبوعية من أجل قصيدته . [1]

كان ذلك فى أكتوبر عام ١٩٢٧ ، عندما كتب العقاد مقالا طويلا فى العدد الثالث والأربعين من البلاغ ، عن الزهاوى ، جـــوابا على سؤال لأحد الأدباء وكان العقاد عنيفا كعادته عندما يهاجم ، فقـــد أخرج الزهاوى من زمرة الفلاسفة والشعراء عندما قال : « الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفليسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحســـاب مع هـــذه الأشياء التى يحس بها ويدركها » . ثم نفى عنه الخيال والعاطفة

(١) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ (ذكريات مع الزهاوى لكمال ابراهيم) .

الا قليلا والبديهة بتاتا ، لأنه « يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ولا تنطبق فيها الأجفان ولا تناجى فيها الأحلام ، وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا ، ولكنها كذلك ليل وغياهب لا تجدى فيها الكهرباء ... وقد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل أن يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتممهما ويأخذ منهما لا ليلغيهما ويصم دونهما أذنيه . » أما الزهاوى فهو يحاول أن يلغى الخيال فلا يكون شاعرا ، ويلغى البداهة فلا يكون فيلسوفا ، ويظن أن الانسان لا يتصل بالكون الا بعقله ، حتى حين يسعى الى الحقيقة على جناح العقل، تخونه طريقه لأنه يسعى بجناح آخر هو الشعور . ثم دلل على ذلك بنظرية الدور التى نشرها الزهاوى فى كتابه « المجمل مما أرى » وحاول أن يفندها بقوله : « فالمنطق هنا يتكلم ولكن حب الحياة يحركه الى الكلام ، على أنه بعد منطق لم يمتزج بالحياة فى الصميم لأنه يتعزى بالعلم، والحياة لا يعزيها أن تعلم بأنها خالدة ، انما يعزيها أن تشعر بالخلود ... وما دامت الجواهر لا تتناهى والحركات لا تتناهى والفضاء لا يتناهى ، فالنتيجة أن تكون الأجرام بأشكالها لا تتناهى، ولا حاجة الى تكرارها وعودتها هى بعينها مرة بعد مرة الى غير نهاية » .

قرأ الزهاوى مقالة العقاد فانفعل انفعالا شديدا ، وهو يعلم عنف العقاد وجبروته ، وقدرته على الانتصار فى معاركه بأسلحته القوية ، وهو صديقه قبل أن يكون ناقده ، ولكن من الذى يقوى

على مهاجمة « الزهاوى دون أن يرد اليه سهمه » ، ان السكوت استسلام وخضوع :

ساكت أنت والأعادى تقول

ومضر بك السكوت الطويل

وطلعت السياسة الأسبوعية بعد أربعة أيام بمقالة تحت عنوان « رد على نقد الأستاذ العقاد للفيلسوف الشاعر جميل صدقى الزهاوى » : قرأت قبل أربعة أيام كلمة الأستاذ العقاد عنى ... وأنا يومئذ مريض . ولا أرتاب فى أن ماكتبه ، كتبه بدافع الحب للحقيقة يريد اظهارها للقراء . ولما كنت ولعا بالحقيقة أكثر من الأستاذ الذى يرجح للوصول اليها العاطفة على العقل والخيال على المنطق ، قرأت ذلك النقد على مافيه من اجحاف شاكرا له عنايته بى الى درجة أن يكلف نفسه كتابة مقالة طويلة عريضة عنى . وما كنت آمل فى يوم من الأيام أن يحشرنى الأستاذ فى زمرة الفلاسفة أو الشعراء ليؤسفنى اخراجه اياى منهما ، وقد دخل فيهما كثير من الناعقين ، ذلك لمخالفة مبدئى المادى مبدأه الروحى ، ولا يخفى ما بينهما من البون الشاسع ، فلم أستغرب رأيه فىّ . ولا بدع فى ألا يرانى من الفلاسفة أو الشعراء الذين يقرضون الشعر عن شعور تجيش به نفوسهم ، فحسب من لا أراه من الفلاسفة أو الشعراء الذين ينزعون فى شعرهم الى الحقائق أو العواطف القريبة منها . والظاهر أنه كتبها وقد أرخى العنان لعواطفه تبعا لمبدئه المفرط فى الروحية ، ولم يراع المنطق كثيرا ، بل أغمض عينه عن الواقع الذى هو أمامه » .

ثم راح يناقش آراء العقاد رأيا رأيا فالشاعر العصرى صاحب حقيقة وخيال وعاطفة لا يبعد بها عن الواقع المحسوس، والفيلسوف صاحب بصيرة يتحرى بها الحقيقة وحسب ، ولا شأن للبديهة فيه فالعقاد روحى يتشبث بأذيال الخيال وهو مادى لا يرى غير الحواس أبوابا للمعرفة ، مستثنيا معرفة ذاته ، ولا يأذن للخيال أو العاطفة أن يلجا باب الشعر الا اذا اطمأن الى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى يتغنى بها .

« وكان الجدير بالأستاذ أن ينقدنى مستندا على خياله وبداهته لا على المنطق الذى هو فى الدرجة الثانية بالنظر الى مبدئه . أما كون الخيال والبداهة قد خلقا للانسان فى بداءة نشوئه وذلك لما كان لا يتميز كثيرا عن الحيوان الأعجم ، فلم يسعداه فى حياته ولم يكشفا له أسرار الطبيعة ، فهو سندى فى استصغار شأنهما . على أنهما فى الحيوان أشد منهما فى الانسان ولم يستفد منهما ما استفاده الانسان من عقله الناتج من كمال مجموعه العصبى، على أن الغريزة أخذت تضعف فى الانسان بالنسبة الى الحيوان لاستغنائه عنها بالعقل ... والخيال قد يكون مقدمة لكشف حقيقة اذا كان يمثل المشهود ، وهو من عمل العقل فى بداءة ابتكاره ، لا صلة له بالغريزة ، غير أنى لا أجعله الركن الأكبر للفيلسوف أو الشاعر اذا لم يكن قريبا من المعقول المحسوس » .

ثم يحاول أن يسخر من الخيال حين يضرب المثل « بلندبرغ » الذى طار الى باريس فى تلك الأيام على جناح العقل كما يقول ويسأل العقاد أن يخبره أين وصل الذين طاروا بجناح الخيال

والعاطفة ، بقيت نقطتان أثارهما العقاد الأولى أن الحياة لا يعزيها العلم بالخلود ، فلا يسلم الزهاوى بهذا الرأى ، ويسأل مستفسرا : أى امرىء معدم علم أنه غدا سينال مليونا من الجنيهات مثلا ولم يفرخ ولم يبتهج ؟ أما النقطة الثـانية فهى خاصة بقول العقاد . « فما دامت الجواهر لا تتناهى والحركات لا تتناهى والفضـاء لا يتناهى ، فالنتيجة أن تكوين الأجـرام بأشكالها لا يتنـاهى ، ولا حاجة الى تكرارها وعودتها بعينها مرة بعد مرة الى غير نهاية ». وكأنما أحس أن العقاد قد تدخل فيما لا شـأن له به ، تدخـل فى اختصاصه هو برغم الثقافة الواسعة التى يتمتع بها العقاد فيجيب اجابة الواثق : « وهنا الخطأ الأكبر ، فان الكلام فى اشـكال كل جرم ، فهى متناهية لأن أجزاءه مهما كثرت متناهية ، ولأنه محدود بالفضاء فهو متناهى الحجم ، ولا يتصور وجود جرم غير متناه فى السعة ، واذا كان الزمان الذى يدور فيه الجـرم الواحد المتناهى الأشكال ، غير متناه ، فان كل شكل من أشكال ذلك الجرم يتكرر الى غير نهاية . »

وأحس الزهاوى أنه أرضى نفسه ، ودافع دفاعا قويا ، بل هو الى الهجوم أقرب منه الى الدفاع ولكن هل يسكت العقاد ؟ لا ، فقد رد فى العدد التاسع والأربعين من البلاغ الأسبوعى بأسـلوبه التهكمى حين يغضب ، بمقالة أخرى يقول فيهـا « يدهشنى من الزهاوى انه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنهـا المغنون وأولاد البلد حين يتشاكون جرح العواطف ... »

ماذا يصنع الزهاوى مع هذا الرجل ، أيرد مرة ثانيـة فيطول

اللجاج ، والعقاد قادر على النصر فى النهاية دائما ؟ أم يسكت ؟ كلا الأمرين مر ، ليس أمامه الا أن يرضيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لابد أن يرضى هو أولا ، فيكون أسلوبه عنيفا فى أول المقال هادئا لينا فى آخره « دهشتى ليست أقل من دهشة الأستاذ لأخطائه فهم ما أقصده على مافيه من ألمعية ... تعال أيها الأستاذ نتصالح على أن تقول أنت بالعقل والبديهة والخيال فى الحيوان كما فى الانسان، وأنزل أنا لك على فيلسوفيتى فتكون أنت قد أنصفت الفلسفة ، وأكون أنا قد استرحت من عبئها الثقيل ، وتكون قد أرضيتنى وأكون قد أرضيتك . أما شاعريتى فلا أنزل عنها بسهولة لأنى مارستها ومارستنى أكثر من نصف عصر ، فيعز علىَّ أن أفارقها فى آخر أيامى بل تترك الحكم فيها لجمهور الأدباء » .

فى مقهى الزهاوى

— أتحفظ شيئا من نوادر أستاذنا الزهاوى مع الشاعر الرصافى؟

— احفظها كلها ، انها مرة قاسية ، ولكنها ليست مقذعة مثل أهاجيه مع الشيخ رضا الطاليانى .

— انى أحفظ تلك الأهاجى التى رددتها النوادى الأدبية يوما ما ، برغم أنها تقرأ بالعينين ولا تلفظ بشفتين ، لقد أعادت لنا أهاجى جرير والفرزدق .

— لقد حضرت عربانة الزهاوى ، فيجب أن ننعم بليلة مرحة .

كان هذا الحوار يدور بين الصراف وأكرم أحمد وقد جلس الجواهرى وكمال ابراهيم وغيرهم من تلاميذ الزهاوى وأصدقائه فى انتظار وصوله ليبدأ السمر ، فما تعودوا أن يسمروا قبل وصول الزهاوى . وضحك الصراف فى خبث قائلا : لقد كنا نتحدث عن البعثة الأثرية ولكنا نسينا بعض أجزاء الحادث فهلا دريته يا أستاذ ؟

ونظر الزهاوى حوله يتفحص وجوه الجالسين ، حتى اذا آنس منهم الرغبة والتطلع ، وضع ساقه المهيضة فوق الأخرى ، وقد ظهرت الكيوة [1] الفارسية فى قدمه بدلا من الحذاء ، وابتسم الشيخ فظهر فمه الأدرد تحت شاربه الضخم وأخذ يسعل سعالا

(١) حذاء من الصوف السميك المشغول باليد .

شديدا قبل أن يبدأ حديثه بصوته الجهورى الذى يتوقف عند أواخر الكلمات فيفخمها أو يميلها .

« جاءت بعثة أثرية بريطانية الى بغداد فى العهد العثمانى ، وهى تحمل أوامر « المابين السلطانى » لتسهيل مهمتها فى التنقيب وبدأت تجرى أعمالها التى كانت موضع حديث الأندية والمجالس فى بغداد ، واتفق ذات مرة فى أحد تلك الأندية أن أخذ أحد الأشخاص يروى حديثا عن نشاط تلك البعثة وما تلاقيه فى أعمالها من متاعب ، وكان مما قاله ان البعثة عثرت أثناء قيامها بالحفر على قطعة حجرية قديمة عليها بعض العلامات التى تدل على أثر للكتابة فرح لها أعضاء البعثة وأسرع رئيسها يطلب قدرا كبيرا وأمر العمال بملئها بالماء ووضع القطعة الحجرية فيها ، وبعد ايقاد النار تحت القدر مدة طويلة تبخر الماء كله فتناول رئيس البعثة ملقطا ، وأخرج به ما بقى من هذه القطعة الحجرية فاذا بها جمجمة بشرية وسر الرئيس لهذا الاكتشاف فمسحها ووضع منظاره على عينيه وبدأ يحدق فيما كتب على ناصية هذه الجمجمة . والى هنا انقطع المتكلم عن الحديث ، فتساءل الحاضرون عما كتب ، ولكن المتكلم امتنع عن الاجابة ليستثير استطلاعهم ، فما كان منى الا أن صحت بأنى أعرف ماكتب عليها فاتجهت الأنظار الىّ مستفسرة ، وبعد الحاح فاجأتهم بأن ماكان مكتوبا على ناصية الجمجمة هو : « الا لعنة الله على الكاذبين » فضج الجالسون بالضحك .[1] »

---

(١) شخصيات عراقية ص ٧٢ .

واستثار ضحك الجالسين رغبة الزهاوى فى المرح ، فأتبع حديثه بفكاهة أخرى من تجاربه العديدة : ذاع عنى أنى أؤمن بنظرية النشوء والارتقاء وكتاب أصل الأنواع لداروين ، فدوهمت ليلة منذ سنوات من قبل رجل بغدادى أمى ، فاجأنى بقوله : أصحيح انك تقول ان أبانا آدم أصله قرد ؟ فارتعشت من الخوف، وأجبته مضطربا : لا يا بنى انه أبى أنا أصله قرد أما أبوك فهو آدم [1] .

وبين ضجيج الجالسين واعجابهم تطلع الزهاوى فوجد تلميذه « أبو حمد » — وكان سمينا — مقبلا نحوه فأنشد على الفور :

قد جاءنا أبو حمد يمشى كمشية الأسد
قد طابت القهوة لى صب ياولد صب ياولد

ثم تنبه المجلس الى أن الزهاوى سيتحدث فسكت المتكلم وأصغى المستمع وتهيأت النفوس للسرور الشديد :

« أرسلت الينا الدولة العلية — بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد — واليايسير بالعراق فى طريق العمارة والعلم ، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل . وكان لى يومئذ يد فى ادارة التعليم كما تريده الدولة ، فقال لى الوالى ذات يوم : انا نريد أن ننشىء مدرسة للبنات ، فابحثوا عن دار تصلح أن تكون لها مكانا . وكان تعليم البنت فى ذلك العهد أملا من آمال المصلحين — فقلنا أن الرجل رحب الباع فى الاصلاح ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة ، فكان كلما دخل دارا قال :

(١) شعراء بغداد ص ٣٦٣ .

ان الابصار تجرح البنات من هنا ، والاسماع تسرق الأصوات من هناك ، حتى لم يدع فى بغداد دارا الا عابها هذا العيب من طريق التوهم أو التخيل ، وظهـر من تصرف الرجـل أن به بلاهة ، فخطر لى أن أتداعب عليـه لأكشف حاله للنـاس فلا يستنيموا لحكمه ، فقلت له : أفندم لم يبق فى البلد كله الا مكان واحـد أرجو أن يقع من هواك موضع الرضى ، فقال : أمض بنا اليـه . فذهبت به الى (منارة سـوق الغزل) . وهى من آثار العباسيين نهب الناس المسجد من حولها وتركوها وصعدنا فوقها ، فلم تكد قدمه تستقر على شرفتها العليا وعينه تقع على سطوح بغداد وهى متطامنة تحت المأذنة حتى شهق من الفرح ، وصاح بملء فيه : لعم هذا هو المكان المناسب ، ثم نزل وفى نيته أن يتخذ الأهبة من المقاعد والأدراج ليفتتح المدرسـة ، فقلت له : مولانا ، لابد أن تجمع الناس قبل الافتتـاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فانهم سيئوا الرأى فى ذلك التعليم . ونجاح الأمر موقوف على أن يعتقـدوا فيك التقى والورع ، وسأدلك على أقرب الطـرق لتحقيق هـذا الاعتقاد . اذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان ، جلست انت فى الصدر وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف ، ثم تشعل « شبقك » [1] وتأمر كلا منهم أن يفعـل فعلك ، ثم تبتـدىء فتذكر الله بصوت موقع على ضربات كفك وانت تميل رأسك من الشـمال الى اليمين تارة ومـن الخلف الى الأمام تارة ، وأنا والحافون من حولك تتابعك فى كل كلمة ، وفى كل حـركة ، ثم

(١) الغليون الطويل .

حاول أن تأخذك الحال ويستخفك الذكر ، فكلما أزبد الفم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج الدم ، كان ذلك أحمل للناس على أن يعتقدوا فيك الولاية ، فتقودهم صاغرين الى ماتريد . وصدق الوالى كل ماقلته له تصديقا لا تتخلله شبهة وجاء يوم الجمع واحتشد الأعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالى .

وجلس الباشا وأنا بجانبه وشيوخ المعارف من حوله ، وأمر فأشعلت الغلايين الطويلة ، وأخذ يذكر ويترنح وأنا أرسم له ، والشيوخ يذكرون معه ، ثم غمزته بعد حين فتهور وتطور وأرغى، وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلى فقرعت غليونه بغليونى ثم أخذت بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع ففعل بى مثل ما فعلت به ، وأخذنا نتدحرج على البساط فمرة أكون فوقه ومرة يكون فوقى والشيوخ يعجبون بالذكر ، والناس يضجون بالضحك ، وأنا والوالى قد ملكتنا حميا الولاية فدخلنا فى صراع عنيف لم يخرجنا منه الا انقطاع النفس . فجلسنا مسترخين نلهث من الاعياء وكلانا ينظر الى صاحبه نظر الديك المنتوف الى الديك المهيض . » (1)

— وما رأيك فى محمود الربيعى يا أستاذ ؟ أراد الصراف أن يستثيره وهو يعلم مقدما رأيه فيه .

— ان ببغداد ثلاثة رجال امتازوا بقوة الكذب ، أولهم محمود الربيعى والثانى وهنا أبصر قريبا للثانى الذى يعنيه — فتدارك الأمر بأن قال : جميل الزهاوى ، واستغرب

(1) وحى الرسالة المجلد الثانى ص ٨٢ وما بعدها .

الجالسون ثم سألوه : ومن الثالث ، وهنا أيضا أبصر أحد أقرباء الثالث فقال : والثالث جميل الزهاوى أيضا . فضحك المجلس وعرف الثانى والثالث [1] .

كان الزهاوى يروى ويقلد وهو يمثل ويقوم بحركات تقيمه وتقعده ، وتدفعه بعيدا عن كرسيه فى وسط المقهى الحاشد ، وبمرأى ومسمع واعجاب الجميع . وهو بين الحين والحين يمسح قطرات العرق التى تتصبب على جبينه وتوحى بشيخوخته برغم شباب قلبه وقوته أيام صباه ، تلك التى كان يتحدث عنها مفاخرا، وفجأة التفت الى الجواهرى ليقول له وقد قطع حديثه :

— « أفندم تتراهن ؟

— على أى شىء يا أستاذ ؟

— على أن أقطع نفسى وتقطع نفسك والساعة حكم بيننا

الشيخ الزهاوى على وقاره ومكانته ، والجواهرى الشاب وفى مقهى حافل ، وعلى منضدة تتوسطهما وقد وضعت ساعة فى وسطها ، وكلاهما يبدأ باشارة ليقطع نفسه . وتطلعت العيون اليهما ، وحبست الأنفاس وانتفخت الأوداج والعروق واحمرت الوجنات وجحظت العيون ، وابتدأت ثوانى الساعة تمر بطيئة متكاسلة . وأخيرا يستسلم الشاب ابن السابعة والعشرين بكل حيويته وقوة قلبه ويأخذ النفس وهو يثب على كرسيه ويقول : يا أستاذ كفاية . لقد كسب الزهاوى ابن السبعين الرهان . واستأذن الزهاوى فى الانصراف ، ونادى على النادل « يا ولد ،

---

(1) شعراء بغداد جـ ٢ ص ٣٦٣ .

تعال خذ فلوسك » وأسرع النادل وكان الحساب بالآنات الهندية — فعد الجالسين واحدا واحدا ليدفع عنهم آنة آنة مستثنيا من يكرههم أو يكرهونه ، صنع ذلك بتحد يبين فى ومضات عينيه وفى خلجات وجهه ، ولم يستطع واحد من هؤلاء المساكين أن يعترض، ولماذا يعترض ؟ انه رجل يدفع حسابه ، ويالفظاعة المنظر حين يدخل كل منهم يده فى جيبه ويدفع عن نفسه . » (١)

انصرف الزهاوى وانفض السمار ، وبقى بعض الجالسين يتحدثون عن الشيخ الطروب الذى أخرجته احدى نكاته من مجلس الأعيان ، يوم كان المجلس يناقش ضريبة الدخان أو التتن بلغة العراقيين ، وقام الزهاوى ليقول ان الحكومة تريد فرض الضريبة من قلة التتنات (٢) ، وثار يومها الملك فيصل وكانت فكاهة الشاعر الحادة ، نهاية عهده بمجلس الأعيان .

---

(١) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ ذكريات عن الزهاوى للجواهرى .

(٢) يقال جل قلت تتنساته — بلغة عامة العراق — أى أصيب بضعف جنسى ، فهو يريد أن يسخر من ضعف الحكومة (راجع الزهاوى بين الثورة والسكوت ص ٦٧) .

المهرجان

كان ذلك عام ١٩٣٤ ، يوم أوفدت العراق شاعرها الزهاوى وتلميذه أحمد حامد الصراف ممثلين لها فى مهرجان الشاعر الفارسى « الفردوس » والتقى الشاعر بتلميذه فى بغداد قبل الرحيل ، وكان الصراف نائبا عاما بالبصرة فى ذلك الوقت هجر بغداد وترك أستاذه منذ أكثر من عام . ولكن الزهاوى لم يرض أن يكون فردا من أفراد المؤتمر ، فاتصل بالسفير الايرانى « سميعى » قبل سفره ، وطلب منه سيارة خاصة له ولزوجته واتصل السفير تلغرافيا بمحافظى المدن التى سيمر فيها الفيلسوف الشاعر ، ثم وصل الزهاوى وحده قبل سفر أعضاء المؤتمر .

ومر الشاعر فى طريقه الى طهران « بخانقين » وهى مدينة صغيرة على حدود العراق ، وعلى الجادة القديمة الى خراسان ، يمر بها نهر « الوندجاى » وهو نهر حلوان الذى تقع عليه « نخلتا حلوان » الشهيرتان فى كتب الأدب . أطياف من الماضى الأدبى تمر بالمرء وهو يعبر هذه الأماكن ، ولابد أن الشاعر قد تذكر أبيات الشاعر التى يتحدث فيها عن الفراق ويغبط النخلتين ، وتذكر القصة التى تحكى أن هارون الرشيد قطع احداهما ليأكل

ثمارها ، فلما ذكروا له الأبيات تأثر وقال : لو سمعتها من قبل ما قطعت احداهما .

وهذا النهر فرع من نهر ديالى أحد روافد دجلة ، وعند المدينة قنطرة كبيرة من آثار الساسانيين . ثم مر الشاعر « بقصر شيرين » وهى أيضا مدينة صغيرة على طريق خراسان ، سميت باسم القصر الذى بناه كسرى برويز لامرأته شيرين ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة الى الشمال والشرق من المدينة ، ولاتزال الاساطير تسمع فى هذه الخربات عن كسرى وشيرين وعشيقها فرهاد . ومن قصر شيرين سار الى كرمنشاه ، فمر فى طريقه اليها بقرية ذهاب ، ثم صعد فى جبل شامخ فسيح فلبث بين قممه وشعابه برهة ، ثم انبسط السهل الى قرية « ركوند » وهى خضراء شجرة ، ثم قرية شاه أباد ، واستمر به المسير فاجتاز جبالا أخرى الى كرمنشاه ، وهى مدينة عامرة يسقيها نهر « قره صو » تلك الأماكن التى عمرها من قبل شاعر العربية الكبير أبو الطيب المتنبى ، وجذبته الطبيعة فيها فتغنى بشعب بوان ، وهو الذى لم يتعبد من قبل فى محراب الطبيعة ، ولاشك أن الزهاوى الشاعر قد انفعل بالطبيعة هناك ، ولكن كل شعره الذى قاله فى تلك البلاد التى مر بها كان بالفارسية ، وألقاه فى الندوات الأدبية التى رحبت به على طول الطريق ثم ضاع مع شعره الذى نظمه بالفارسية ولم يحفظه التاريخ . ومر بعد ذلك الشاعر بكنكاور بعد ساعتين من كرمنشاه ثم قرية أسد آباد ، وهى قرية جمال الدين الأفغانى ولا يستطيع المرء وهو يمر بها

أن يملك نفسه من الانفعال وهو يتذكر الأسد الذى لم تحطمه الأيام ، الثائر الذى باع عمره من أجل الوحدة الاسلامية التى كانت هدفا يحلم به ، ولم يتحقق حلمه برغم حروبه المتصلة مع الاستعمار ومع المستبدين من الملوك ، واشعاله لنيران الثورات فى كل مكان . كثيرون من المكافحين لم يحققوا أحلامهم الكبيرة ليس الزهاوى وحده ، ولكنهم جميعا سوف يذكرهم التاريخ حين يسجل خطوات التطور الذى قطعته الانسانية ، فلن تذهب أرواحهم هباء ، ولن يخسروا الحاضر والمستقبل أبدا .

ثم عبر الشاعر الى « همذان » الجميلة فى حجر جبلها الأشم — الوند — تبدو فى زينة من أشجارها ، هذه بلدة بديع الزمان، وهنا — رقد الشيخ الرئيس ابن سينا ...

حتى اذا وصل الشاعر طهران ، حلّ ضيفا فى دار آمر الأمراء، ولم ينسى تلميذه الصراف ، فأرسل فى طلبه ليكون معه فى نفس القصر . واكتمل عقد المؤتمر اثنان وأربعون من ممثلى الأمم المختلفة ومثلهم من الايرانيين ، وكانت أيامه خمسة عشر يوما من الأربعاء ٣ اكتوبر الى الثامن عشر منه . وبدئت أعمال المؤتمر بمدرسة دار المعلمين ، فى بهو فسيح وضعت فيه مقاعد كثيرة ، صفوفها الأولى لأعضاء المؤتمر والأخرى للحاضرين من غيرهم ، ووضع فى صدر المكان تمثال الفردوس وافتتح المؤتمر « فروغى خان » رئيس الوزراء فشكر الوفود على تجشمهم الحضور

وتمثل بقول سعدى الشيرازى : « ان السفر لا يطول على قاصد الحبيب » ، ثم اعتذر عن الاطالة ليترك للعلماء القاء كلماتهم .[1]

وكان من بين هؤلاء الأعضاء عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادى وبلاشير ودرنك ووتر واسفنديارى ومينورسكى الروسى الأبيض وأستاذ الأدب الفارسى بجامعة كيمبردج ، وكان من قبل سفيرا لبلاده فى ايران . فانتخب اسفنديارى رئيسا للمؤتمر ثم قام البروفيسور مينورسكى ، واقترح أن يفتتح الشاعر الزهاوى مؤتمر الفردوس ، لأنه أكبر الأعضاء سنا ، وأوسعهم شهرة ، وأوفرهم اطلاعا على الأدب الفارسى .

ووقف الزهاوى ليلقى قصيدته التى أعدها باللغة الفارسية[2]، وبطريقته الخاصة فى صوته وحركاته واشاراته وانثناءاته ، حتى كاد يسقط على المنبر مرات :

بلغوا سلامي الى أبى القاسم الفردوسى
وبعد أن تحملوا له تقديرى الكبير أخبروه
وقولوا له أيها الشاعر الذى واراه التراب
وغاب عن العيون ، وفارقته روحه السمحة
لا تقل أنا ميت ، وان كان جسمك قد فارق الحياة

---

(۱) راجع رحلات عبد الوهاب عزام ـ القاهرة ـ ١٩٣٩ (ص ١٠٤ ـ ١١٣) .

(۲) ترجم لى القصيدة الأستاذ أحمد حامد الصراف .

فأنت فى الحقيقة حى ّ فى قلب الدنيا كلها [1]

لم يعرف قدرك الغزنوى

فليتعلم درسا من الشاه البهلوى

وجلس الزهاوى بين تصفيق الحاضرين واعجابهم الشديد . وكان لابد أن تذهب الوفود بعد ذلك الى طوس حيث قبر الفردوسى ، ولكن الزهاوى بقى فى طهران معتذرا بكبر سنه وبمشقة الرحلة .

وحين وصلت الوفود الى طوس ، حضر الشاه ، فاصطف الحاضرون استعدادا لاستقباله . وسار الشاه مسلما على الوفود، وحين بلغ الصراف سأله عن الحكيم الزهاوى فأجاب معتذرا عن ضعف صحته ، فطلب اليه أن يبلغه تحياته والسؤال عن صحته . وأرسل الأستاذ الصراف تلغرافا بهذا المعنى الى الشاعر الزهاوى وهنأت الوفود الصراف بهذا التقدير للشاعر الكبير .

وعادت الوفود ، وعاد الصراف فلقيه الزهاوى وسأله عن التلغراف ، فأعاد الصراف القصة مرة ومرات ، ولكن الزهاوى الذى يبلغ اعجابه بنفسه حد الجنون ، لا يطلب له أن يسمع القصة على هذا النحو ، وانما يطيب له أن يتمثلها كما حدثت ويتمثل أثرها فى وجوه الوفود ، ويتمثل تقديرهم له ومنزلته الكبيرة . فيقول للصراف ، هب اننى الصراف وأنت الشاه ، فقص

---

(١) الملك الثرى نكص وعده ولم يعط الفردوس مكافأته التى وعده بها حين نظم الشاهنامة .

على سمعى ما حدث مرة أخرى ، وظل الصراف يعيد القصة حتى مل [1] .

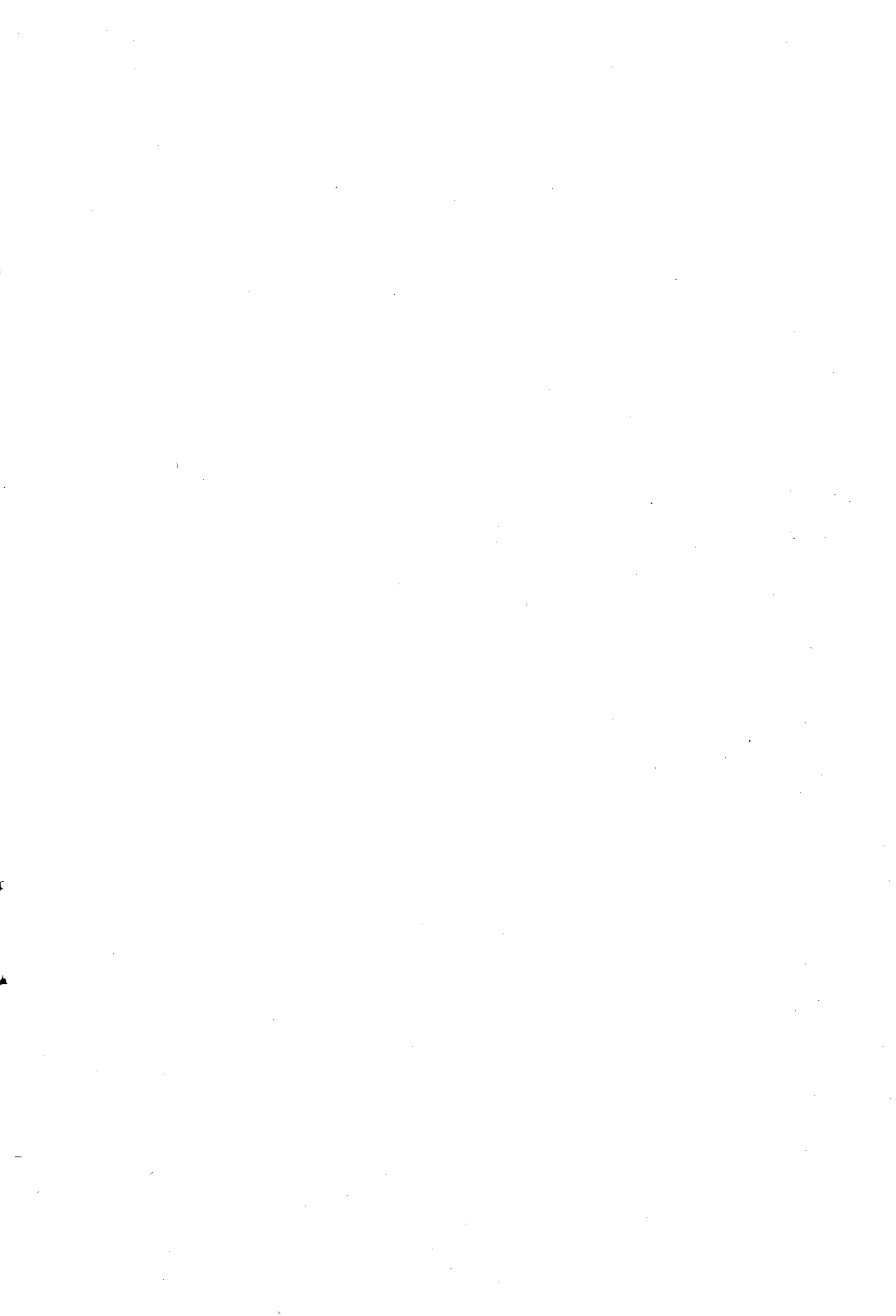
ثم آن للوفود أن تعود الى بلادها ، وآن للشاعر أن يعود الى بغداد ، وقد لقى من التقدير ما عوضه عن حياة الضياع ببغداد ، عاد يحمل اجلال الوفود له وساما على صدره لم يفارقه زمنا .

---

(١) رواية الأستاذ محمود صبحى الدفترى .

الباب الرابع

الحكيم



الفيلسوف

— لم أدهش لمقالة قرأتها مثلما دهشت لمقالتك المنشورة بالمقتطف تحت عنوان « مثل أرضنا فى السماء » ، انك تضع نظريات غريبة على تفكيرنا .

— لم أقل أكثر من أنى أعتقد فى كل أرض مشابهة لأرضنا ، ان انسانا مثلى وآخر مثلك وآخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى أرضنا . وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا فى حالتها الحاضرة ، وبعضها أخذت تهرم وبعضها فى بداية تآلفها ، فاذا مات الانسان فى أرضنا فهو يولد فى غيرها من جديد ، لأن هذه الأرضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير متناهى العدد وهو بعد الدهور الطويلة يتولد فى هذه الأرض نفسها بعد تجددها .

— ولكن ما الفائدة من هذا التكرر وهو لا يتذكر ما مر به فى أدواره الأولى ؟

— أن فائدة التذكر هو العلم ، فاذا حصل لنا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالتذكر وكفى به نفعا أنه يطمئن الانسان أن موته ليس أبديا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة : الأول ، أن العالم بما فيه من الاجرام غير

متناه ، والثانى أن اللاشيء يذهب الى العـدم ، بل ينحل تركيبه الى الأثير بعد تطورات متعددة ، ثم يتركب من جديد بعد تطورات متعددة أيضا . والثالث أن جواهر كل جرم متناهية العدد والانسان جزء متمم لشكل الأرض الحاضر فهو أيضا يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاما ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدورى الأعظم .

— اذا سلمنا بهذه النظرية وهى لاشك موضع جدل ، لأنها أشبه بنظرية تناسخ الأرواح التى يقول بها بعض العلمـاء دون دليل حاسم أيضا ، فكيف نسـتطيع أن نسلم بنظريتك الأخرى التى تخالف فيها أينشتين وهو من أكبر العلمـاء التجريبيين ، فى العالم ؟ .

— لا تغتر بنظرية أينشتين النسبية حين يقول ان الانحنـاء فى الفضاء المجاور للاجرام كبير ، فاذا تحركت الاجسام فيه نحسبها تسقط عليها فأن ذلك قد يرى وجيها لتعليل حركات الأجسام ولكنه لا يعلل ثقلها ، فان الجسم بعد سـكونه غير متحرك فما هو سبب ثقله المحسوس وما مناسبة هـذا الثقل بأنحاء الفضاء ، ويجعل أينشتين أبعاد الجسم أربعة ، الطول والعرض والعمق والزمان وهو ما يسميه البعد الرابع والحقيقة ـ أن الزمان سكون تتخلله الحركات . فاذا تحرك جسم فى مسافة طولها ستون مترا ، وفرضنا أنه يقطع فى كل ثانية مترا فلا محالة أنه يقطع المسافة فى دقيقة واحـدة واذا ضاعفنا سرعته فجعلناه يتحرك فى كل ثانية مترين فانه

يقطعها فى ثلاثين ثانية . وكان الواجب أن يقطع الجسم المسافة عينها فى لا شىء من الزمان اذا زدنا سرعته ضعفا آخر غير الذى زدناه أولا ، فجعلناه يتحرك فى كل ثانية ثلاثة أمتار لأن الضعف المزيد أولا قد أكسبنا ثلاثين ثانية فلا مانع من أن يكسبنا الضعف المزيد ثانيا مثله ، فيقطع الجسم المسافة من غير زمان ولكن المشاهد خلاف ذلك فانه يقطعها على هذه السرعة الأخيرة فى عشرين ثانية . ذلك لأن الحركة مهما اشتدت فلا تخلو من السكنات التى تتخللها ، وقد شاهدنا أن الزمان يقل بالسرعة ويكثر بالبطء فالزمان اذن هو السكون .

— الواقع أن العلم ليس وليد التأمل كالفلسفة ، ولكن جرأتك على أن تدخل ميادين البحث التجريبى ، وقدرتك على الاقناع يجعلنى أزداد اكبارا لك بالرغم مما تلغط به الناس حول خطأ أو صحة هذه النظرية .

— ان كثيرا من الحقائق قد رفضه العلماء فى ابانه وسخروا من أصحابه ثم تأيد أنه الحق وكنت أود أن يرد المنكرون الحجة بالحجة . فأنت تعرف نظريتى فى الدفع والجذب التى نشرها المقتطف وطبعتها فى كتاب مستقل أنكرت فيه جذب المادة ورأيت أن المادة تدفع المادة بما تقذفه من الالكترونات السريعة الحركة وبنيت على هذا رأيى فى السيارات ، فالأرض لم تنفصل عن الشمس ، بل أعتقد أن الشمس كانت سيارة تدور مع غيرها حول شمس أخرى ثم لما كبرت

بما ابتلعته من الأثير فى ربوات السنين صارت شمسا وبعدت بطول الزمان عن مركزها الذى كانت تدور حـوله بسبب دفع ذلك المركز لها كما دفعت الشمس « نبتون وأورانوس وزحل والمشترى » وبقية السيارات فأوصلتها الى الأبعاد التى تدور فيها حولها . وكانت الأرض وبقيـة السيارات أقمارا لها قد أتتها من الخـارج بدفع الأثير ، فلما ابتعدت عن مركزها وصارت شمسا صارت أقمارها هـذه سيارات لها . وقد قارب المشترى لزيادة نموه أن يكون شمسا فقد اتفق العلماء على أن سطحه ذائب من شدة الحرارة وكذلك زحل قريب من الحالة الشمسية .

— ان نظرية الجاذبية التى يقول بهـا العلمـاء تثير كثيرا من الاعتراضات . فالعقل لا يتصور قوة تنفصـل عن الجسم فتصل الى آخر فتجذبه الى الجسم نفسه بل المعقول أن كل قوة اذا صدمت جسما تدفعه . وليت شعرى ماذا تفعـل هذه القوة بعد الجذب أتعود الى معدنها ، أم تذهب صعدا لتقتنص جسما آخر ؟

— ان نظريتك أيضا تثير الكثير من الاعتراضـات ، فالجذب الكهربائى والمغناطيسى حجة عليك .

— لا ، فمبدأ الدفع تتوجه به أقسام الجاذبية كلها وذلك دليل على صحته .

فالسالب والموجب يتحدان عند تلاقيهما فيطردان الأثير من بينهما فيجرى طلبا للموازنة ويدفع كلا من الجسـمين الى

الآخر واما اذا كانا سالبين أو موجبين فانهما لا يتحدان عند الملتقى ، بل يدفع كل منهما الجسم الآخر وقل مثل ذلك فى المغناطيسية والاتحاد الكيماوى .

— ولكن هذه النظرية على خطورتها قد نشرها المقتطف فلماذا لم ينشر نظريتك فى « البصر والنور » ؟

— لقد أرسلت تلك النظرية مع صـــديقى المستشرق الشهير مرغليوث والظاهر أن الدكتور يعقوب صروف رآها تخالف ما أقره علماء الغرب الذين يثق بهم فحسب أنها من خيالات الشعراء ولم يكلف نفسه اعادة تجاربى كلها أو بعضها . والواقع أن علماء الفسيولوجيا والطبيعة لم يوفوا تعليـل البصر حقه . وقد كان للطمة أحد الصبية لى وأنا طفل أثرها فى تفكيرى وتجاربى فى هذا الموضوع .

— الذى يشغلنى حقيقة هو أنك شاعر وفيلســوف ، فما صلة هذه الدراسات التجريبية بالتأمل ؟

— انى لا أتوقف عند هذه الدراسات التجريبية ، بل أحاول أن أستفيد منهـا فى ميـدان التأمل الفلسفى ، وهل كان من الممكن أن أفكر فى الجمهوريةالمستقبلة تفكيرا سويا الا بعد مثل هذه التجارب والدراسات ؟

ان تصورى لجمهورية المستقبل يخالف فى بعض الوجـوه جمهوريات عصرنا وما تقدمها . وهـذه الجمهورية مبنيـة على المساواة بين الناس فى الحاجيات مع بقاء التفاضـل فى

الجاه والمنزلة وهى جمهورية طبيعية اقتبستها من جمهورية خلايا الجسد .

— ظننتك قد تأثرت فيهـــا بالثورة الفرنسية [1] ، فما هى جمهورية الجسد ؟

— غير خاف أن الانسان كالحيوان والنبات مؤلف من ربوات من الخلايا اداراتها جمهورية فقد قسمت بينها الأعمال وأناطت كل عمل بطائفة كبيرة منها متوخيـــة فى ذلك أن تقوم كل طائفة بالعمل الذى تحسنه . وأهم هذه الخلايا هى خـــلايا المجموع العصبى فهى فى الجســـد بمثـــابة رجال السياسة والعلم وفيهم المهندسون والأطبـــــاء وغيرهم من أصحاب الأعمال العقلية ، وهناك أعمال دون هذه الأعمال كالحركة وتوزيع الدم والتنفس الى غير ذلك من ضروريات الحيـــاة لبقاء الفرد والنوع تقوم بها خلايا هى بمثابة العمال . وهذه الجمهورية توزع على الخلايا كافة ما تحتاج اليه من الغذاء على السواء ، سواء أكانت راقية كخلايا المجموع العصبى أم لا كخلايا بقية الأعضـــاء ، وذلك هو الدم الذى تحمله الشرايين اليها نقيـــا صافيا ويعود حاملا الأكدار بواسطة الأوردة . وفى هذه الجمهورية تشبع كل الخلايا ، فلا يتضور القسم الأكبر جوعا كما هى الحـــــالة اليوم فى المجتمع البشرى .

---

(١) الفكر العربى الحديث ص ٥٨٤ .

وقد ارتبطت أصقاع جمهورية الجسد بنوعين من الأسلاك التلغرافية أحدهما للحس والآخر للحركة هى الأعصاب المزدوجة المتفرعة من الرأس التى تمثل مركز الجمهورية . وفى الدم جيش ضخم من الكريات البيضاء وظيفته محاربة الميكروبات الغازية لهذه الجمهورية . فأتصور امكان تأليف جمهورية على شاكلتها تقسم الأفراد بحسب استعدادها الى أقسام وتعين لكل أحد وظيفته فى قسم فلا يتعداها الا اذا أثبت أهليته لما فوق ذلك القسم . وتلغى قيمة النقود وتنزع الأملاك من يد ممتلكيها وتبطل وراثة المال وتطعم أفراد كل قسم فى مقابل العمل ، وتؤلف لجانا لاحضار مواد الطعام وآخر لتوزيع ما يحتاج اليه أفراد هذه الجمهورية من الطعام والشراب والثياب على قدر حاجتهم ، ولجانا أخرى لبقية الحاجات . فحينئذ تزول الجنايات التى تسببها الحاجة والجوع ، ويسعد الناس .

وفى هذه الجمهورية يمتاز القسم الراقى عن بقية الأقسام فى الاعتبار والمنزلة والجاه وهذا الامتياز كاف لتوليد الرغبة فى الاحترام لمن لهم استعداد له فلا يبقى المحذور الذى يورده المحافظون على الاشتراكيين من أن التساوى يميت الرغبة فى الاختراع والاكتشاف . وليس هناك مانع لجعل طعام القسم الراقى أتقن من طعام بقية الأقسام وثيابهم أظرف لأن المطلوب هو التساوى فى الشبع على وجه لا يبقى معه جائع ، والجمهور لا يستاء من هذا الفرق ، لعلمهم

بأهمية وظيفة هذا القسم الساهر على راحتهم . واذا أثبت أحد أهليته للقسم الأعلى ترفع درجته . ولا ضير فى أن يكون الزوج فى قسم والزوجة فى آخر والا كان الأمر مثارا للتذمر والنزاع بل يناط الزواج برضى الطرفين والفراق برضى أحدهما أيا كان اذ لا يجوز أن يرتبط الانسان بآخر وهو يكرهه .

هذه هى جمهوريتى التى أتخيلها ولا أرى من مانع عن تأليفها الا معارضة أهل الاثرة فانهم لا يريدون أن ينزع منهم ما امتازوا به من النعيم الذى يرتعون فيه ، عدا خوفهم من أن يسجلوا فى القسم الثانى أو الثالث لريبهم فى مقدرتهم العقلية (١) .

كان هذا الحوار يدور بين جميل الزهاوى وبين صديقه محمود صبحى الدفترى ولم يكن شاعرنا رحب الصدر مع أقرب الناس اليه حين يناقشونه مثلما كان مع صديقه الدفترى ، لمكانته الاجتماعية ولحبه له ذلك الحب الذى جعله يتردد على مجلسه مساء كل جمعة فى أعوامه الأخيرة ، فهناك كان يلتئم شمل العديدين من الأدباء .

---

(١) المجمل لما أرى ص ٦ ، ٢٦ ، ٦٦ .

الشعر الهادف

كان مجلس الأمير على بن الحسين قد اجتمع كعادته ، منذ أن لجأ الأمير الى شقيقه فى بغداد ، وكان أكثر ما يدور فيه من حديث ومناقشات حول الأمور الدينية والفقه الاسلامى ، التى كان يطيب للأمير أن يستمع اليها ويسهم فيها . ولكن الأمير فى هذه المرة على غير عادته يبدو متجهم الوجه ، ولم يكن ما يشغل باله مشكلة فقهية ولكن ما يكدره شىء اخر هو ذلك الشعر الثائر الذى ألقاه فى المحافل الأدبية جميل الزهاوى شاعر العراق الكبير . فهو يعلم قدرته على أثارة الجماهير وامتلاك مشاعرها حين ينشد شعره ويخشى عاقبة هذا الشعر الجرىء . وهو لم ينس بعد قصيدته التى ألقاها فى « معرض بغداد » ومع أن القصيدة عن الربيع الا أن الشاعر عرج على السياسة وأنشد بصوت الممثل وحركاته الانفعالية :

أما العراق فحاله دون التقدم حائل
حق له استقلاله فنريده ونحاول

فالتهب الاكف واشرأبت الاعناق ، وأراد الزهاوى أن يجلس فوقع على الأرض وأسرع اليه رفاقه يقيمونه ، فوقف كأن لم يحدث شىء وأعاد انشاد البيتين ، كأنه يريد أن يصور وقوعه

ومحاولة القيام بوقوع العراق فريسة للغاصبين ومحاولة التقدم ، وأطال فى أنشاده « ونحاول » وذهب بها الى السماء فأذكى جنة الناس [1] .

لم ينس ذلك ، فماذا يريد الشاعر بعد ؟ لم ينتظر الأمير على طويلا فقد أرسل يستدعى الشاعر ، لأنه متهم سياسيا فى نظره والأدهى من هذا أنه متهم دينيا فى نظر شيوخ المجالس الحاضرين . ومن الحق أن المجلس كان منقسما على نفسه فبعض أهل المجلس يهاجمون الزهاوى ويتهمونه بالزندقة ، وينكرون ابداعه الفنى بينما دافع فريق آخر ورعى له مكانته الأدبية .

وكان المهاجمون يتهمون الشاعر بأنه أفسد الذوق وأتلف الشعر حين ملأ دواوينه بهذا الشعر التعليمى الذى صاغ فيه قوانين الطبيعة . صحيح أن الشعر التعليمى قديم فى أدبنا العربى نظم فيه الرجازون من قبل قواعد النحو وبعض القوانين العلمية فى ذلك الوقت ، ولكنه بقى دائما دون مستوى الشعر العاطفى لأنه لا ينبض بالشعور ولا يصور الطبيعة الأنسانية ودوافعها النفسية . وكأنما أراد الزهاوى أن يقعد بالشعر عن التحليق فى الأجواء الخيالية فينقل الواقع العلمى الذى يعيش فيه الناس ولكنه لم يغلف حقائقه العلمية بجو نفسى ولم ينشر حولها حتى الضباب من المشاعر الانسانية التى تحيلها الى قصائد بالمعنى الفنى فليس الشعر عنده لسان الجنس البشرى وانما هو لسان العلم وخلاصة لقوانينه .

---

(١) قلب العراق .

وهو بما أحدث من ذلك كان يسعى الى أن يعد فى الشعراء المجددين لعصره ولكنه حلق بعيدا عن آفاق الشعر . وخطورة تحول الشعر الى العلم الطبيعى أن قوانينه غير ثابتة وبذلك تزول كل قيمة لشعره بينما العواطف خالده . وليس الشعر وما ينطوى عليه من شعور هو ما نفتقده وحده بل نفتقد أيضا لغة الشعر وموسيقاه الهنيئة التى ضلت أثناء توغله فى شعاب العلم(١)

وكان الفريق الثانى أكثر شمولا فى نظرته الى شعر الزهاوى فهم يقارنون بين شعره وبين شعر معاصريه فيجدونه قد حقق مجدا فنيا كبيرا . فثقافته الواسعة اذا ما قورن بكل شعراء عصره قد مكنت من تخليص الشعر الحديث فى العراق — من ضروب الزخارف الشكلية وألوان البديع المتكلف التى غرق فيها الشعر قرونا طويلة كان يعاصره أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن وكانت موضوعاتهم لا تخرج عن دائرة المديح والتصوف والشكوى والمسجلات فعبر به الزهاوى الى الحياة فى أفقها الكبير ، وعبر عن المشاعر العامة والنبضات الخاصة فى كل ألوان الحياة .

واذا كان بعض شعره قد أسرف فيه الشاعر على نفسه فنظم فيه حقائق العلم فان بقية دواوينه الكثيرة ترتفع بالقيمة النهائية عند الحكم ، فهو من الشعراء المكثرين الذين نجد تفاوتا كبيرا فى شعرهم فيحلقون ويسفون ولا يحتفظ بمستوى واحد كزميله الرصافى . ولم يكن للعصر الذى نشأ فيه أى فضل فى تثقيفه ومحاولة تطوير الشعر ، فهو عبء ضخم حمله زمنا وحده .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ١٠٤/١١٩ .

كان الشعر مجال تسلية وترفيه ، حتى فهم قيمته الحقيقية ، أليس هو القائل « وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثتها الأبنـــاء من الآباء ، فيقول ما يشعر به هو لا ما يشعر به آباؤه فكلما رجعت الى نفسى أحيد به عن الطريق الذى يمشى عليه غيرى معتقدا أن الطبيعة أولى بالتقليد ... والشاعر الحر نزاع الى التجدد ويتمرد على السلطان الكاذب ، يريد كل يوم أن يمرق عن العادات ويمزق أطمارها البالية [1] .

وليس معنى ذلك أن يمزق الشاعر اطاره العربى وينساق وراء تيارات وروافد غريبة قد لا تلائم الذوق العربى ، فهو يشعر شعور العربى الصادق ولكنه يطور فنه مستندا الى الجذور العربية :

وكأنى بفتيات الشعر وهن عرب أبكار قد برزن من خدورهن سافرات مسبلات الشعور وأخذن يتهامسن فيما بينهن وينظرن من آونة الى أخرى بعيون نجل سود المحاجر ، الى أولئك الشبان كأنهن عاتبات عليهم فى ميلهم عنهن الى الغوانى الأعجميات لطلاء خلاب على وجوههن وأصباغ مستعارة فى شعورهن وابتسامات كاذبة على وجوههن .. قد تفرنجوا فى مأكلهم ومشربهم ومجلسهم وانهم فوق ذلك يريدون ليتفرنجوا فى شعرهم الذى هو صدى نفوسهم . يالقبور الآباء لو ســمعت ورأت كيــف أن أبناءهم يفتخرون بابتعادهم عن السجايا الغر العربية » [2] .

---

(١) مقدمة ديوان الزهاوى .

(٢) سحر الشعر ص ٤١/٤٣ .

كان هذا الجدال يدور همسا فى المجلس حينا فاذا آنس الحاضرون من الامير رغبة فى الاستماع علا صوت المناقشة ولكنهم فى النهاية أجمعوا على فشل شعره القصصى الذى يزعم أنه أول من نظمه فى الأدب العربى الحديث . فقد سبقه محرم والكاشف وحافظ وغيرهم من شعراء مصر ، على أن كل الشعر القصصى الذى ظهر كان مفككا لا يعرف الحبكة الفنية ولا عناصر التشويق ، وهو أقرب الى أسلوب الحكاية الشعبية منه الى أسلوب القصه ومقاييسها كما حددها النقد المعاصر . ومن الحق أن كل قصص الزهاوى الشعرية تهدف الى تصوير مشاكل اجتماعية وعبث بعض ذوى المناصب الكبيرة بالقيم وبالحريات الشخصية فهى مآسى تدور أحداثها فى زمن طويل يفترق المحبون تحت ضغط الظروف ثم لا يلتقيان أبدا بعد ذلك فى الحياة . ولكنه ألح الحاحا جلب الاملال على هذا الوجه الواحد من صور الحياة بهذا الاسلوب الواحدمن طرق التعبير .

وحين نظم الزهاوى بعض قصائده من الشعر المرسل وكتب يدعو الى تحرير الشعر من قيد القافية كان يهدف الى أن يضعه النقاد على قمة المجددين ، ولكنه مسبوق فى هذا المنزع أيضا فقد سبقه عبد الرحمن شكرى الشاعر السكندرى الى الشعر المرسل ولكن كلا الشاعرين فشل فى محاولته ، فقد فقدت القصيدة عنصر النغم واستحالت الى جمود الصخور وبرودة الثلوج دون أن يكون هناك موسيقى داخلية تعوض النثرية المتفشية التى أحالت القصيدة مسخا مشوها . فعاد الزهاوى بعد ذلك «يستقبح تعطيل

أرجل غانية الشعر من خلاخيل القافية مرة واحدة ، ولقد ألفها منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام » [1]

ولكن ما يهول حقيقة هو هذا الدوى الغريب فى بلد الاقطاع. انه يدعو الى لون من الاشتراكية ، يدعو الى المساواة بين الفقير والغنى يدعو الى أن يكون تتاج الأرض مشـــاعا وليس ملكا لصاحب الأرض ويدعو الفلاحين الى حقهم المضـــاع فيما يزرعون ويكدون ثم يحتكم هذا المتزندق الى كتاب الله الذى يساوى بين السادة والرعاع :

ان من كدوا يزرعــون البقـــاعا
أشــبعوا غــيرهم وباتوا جيــاعا
ربح المالــكون للأرض غصــبا
ومضى كد الزارعين ضياعا
يفقــر الدهر ألف بيت ليغنى
واحــــدا من أفراده جمــاعا
ومن العــدل أن يكون تتــاج الأرض بين المستثمرين مشــاعا
وكتاب الله العظيم يســـاوى
بين من كانوا ســادة ورعاعا
واذا لم ترهف حســامك للذود فارهف اذا استطعت اليراعا [2]

---

(١) سحر الشعر ص ٥٧ .
(٢) الثمالة ص ٥٦ .

كل هـذا لم يكن يشـغل بال الأمير وانما الذى كان يشغله؛ حقيقة هو مطولته « ثورة فى الجحيم » . تلك التى صور فيهـا عباقرة العـالم فى الجحيم حين دخله فالتقى بالمعـرى وسقراط وداروين وسبنسر ونيوتن وروسو وفولتير والكندى وابن سينا وابن رشد وغيرهم . وتحفز أهل الجحيم للثـورة وكلهم عباقرة ومخترعون ثم قدرتهم على اختراع آلة لاطفـاء اللهب ودخولهم معركة عنيفة مع زبانية الجحيم يساند الشياطين فيها أهل الجحيم والملائكة زبانية جهنم ، وتصادم الجبال وثورة البراكين والحرب بالرياح العاصفة والبروق الوامضة والبخار يحرق ماؤه الوجوه ثم انحسار المعركة بعد حين ودخول أهل الجحيم منتصرين جنة الله يطردون منها البلهاء والسذج من ساكنيها .

ماذا يريد أن يقول هذا الرجل ؟ وما معنى ثورة أهل الجحيم على السذج من أهل الجنة ؟ أتراه يقصـد ثورة البائسين على الأغنياء المنعمين وانتصارهم عليهم ؟ أم تراه يصور تصويرا خياليا ثورة فى السماء ؟ أكبر الظن أنه يقصد المعنى الأول وهـو بذلك يثير الجماهير ضد الأوضاع السياسية لأن زندقة الرجل أشد من أن يحاول سترها وأدلتها أوضح فى قصائد أخرى كثيرة .

كان القوم يلغطون والأمير فى شغل عنهم حين حضر الشاعر واستأذن فى الدخول فأذن له ثم أمره بالجلوس فجلس بعيدا يتطلع

الى القوم الغضاب والى العيون التى تتفحصه ، وتطلع الى الأمير فوجده مكفهر الوجه ولكنه لم يهتز وبادر الأمير :

— ماذا تريد أن تقول فى مطولتك « ثورة فى الجحيم » ؟

— يا سيدى الأمير ، وماذا تخشى من شاعر بلغ من السنين عتيا ، وحاربته الأيام ، وتكاثرت حوله الأعداء ، فانفعل انفعال الشعراء ولكنه أعجز من أن يضرم الثورة فى الأرض فأضرمها فى السماء .

وصمت الأمير فقد رمى الشاعر الحاضرين بأنهم يكيدون له وخلص نفسه من التحريض على ثورة سياسية ولكن الأمر يتعلق بما هو أهم ، يتعلق بالدين فكيف يستطيع الخلاص من زندقته ؟

— يا جميل ، أنت ابن محمـــد فيضى الزهاوى المفتى الكردى الذى هبط بغـــداد وهو لا يملك شروى نقير ، وبيوتكم الوسيعة وشهرتكم الكبيرة كلها باسم الدين ، فكيف تجرؤ على التعريض بالاسلام حيث تقــول « وتمردوا حتى على الأقدار » ؟

— هل يسمح لى الأمير أن أدافع عن نفسى ؟

— نعم .

— أنا فى القــرن الرابع عشر الهجــرى ، وفى صغرى كانوا يسموننى المجنون ، وفى شيخوختى يسموننى الفيلســوف والزنديق ، ولكن ابن عمــكم السيد الشريف الرضى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى رثى أبا اسحق الصابى فقال :

« يا آمر الأقدار كيف أطعتها ؟ » فأى الكفرين أشد ، وأينا
الزنديق الذى عرض بالدين ؟ [1]

ماذا يقول الأمير فى هذا الشاعر الزلق اللسان الذى يخرج من كل مأزق سليما معافى وهل يكون هو فى القرن الرابع عشر الهجرى أشد كبتا للحرية من أمراء القرن الثالث ؟ ان كان لابد من الاتهام بالزندقة فالزهاوى أبعد الشاعرين عنها ولعله قد تأثر فى قصيدته بالشريف الرضى تأثرا فنيا ولم يتطرق الى ذهنه التعريض بالدين . لقد سكت الحاضرون كلهم وكانوا منذ حين يلغطون ، أسكتهم بقوة حجته ، فما أشد ذكاء هذا الشيخ . وابتسم الأمير بعد تجهم، وذهب غضبه ، ثم فاجأه بسؤال جديد :

— لماذا رفضت أن تكون شاعر الملك ؟

— انى ما زلت ذلك البلبل الذى يتغنى بأمجاده كلما خدم بلده لا طمعا بحبات تلقى اليه [2] .

(1) من حديث بينى وبين الأستاذ أحمد الصراف .
(2) رسائل الزهاوى .

رباعيات ورباعيات

كان مجلس الأمير قد اجتمع ويبدو أن أنصار الرصافى قد ساءهم نجاح الزهاوى فى الافلات من حصار الأمس القريب ، يوم ثار الأمير على زندقته ثم عاد فهش له . وكانوا قد بيتوا الأمر واستعدوا له ، فما ان تصدر الأمير المجلس حتى كانت رباعيات الزهاوى موضع المناقشة وتساءل الأمير :

— أزندقة جديدة نقيم البينة عليها ؟

— بل سرقة أيها الأمير نقيم الحدود على صاحبها . فقد أراد الزهاوى أن يكتب ما يعد فتحا فى الأدب العربى وتصور رباعيات الخيام الشاعر الفارسى ورأى الضجة التى قامت فى الدنيا حولها فمن محقق لمخطوطاتها ومن مترجم لها الى لغته ومن كاتب عن صاحبها من العرب ومن المستشرقين ، بله الفرس أنفسهم وهو يجيد الفارسية ويعرف أن الخيام قد اشتغل بالفلك وبالرياضيات وبالفلسفة مثلما اشتغل هو وأن رباعياته نتيجة تجارب الفيلسوف الحكيم فى الحياة فسار على خطاه ، ولكن الطريق تشعبت بشاعرنا فضل فيها بينما سلكها الخيام بيِّنة المعالم واضحة الصوى .

وأكبر الظن أن الخيام كان زنديقا مثل شـــاعرنا فقد طعن معاصروه فى عقيدته « فخشى على دمه وأمسك من عنان لســانه وقلمه وحج متاقاة لاتقية وأبدى أسرارا من السرار غير تقيــة » كما قال القفطى . ورباعياته تصوره رجلا زائغا عن التقاليد متمردا على الأخلاق ، جاعلا هدفه الأسمى فى الحيــاة اجتــلاب السرور والانغماس فى الملذات فهو لم يكن مثل سائر الفلاسفة والحكماء ممن جاهدوا فى نشر الفضائل وعملوا لتثبيت دعائم الأخـــلاق وقدموا عصارة تفكيرهم فداء وقربانا للانسانية المفعمة بالأتراح الملأى بالأوجاع الحافلة بالجور والبؤس .

دعا الخيام الناس الى اللذة وحثهم على طلب السرور مدفوعا بعقيدة فلسفية هى وليدة تفكيره وشعوره ومذهبه الفلسفى فان للرجل تفكيرا خاصا ومسلكا معلوما فى الحياة ، فلم يكن عدوهم ولا صديقهم ، ولم يطلب لهم خيرا ولا استثار عليهم شرا ، فقد كان مشغولا بنفسه عن الناس كلهم . على أنه قد تأثر تأثرا واضحا بعقائد الباطنية الذين أباحوا شرب الخمر وانكروا البعث ورأوا الجنة نعيم الدنيا ، وقالوا بقدم العــالم وقد تضمنت كل ذلك الرســالة التى بعث بها عبيــد الله الحسن القيروانى الباطنى الى سليمان بن الحسن الجنابى .

وهو فى النهاية سلبى لأنه يؤمن بالجبر ايمان الباطنيةورباعياته تثبت ذلك فى أكثر من موضع ، سلبى لأنه يصرف الناس عن بناء الكون وتعميره ويدعوهم الى العزلة فى ظل اللذة الفرديةوالغيبوبة

مع الكأس المترعة ، سلبى لأن فلسفته مبنيـة على التشـاؤم واليأس [1] .

ولكنه شاعر ممتاز قادر على التعبير عن التشاؤم بروح جذابة وأسلوب رفيع وكلمات موحيـة حتى ليأخذك معـه تجول بين رباعياته تائها عن الدنيا وما فيها واقعا تحت تأثيرها بما فيها من منطق فلسفى يكاد يقنعك وسحر فنى يكاد يأسرك فلا تنتهى منها الا وأنت قريب من التسليم له .

أما شاعرنا الزهاوى فلم يكن له هـذا الحظ مع أنه ترجم الرباعيات ، ترجمها فى أربعة أيام كما يدعى وهو يظن ذلك مجال فخر يزهو به فى كل مجلس ولكنه بعد عن فلسفة الخيـام ودقة معانيه حين نظم الترجمة النثرية شعرا ، وان كانت أدق من ترجمة الشاعر المصرى أحمد رامى على أية حال .

لم يكن للزهاوى هذا الحظ من الابداع الفنى ولا من عمق الفكرة ، فخرجت رباعياته تحمل أفكارا ساذجة وأسـلوبا مهلهلا ونغما نثريا فى كثير من الأحيان .

وفلسفة الزهاوى لم تصل حتى الى السلبية فالسلبية واليأس نهاية تفكيره مهما حكمنا على هذه النتيجة ، فلسفة الزهاوى لم تتعد الخطوة الأولى خطوة الشكوى والصراخ من الظـلم ومن الضيق بالحياة وبالناس وقد يستطيع الحكيم أن يتعـدى مرحلة الشكوى الى اليأس والعزلة وتلك نتيجة سلبية أو يصـل الى

---

(۱) راجع عمر الخيام لأحمد الصراف ١٣٥/٥٢ .

النهاية الايجابية وهى العمل والبناء وطرد الملل وفرض القـدرة بالجهد والعرق .

وهو متناقض نتيجة مرحلة الشـك والشكوى التى ما يزال يعيش فيها متناقض فى آرائه فى الحيـاة متناقض حتى فى زندقته مرة ينكر البعث ومرة أخرى يؤمن به ، تارة يصـور الأثير قدرة عليا وتارة يهتدى الى الله ويستغفر . ونظريته فى الدفع معروفة ، فهو القائل :

يدفع الجسم الى الجسم من الجرى الأثير
فيقولون هو الجسم على الجـذب قدير

فاذا ما قرأ قول نيوتن بأنه لا بد أن تكون هناك قوة مركزية تجذب السيارات نحو الشمس ، عاد يقول فى رباعية أخرى :

زرقا وحمرا زاهيات فى مجـاريها رويدا
متجاذبات لو تخلف واحد عنهـا لأودى

— لقد أوضح الزهاوى رأيه فى هذه النقطة وفصل فى كتـابه « المجمل مما أرى » قالها أحد أنصار الزهاوى فى المجلس.

— **ليس هذا وحده دليل التناقض فهو غير هياب من الموت .**

سأقاسى الشقاء ما دمت حيـا
وأذم الحيـــاة حتى أموتا

وكثير من شعره يوضح ضيقه بالحياة وتشاؤمه ، ولكنه يعود فى رباعية من رباعياته خائفا مرتعشا :

مهما كبرت فعنـدى من المنـايا خشـاة
كأنمـا الموت ذئب كأنمـا أنا شـاة

قد يكون الشاعر قال الفكرتين في فترتين من حياته ، لكل ملابسات مختلفة ولكن الأمر لا يخلو من تناقض في النهاية مثلما يقول يائسا راغبا في الموت داعيا الناس الى قتل أنفسهم .

انتحر واترك الحياة لقوم تنعموا
ان يجز أن يعيش ناس فما أنت منهم

ثم يتراجع سريعا متمسكا بالدنيا ، يراها قصيرة مهما طالت ، داعيا الى التفكير في عواقب الانتحار :

سيأتيك الردى من نفسه عجلان يبتدر
فيا هذا لماذا انت قبل الوقت تنتحر ؟

فهو شجاع في الموت جبان ، صادق في السياسة كذوب ، يؤمن بالحقيقة فاذا جرت عليه الوبال ، عاد يشكو لأنه لقي الشقاء حين تمسك بالصدق متمنيا لو كذب فيما صدق من قبل .

وتدخل الأمير متسائلا :

— قد يكون هذا حقا ، ولكن أين السرقة التي أثرتها أول المناقشة ؟

— وكيف تكون السرقة ، ان لم تكن في هذه الرباعيات ؟ يقول كوستاف لوبون « في كتابه » جوامع الكلم الذي ترجمه فتحي زغلول عام ١٩٢٢ » : « قلما اجتمع لامرىء خلق وذكاء ، لذلك ينبغي أن يختار أصدقاءه من أهل الخلق ، ومعاشريه من أهل الذكاء » فيقول الزهاوي :

أبل الرجال على اختلاف أولا ثم انتخب منهم على استحقاق
عاشر أناسا بالذكاء تميزوا واختر صديقك من ذوي الأخلاق

ويقول كوستاف : « ما عرف المرء الا حقيقتين مطلقتين ، اللذة والألم » فيقول الزهاوى :

لم يعرف المرء من كل الحياة سوى
حقيقتين همـــا اللذات والألم

وهنا قاطعه أحد أنصار الزهاوى :

— ان الرباعيات ضخمة تحدث الشاعر فى القسم الأول منها عن عاطفة الحب وفى الثانى عن البؤس والثالث خصصه للحديث عن مفهوم الشعر فى نظره ، والرابع فى الحث على اليقظـة وفيه يندب حظ قومه النيام والخامس للأخـلاق ، وفيـه يبكى الأخلاق فى مجتمعه والسادس فى السياسة والاجتماع والسابع فى الكون والحياة وقد عرض فيه آراءه فى الفلك ونتائجه التى وصل اليهـــا ، والقسم الثامن والأخير فى الوصف ، فلا تغمط الرجل حقه بالحديث عن بعض الجوانب من الرباعيات وتهمل الآخر على أن الزهاوى قـد صرح فى مقدمة هذه الرباعيات ، أنه قد تأثر بكوستاف لوبون ، فهو اذن لم ينف التهمة ، بل لا يعتبر ذلك اتهـاما على الاطلاق وفرق بين التأثر الذى يعترف به صـاحبه ويضمنه شعره ويصرح بذلك ، وبين السرقة التى يحـاول مرتكبهـا أن يخفيها .

— فما تقول اذن فى سرقته من الرصافى ؟ [١]

---

(١) راجع حقيقة الزهاوى ص ١٥٠/٨ .

يقول الرصافى :

اليك اليك يا بغـــداد عنى
فانى لست منك ولست منى
ولـــكنى وان كبر التمـــنى
يعـــز على يا بغـــداد انى
أراك على شفا هول شـــديد

فيقول الزهاوى :

أنا من بغـــداد وبغـــداد منى
مبديا ضجرة ومنهـــا التجنى
ولقد ســــاء بالعواقب ظنى
نجنى رب نجنى رب انى
قد سئمت الحياة فى بغـــداد

وكادت المناقشة تعود بين الفريقين ، فقـــد وضح التحفـــز والاصرار على الوجوه لولا أن أنهى الأمير المجلس بقيامه وهو يقول : لعنة الله على الزنديقين فقد شغلا النـــاس وملآ الدنيـــا بحديثهما .

ليلة عصيبة

لم ينفض المجلس السابق الا ليجتمع فى اليوم التالى كى يناقش زندقة شاعر العراق الكبير وكأنما ازداد المهاجمون حماسة حين كسبوا الجولة فى اليوم السابق ، وما أن التأم شمل المجلس حتى كانت كلمة « زنديق » تتردد على الأفواه ، وكأنما أصدر المهاجمون حكمهم قبل أن يبدأوا المناقشة ايمانا منهم بتوالى النصر وثبوت الاتهام . والتفت الأمير الى أكثر الشيوخ حماسة يسأله :

— وما دليل الاتهام ؟

— الأدلة كثيرة أيها الأمير . فلسفته فى اجمالها عقلية مادية تنكر الغيب ولا تؤمن به ، تثق بالمحسوس شأن الفلاسفة الطبيعيين ، والحواس عاجزة والعقل قاصر عن الاحاطة بأبسط الغيبيات . فاذا سألنا واحدا من هؤلاء الفلاسفة عن العالم أمحدود هو أم لا محدود ، لم يستطع أن يجيب لأن العقل لا يتصور شيئا غير محدود ، وهو فى نفس الوقت لا يقوى على أن يجيب موضحا حدود العالم أهو الأثير مثلا ؟ وأين ينتهى ؟ من أجل ذلك كان « الذين يؤمنون بالغيب » قد اتصفوا بصفة من صفات الايمان .

وعندما أنكر الزهاوى غير المحسوس ، تورط فأنكر البعث وشعره كثير فى ذلك فهو القائل :

ما الناس الا نبات يحور بعد هشيما
فلا تخافن يوما قيامة وجحيما

وأكبر الظن أن فلسفته مزيج من عقائد الباطنية والبهائية والفلسفة ، الطبيعية ، والملامح البهائية واضحة فى كثير من خطوط تفكيره فعندما نستمع الى قوله :

يرجو أناس أن ينالوا بعدما

يعثو الردى فيهم وصال الحور

أما أنا فاخالنى فى هذه الدنيا ملاقى جنتى وسعيرى

نلمح أول أصل من أصول مذهبهم ، فهم ينكرون البعث ويرون الجنة هى نعيم الدنيا والجحيم شقاء الحياة ، والذكرى الأليمة جحيم والذكرى الهنيئة نعيم وسعادة للموعود .

وفكرة الدور التى تتردد فى أشعاره كذلك أصل من أصول عقائدهم وقد أوضح رأيه فى كتابه « المجمل مما أرى » فقال اننا نتكرر منذ الازل وسوف نتكرر الى الأبد ، والأرض تكررت وستتكرر الى مالا نهاية والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدورى الأعظم ويقول شعرا :

لم يزل نهر الدهر يجرى الى مبدئه صاخبا يقل سفينا

تتلاقى الآباء دائرة فى
جريه والآزال حينا فحينا
انه يفنى ما حيـا كل شىء
ويعيـد الأشياء مهما فنينا
سوف نحيا فى كل دور ونردى
ونلاقى جميع ما قد لقينـا
لا يهمنـك السنون فما فى
جانب الدهر قيمة للسنينا [1]

وفكرة وحدة الوجود البوذية الأصـل والتى تتلخص فى أن المخلوق والخالق شىء واحد فى نفســه وان اختلف فى الاعتبار والتى اقتبسها فيما بعد بعض متصوفة المســلمين وآمن بهـا البهائيون ، تركت أصداءها فى شعر الزهاوى ، وقصـائده أشهر من أن تذكر فى هذا المجال ولعل أهمها تلك التى شرح فيها نظرية وحدة الوجود وفيها يقول :

يا روح هـذى الدنى شرارة منـك أنا
قـد استطارت تبتغى لنفسـها آن تعلنـا
ان بصيصى كـله مـن بعض ذلك السنى
ما أنا الا أنت محسوسا فهـل أنت أنا ؟
منك انبثقت بعـدما فيك كمنت أزمنا

ورأيه فى قدم المادة والكون به فى كتـابيه « الكائنـات » والمجمل مما أرى » فالفضاء قديم وجواهر المـادة المتولدة عنـه

(١) اللباب ص ٣٢٦ .

قديمة أيضا والاجرام غير متناهية وتلك سلسلة من الحلقات الفلسفية مبنية بعضها على بعض وان كان هذا الرأى من عقائد الباطنية كما هو معروف ، يقول فى اللباب ص ٨٢ :

جوهر الكون فى الوجود قديم
غير أن الاشكال مخترعات

ويقول فى الأوشال ص ١٧٨ :

أنا فى جوهرى قديم على الأرض وان كان حادثا ميلادى

ومن العجيب أن ينكر الزهاوى فى بعض قصائده وجود مدبر الكون شأن الفلاسفة الطبيعيين ، ثم يعود فيؤمن بالجبر ، ولعله أراد أن يريح ضميره القلق من عاقبة زندقته ، فيقول شارحا مذهبه فى الجبر :

جاء ولم يدر السبب — وهو كما جاء ذهب
لعله اضطر فما — عليه فى ذاك عتب
وقيدوه بالحلال — والحرام والأدب
ان الفتى مسير — اذا نآى أو اقترب [1]

وأوضح من هذه القصيدة قوله يلقى تبعة زندقته على غيره ، مدعيا أنه مكره غير مخير فأى لوم عليه ؟ ولو أراد غير ذلك ما استطاع :

هو الذى أراد أن — نسىء أو أن نحسنا
وهو الذى صير منا — ملحدا ومؤمنا

(١) النزعات ص ٣٢٦ .

اذا جنيت مكرها فهل أنا الذى جنى ؟
ألم نكن لما قضى به مثالا حسنا ؟ (١)

فاذا ما تركنا نزعاته الفلسفية الى آرائه العامة وجدنا الملامح البهائية لا تقل وضوحا عن هذا فرسالته التى نشرها فى المقتطف عن « الخط الجديد » والتى دعا فيها العالم كله الى الكتابة بهذا الخط ، ألا نلمح من ورائها هدفا بعيدا ؟ ان البهائيين يدعون الى لغة واحدة تكتب بخط واحد يصطنعها العالم كله ، حتى يحققوا أهدافهم الدينية ، فما الذى دعا الزهاوى الشاعر الى التفكير فى هذا الخط الغريب عن خطوطنا العربية وما الذى يقصده حين يقول ان هذا الخط بديل عن كل خطوط اللغات على اختلافها ؟

واذا تركنا ذلك الى رأيه فى المرأة ، هل نستطيع أن نقول أن الزهاوى تأثر بقاسم أمين وحده فى دعوته ؟ ان قاسما لم يدع قط الى المساواة بين المرأة والرجل فى الميراث والى أن تصادق المرأة الرجل قبل الزواج ، والى كل آرائه المعروفة التى كتبها فى المؤيد وأثارت حوله ضجة كبيرة لأن الاسلام وقواعده السليمة كانت أهدافا كبيرة أمام قاسم أمين ، فهو يريد للمرأة الحجاب الشرعى وتعليما يناسب طبيعتها ويؤهلها لأن تصبح أما مثالية لجيل المستقبل ، أما الزهاوى فكل هدفه بعيد فى جوهره عن الروح الاسلامية وذلك الهدف هو أصل من أصول البهائية فهى التى نادت بمساواة المرأة بالرجل بغض النظر عن أصول الاسلام .

---

(١) الأوشال ص ٩ .

أيوجد شك بعد ذلك فى زندقة هذا الرجل بعد أن اعترف بذنبه الكبير ؟

كان الموقف عصيبا فالجرم واضح ومعالم فلسفته فى أصولها وفروعها تخرج عن قواعد الاسلام وأصوله ولكن بعض تلاميذه ممن كانوا على صلة قوية به يعرفون أن جذور الدين عميقة فى حناياه كما هى عميقة فى حنايا مجتمعنا الشرقى كله ، فمهما خرج الرجل فى الظاهر وفى القول على معتقدات الجمهور ، فهو لا يلبث أن يعود نادما مستغفرا ، فشوقى الشاعر المعاصر له مثلا كان يشرب الخمر ويتغنى بها ونحس فى كثير من شعره أنه لا يعيش الا للذات بينما هو صاحب المدائح النبوية المشهورة . فبعد فترة من الصمت رانت على المجلس لم يلبث أن قطع الصمت قائلا : ان فترات التطور الاجتماعى تحمل دائما بذور الشك ، والزهاوى الذى عاش فى مجتمع مقفل أواخر القرن الماضى وثقف نفسه بنفسه ، وجذبته مظاهر العلم الغربى والفلسفة الغربية كان لابد أن يعود شاكا لأن رجال الدين فى ذلك الوقت لا يقوون على اقناعه ، وقديما عاش أبو نواس فى مثل المجتمع المتطور وحديثا عاش شوقى وأسرف كلاهما على نفسه فى اللذات ، واذا كان شوقى لم يتزندق فقد تزندق أبو نواس ولكنهم جميعا عادوا الى حظيرة الدين نادمين والذى يقرأ شعر الزهاوى فى قسم اليقين من ديوانه النزعات الذى طلب ألا يطبع فى حياته — يدرك الندم الذى يرعى جوانح هذا الشاعر فقد عبر مرحلة الشك الى اليقين .

يقول فى قصيدته « ندامة ورجوع الى الايمان » :

أنا فيما أبديته من مقـــال
مخطىء ليس لى أقل اســتناد
شهد الله والملائكة الأبرار انى ركبت غير الســـداد
اننىقد ندمت غفرانك اللهم من سوء مذهبىواعتقادى
اننى قـــد زرعت اثما فويلى
ثم ويلى ان حان يوم الحصاد
سوف أبكىملء العيونعلىما
قلت حتى يبل دمعى نجـادى

وهناك أكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى ، معنى الندم على ما كان ومعنى الايمان الحق ايمان الباحث الذى يشـــك ثم يعبر الشـــك الى اليقين عن طريق البحث وهــو أقوى ألف مرة من الايمان أو الاسلام الموروث . آمن الشاعر اذن بالله وبملائكتـــه وبأنبيائه ، آمن بالاسلام وفزع الى الله ينشد عنـــده الغفران ، والله يغفر فلا نملك الا نغفـــر له سيئته حين نستمع الى هـــــذه الضراعات الصادقة :

اليك بداجى الليل فى البحر ان طغى
اليـــــك اذا ما ريع قلبى أفــزع
عبدتك ما أدرى ولا أحـــــد درى
أسرك أم صدر الطبيعـــــة أوسع
قرأت اسمكالمحمود فىالليلوالضحى
اذ الشمستستخفى اذ الشمس تطلع

فحققت ان الكون بالله قـائم
وأيقنت ان الله للـكون مبـدع
تعاليت أنت الله مقتـدرا فما
يضرك نسيان ولا الذكـر ينفـع

ولم يكن هناك ريب بعد ، فى توبة الشاعر وفى أن الزندقة اذا انسحبت على حياته الماضية فقد غسل الايمان كل خطيئة ، ايمان الشاعر الفيلسوف ، وانفض المجلس .



الشيخ

— من هذا الشيخ على باب البهو قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده ، فلا يحمل بعضه بعضا الا بجهد . يتخلع على ذراع غلامه وقد انبسطت أسارير جبينه العريض وانفرجت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ؟

— انه الشاعر الزهاوى ، لقد تخطى السبعين من عمره ، ولو رأيته يا سيدى منذ عشرين عاما لوجدت الصورة تختلف فى كثير من جوانبها ، كان ما يزال متماسكا يركب أتانا بيضاء يعرفها البغداديون « بحمارة الزهاوى » يجرها خادمه . كان يسير بين الجماهير رافعا يده بالتحية متوهما أن الناس كلها تحييه .

كان هذا الحديث يدور بين « الزيات » وبين « نادل الفندق » وأقبل الزيات على الشيخ وأقبل الشيخ عليه يسلم تسليم البشاشة بيد مرتجفة ويرحب به ترحيب الكرم بصوت متهدج ولم يدع له فرجة بين كلامه الدافق يدخل عليه منهـــا ، فهو ينطلق بالحديث كالبلبل خاصته أن يغرد والزهر طبيعته أن يفوح . كان الشيخ يتكلم ونبراته المؤثرة وقسماته المعبرة ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الأعجف وشاربه النائم على فمه الأهرت وعينه البراقة تتراءى من خلف

المنظار وشعره الأشمط يتهدل على تنوء الصدغ يخيل الى الناظر أن طيفا من أطياف الجدود قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة فى هذا المكان الصامت ولكن الحيوية التى تنبض فى حركاته والشبيبة التى تفيض فى كلماته والعزيمة التى تضطرم فى نظراته كانت تطرد هذا الخيال .

كان يحدث « الزيات » فيعجب أو ينشده فيطرب ، وقد تكون أذنه الى فمه وليس معهما ثالث ولكنه يجاهر بالالقاء ويصور المعنى بالصوت والايماء حتى يدهش السامع . وظل «الزيات» أمام هذا الجيشان الروحى ساهما حالما يفكر فى الذهن الذى لا يكل واللسان الذى لا يفتر والزهو الذى لا يتطامن والطموح الذى لا يتقاصر والقلق الذى لا يسكن والتمرد الذى لا يهن والشباب الذى يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة التى تتخذ هيئة الموت . يرسل النكتة البارعة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بمسبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط بسيجارته العراقية . يتكلم ويتألم ويثور ويهدأ ويسخط ويرضى وموضوع مقاله وانفعاله لا يخرج أبدا عن «الأنا » [1] . وكم يستهويه ويقع منه أطيب وقع اطراء جليسه اياه ، ويزيده فى نفسه مكانة وحظوة [2] .

ويدرك محدثه أنه أمام تضخم فى الشخصية وأن هذا الهوس

---

(١) الرسالة ٨ مارس ١٩٣٧ (جميل الزهاوى للزيات) .

(٢) الأديب العراقى العدد الثالث ١٩٦١ (ذكريات مع الزهاوى لكمال ابراهيم) .

بالأنا هو الذى جر عليه كثيرا من المشاكل لم يتقبلها تقبل الانسان العادى الذى تصعد به الأيام وتهبط به الليالى ، ولكنه كان يأمل أن يصعد ويصعد أبدا ، وحده لا يدانيه أحد . وما هكذا الحال خاصة مع من دخل معترك السياسة وميدان الأدب . يحب المخالفة والتجديد ليلفت الأنظار فكم خالف الناس فى معتقداتهم وخالف العلماء فى نظرياتهم وكان يفخر بأنه أول من كتب عن نظرية داروين فى النشوء والارتقاء مقتنعا بها ، وعن نظرية نيتشة فى « السبرمان » مؤيدا لها فى شعره . وجره كل هذا الى مشاحنات وعداوات لا قبل له بها .

اذا كتب تلاميذه له فهم خلصاؤه ، واذا كتبوا للحق والانصاف فهم جاحدون فتناقص عددهم واحدا بعد واحد . واذا خلص مناقشه من جدله وانتصر عليه برأيه لم يخلص من نكاته اللاذعة . وهو على هذا تقتحمه العين ، تجد حلته واسعة أو ضيقة كأنما فصلت ليرتديها شخص آخر وهو لا يأبه بهذا كأنما شغل عن هندامه بعلمه اذا وضع ساقه المهيضة فوق ساقه الأخرى ليحركها كعادته رأيت فى قدمه « الجيوة » الفارسية وهى من قماش متين ، لأنه لا يقوى على وضع الحذاء فى قدمه المشلولة . ضئيل الحجم قبيح الوجه بأنفه الضخم وجبهته العريضة البارزة ولكن لسانه عوضه عن كل ذلك ففرض به مكانته على مجالسه .

جلس الزيات يستمع الى الشيخ الزهاوى بأذنيه فقط أما عقله ووجدانه فكانا يستعرضان كل ما سمعه من قبل عنه . خفة ظله وسرعة بديهته فى النكتة وتأثره الحاد شأن العصبيين دائما ،

ضحكه لأبسط الأسباب وبكاؤه لأتفه الأسباب وكيف عرف فيه خصومه كل ذلك وكيف استغلوه الى أبعد الحدود . وراح يتذكر قصة البلبل الذى كان يحتفظ به الزهاوى فى بيته وكيف حدثوه عن القيود والسجن الذى لا يحتمله البلبل ولا يقبله الفنان الذى لا يغنى الا بالحرية فيطلقه الزهاوى وهو فى أشد حالات التأثر ثم يعودون اليه مصورين له ما جناه حين أطلق هذا الطائر ليتلقفه العقبان فيلمحون عبرات الشاعر تترقرق فى عينيه .

ولكن ما سر هذا التناقض فى شخصية الزهاوى ؟ فهو على هذا التضخم الذى يدركه محدثه من أول وهلة لا تخلو تصرفاته من كثير من مظاهر الطفولة كما يروى الرواة عنه فهو صغير صغر الأطفال حين يعاتبهم وهو فى سذاجتهم حين يغضب مع زوجته فيقص ملابسها ثم يبكى أو حين تجره زوجه الى الحمام وهو يتأبى ويقاوم أمام الخدم أو حين يشاهد رواية « لطرزان » فاذا به يندمج وتظهر طبيعته على حقيقتها صريحة لا زواق فيها ويصفق مع الصبية للبطل أمام كل الناس وهو على كل الحالات بسيط المظهر والمخبر تفهمه دون عناء [1] .

أهذا الشذوذ والتناقض من سمات العبقرية ؟ ألا يمكن أن نرى عبقريا الا اذا كان هذا التناقض وذلك الشذوذ من طبائعه ؟ ان الشخص السوى قد يكون ممتازا فى تخصصه ولكن أكثر

(١) راجع جريدة الحرية (الزهاوى ذلك القلق ٢١ فبراير ١٩٥٦ ، الزهاوى ذلك الطفل ٢١ فبراير ١٩٥٧ لخيرى العمرى) .

العباقرة نجد فى حياتهم شـــذوذا غير عادى . ألم يكن لشوقى شذوذه ؟ فهو على ثرائه وكرمه حين يدعو أصدقاءه الى الطعـام لا يقبل منهم أن يقربوا الطبق الذى يختاره . ألم يكن لأبى نواس شذوذ آخر خطير ؟

ولو تتبعنا العباقرة فى العالم الغربى لوجدنا ألوانا من التصرفات الغريبة . ولكن ما سر هذا الشذوذ عند الزهاوى ؟ أيرجع الى أن شخصيته فى جوهرها ضعيفة وكل ما يبديه من ضروب القوة قشرة خارجة وتعويض سرعان ما يذوب عند أول رذاذ يسقط عليه ؟ أن الأدلة كثيرة تؤكد ذلك . فهو قلق رعديد حين يشاهد الجزارين يسيرون فى الطرقات ومع كل سكينه الضخم فيكتب الى معاون الوالى طالبا منع هذا المنظـر المخيف أو حين يدعى الى حفل المدرسة المأمونية فيجد البناء مهدما فيعود ادراجه خائفا فزعا أو حين يعرج على أحد الطرقات فيجد جدارا مائلا فيهرول عائدا ليسلك طريقا آخر . وقصته مع الشرطى أشهر من أن تذكر تفاصيلها حين طلب اليه أن يتوجه معه الى الشرطة فسار معه فى الطريق جزعا يصرخ ويستغيث بكل من يقابله طالبا اليه أن يبلغ « معـاون الوالى » أن الزهاوى مقبوض عليه حتى اذا وصل الى مركز الشرطة عرف أن هناك خطأ وقع وأن الامر لا يعدو أن شقيقه حاز سلاحا لم يجدد رخصته . وابتسم الزيات وهو يتذكر قصة الاقلام التى سمعها من تلاميذ الزهاوى فهوايته الكبيرة جمع الأقلام من كل الأنواع وهو لا يخرج الا وفى جيبه أربعة أقلام

أو خمسة على الأقل ، وقد حدث أن ورد نوع جديد الى أسواق العراق ثمنه أحد عشر دينارا فتوجه من فوره الى زوجته ومعه تلميذه الصراف يسألها أن تعطيه ثمن القلم وناقشته زوجته فى الثمن ، قائلة : أنت الفيلسوف المعروف الذى يقرأ الناس له ما كتبه بقلمه الرصاص أو حتى ما أملاه وعندك أكثر من أربعين قلما ولكنه أبى أن يترك هذا النوع الجديد دون أن يحوز واحدا وأخذ يستنجد بتلميذه لاقناعها وتوجه من فوره الى « عمر أفندى » بشارع الرشيد فرحب به مدير المحل وأراد أن يهديه القلم فأبى .

ولمح الزهاوى ابتسامة سريعة على شفة الزيات فسأله علام يبتسم ؟ فلم يسع الزيات الا أن يخبره أنه ابتسم حين رأى مجموعة الأقلام بجيبه فأجابه أنها أكبر هواية له الى جانب السينما التى يحب أن يرتادها لانها تطلعه على عوالم فتغنيه عن الرحلات ، ويدخن أكثر من مائة سيجارة فى اليوم وكان منذ سنوات يلعب « الداما » وله مقالة فى « اشراك الداما » عرض فيها مئات الانواع من الطرق الجديدة ولكن كل ذلك لا يحول بينه وبين القراءة المستمرة ، فهو أرق دائما يحس حين ينام كأن خناجر تعبث فى صدره فلا يلبث أن يفيق فزعا فلا يجد أمامه الا الكتب مطروحة حوله يطالع فيها ويطالع الى الصباح وحين يمل المطالعة ينطرح على وجهه يستلهم وحى الشعر أو شيطانه .

وسأله الزيات :

— لم تطيل قصائدك فتحوى البيت الردىء وتحوى البيت الجيد ؟ الا تنتخب منها بعد نظمها كما كان يصنع أبو نواس ؟

— ان أبياتى جميعا حبيبة الى كأبنائى ، فهل يقتل المرء ولده القبيح ؟

قال الزيات : لا عليك وقاما بعد أن تواعدا على اللقاء .

داعية القومية العربية

تجاوز الشيخ السبعين من عمره ، وتبدلت ملامحه فهو يلبس الطربوش أو « الكلاو » على رأسه بدلا من العمامة التى كان يحس أنها تقيده ، وأسدل شعر لحيته وسوالفه وشاربه ، فغدا أشبه بأهل الكهف ، وضمر جسمه ، أكلته الأيام والسنون ، وأصبح لا يقوى على المسير حتى وهو يستند على ذراع مرافقه

انه النظام الدورى ، فما أشبهه بأبيه فى أعوامه الأخيرة ، لولا أنه كان أشد منه صحة ، فلم تكن قدمه مشلولة ولم يكن به كل هذه الأوصاب .

— قم بنا يا ابن الصراف ، فما أتت على ليلة أثقل من البارحة ، عرضت لى فيها هموم ، فقم بنا نتنفس .

— أين أيها الأستاذ ؟

— تحت الشجرة على ضفاف دجلة ، عند قبر القائد الألمانى ، حيث اعتدنا الجلوس منذ سنوات خلت — وركب الصراف عربانة الشاعر من منزله بالشارع الذى سمى باسمه فى الأعظمية ، مخترقين حى الوزيرية وشارع الرشيد الى ضفاف دجلة ، حيث شجرة التوت الضخمة تنام فى أحضانها الطيور هانئة وادعة ، وعلى مدى النظر يمتد الشاطىء الذى

طالما طالعه صبيا ، وصخب على ضفافه شابا وأحس الصراف أن الشاعر غارق فى تأملاته ، يترنم بأبياته :

انظرينى اذا العنـــادل غنت
سحرا فوق منكب الشـــجراء

انظرينى ليلا اذا الشمس غابت
بعيون النجوم فى الظلمـــــاء

انظرينى اذا الخـــريف تراءى
آسيا من أشجـــاره الجـــرداء

انظرينى بين الفروج خـــلال
السحب سرا بعينـــك الزرقاء

انظرينى اذا نظـــــرت بعينى
وهى شكرى اليك عند البكاء

وقطع الشاعر انشاده ، والتفت الى تلميذه الصراف وهـــو يتمتم :

أتعلم أنى من أول الشعراء الذين وسعوا أفاق الشعر ، فقـــد نظمت فى كل ما يخطر على بال شاعر من أغراض ، فى الهوى ، فى الفلســـفة ، فى الوصف ، فى التعبير عن النفس ، فى الحث على التقدم ، فى السياسة ، وفى الاجتماع ، واستخدمت الأقصوصة ، ونظمت فى الجوانب الانسانية ، ولم أنس التاريخ ممثلا فيما بقى من رسوم وآثار .. أتذكر قصيدتى فى « المستنصرية » انها من أحب القصائد الى نفسى ، وان كانت قصائد الشاعر كأبنائه :

— أذكرها أيها الأستاذ فأنا أحفظ أكثر شعرك ، ولكن لم هذا الغناء الحزين الليلة ؟

— الليلة ؟ وماذا تطلب من شيخ يبلغ السبعين من عمره ، وأصبحت الحياة عبئا ثقيلا على نفسه وعلى جسده الواهى. ان الدنيا جميلة فى أعين الشباب بما فيها من حلو ومر ، الرقاد والسهاد ، حتى السهاد متعة فى زمن الشباب ولكن الشيخ قد يحب أن يعيش ، ولكنه محال أن ينظر فيرى جمال الحياة كما يراها الشاب ، فيكفى الحياة منه الا يتمنى الفرار منها . والأمل يجمل الحياة فى أعين الشباب ، ولكن الشيوخ حين يرون آمالهم تطير من بين أيديهم أملا بعد أمل فى شيخوختهم العاجزة ، فلا ينظرون الى الدنيا الا نظر الضرير .

— ولكنك يا أستاذ ، قد حلقت فى آفاق الشهرة ، وسبقت أكثر الشعراء فى دعوتك الجديدة الى القومية العربية ، فخلدت اسمك ، وما زال الناس هنا فى بغداد وهناك فى البصرة يرددون أبياتك :

ليس يبقى من الشعوب اذا ما
وطأتها الوغى سوى أقواها
لا تعوز العرب اليها ليل الا
وحدة قد وددت أنى أراها
واذا ظلت العروبة أشتاتا
فلى الشك أن يطول بقاها

بقيت ممـا قد بنتـه طلول
وقف المجد فوقها فبكاها (١)

— نعم أنى أتوقع أن تقوم حرب عالمية جـديدة ، فنذر الشر بدأت تلوح فى الأفق وأتوقع للعروبة كل الخير فى ظل وحدة عربية بعد أن تنتهى الحرب ، فامكانيات العرب ضخمة اذا اتحدوا ، ووحدتهم أصيلة جذورها التاريخ الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد والأمل الواحـد فى الخلاص من كابوس الاستعمار ، واذا كان السـاسة قد صمتوا ، فان الشعراء والفنانين لم يصمتوا أبدا ، ودورهم لا يقـل أبدا عن دور الأدب فى الأعمـال التخميرية التى أسرعت بالثورة الفرنسية وبالثورة الشيوعية وهيـأت الأذهان لها ، فكل ما أخشاه أن ينشأ جيل جديد يحسب أن هـذه الحدود المصطنعة ، والأعـلام الاقليمية هى التى ينبغى أن يقدسها ويمنحها كل هواه . وقد قلت قصيدة جديدة لم أتمها بعـد تدور حول هذا المعنى نفسه ، ثم بدأ يردد :

هى وحـدة ميسورة
لـولا يـد العابثينا (٢)

ان العروبة ليس تأمن غارة المستعمرينا
الا بوحـدتها ونعم وسـيلة المتفكرينا

(١) الثمالة ص ٤٢ .
(٢) الثمالة ص ٦٨ .

وهى التى اتحدت قديما
بينهـا لغـــة ودينـا
دخلوا العرين ولو أبى الأ شـــبال ما دخلوا العرينا

* * *

قل للعــروبة أسرعى
لا ينفع المشى الوئيــد
واذا العتـــاد أردته
فالنـــار عندك والحديد
والى شـــهيد ان يكن
بك حاجــة فأنا الشهيد

— انها رائعة يا أستاذ أطال الله عمرك ومتعك بالصحة ...

— قم بنا يا ابن الصراف ، فان الصحة لم تعد تتحمل برد الليل.

خاتمة المطاف

عندما وقف الزهاوى يلقى أبياته فى رثاء الكاظمى أول يونيو عام ١٩٣٥ ، كان الضعف قـد بلغ به كل مبلغ حتى لم يقو على الوقوف ، فجلس ينشد :

يا بلبـل الشعراء مالك صامتا
من بعد تغريد بشعرك مشجن
قد سرت قبلى للردى متعجلا
ولعلنى بك لاحـق ولعلنى

أحس الجمهور أن الشيخ قد انبهرت أنفاسـه ، وأن عبراته تجرى على خديه ، ويبدو أن احساسا مبهما جعله يدرك أنه لاحق به عما قريب ، فكانوا يعزون أنفسهم فى الكاظمى وفى الزهاوى ، وان تمنوا له طول العمر ، فعزيز على العراق أن يفقد شـاعرين مرة واحدة ، وأى شاعرين الكاظمى والزهاوى .

ومرت ثمانية شهور بعدها ، حتى كانت ليلة الوداع فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٣٦ ، حين دعاه مريده القديم روفائيل بطى الى حفلة شاى أقامها بمناسبة وجـود المازنى ويوسف داغر بالعـراق وكان روفائيـل بطى يسكن الى جوار الزهاوى بنفس الشارع ، فلبى الشاعر الفيلسوف الدعوة وكان قد أكمل قصيدته

فى العروبة . دخل الشيخ باسما يصافح الجميع ويشد على أيديهم بحرارة هاشا باشا ، وألقى قصيدته تحية للضيفين الكبيرين . ثم انتهى الحفل ، وتفرق السمار وعاد الشيخ الزهاوى الى بيتـه ، ولكنه لم ينم ليلته . فقد أحس بألم فى صدره ، وفزعت زوجـه الوفية ، فجلست الى جواره تحتضنه وتسأله عما به ، ولكنه لم يتكلم ، كان قد فارق الحياة ، بعد أن هده طول الصراع وانتهت قصة خصبة طويلة من قصص الكفاح والطموح .

وفى الصباح كانت الأنباء قد بلغت بغداد كلها ، فحضر رئيس الوزراء ومحافظ العاصمة وتلاميذه ومريدوه لا ليجلسوا اليه ، ولكن ليسيروا فى جنازته مودعين الشاعر الفيلسوف الى مقـره الأخير .. ووقف الرصافى على قبره يرثيه وهو يبكى :

أيها الفيلسوف قد عشت مضنى
مثل ميت وصرت بالموت حيـا
انت فرد فى الفضل حيا وميتا
حزت فى الحالتين ذكرا عليـا
سوف أبكى عليك شجوا وانى
كنت أبكيك فى الحياة شجيـا

وتتابعت مراثى الشعراء بعد ذلك ، حتى بلغ ما ألقى فى رثائه ألف بيت جمعتها مجلة الحديث الحلبية .

ورأى ياسين الهاشمى رئيس الوزراء وصديق الشاعر أن قبر الزهاوى بعيد عن الطريق العام ، وأراد أن يكـرم الفيلسـوف

الكبير » فنقل رفاته فى الليلة التالية الى جوار قبر الامام أبى حنيفة بالأعظمية . وهناك أقيم له ضريح ضخم [1] .

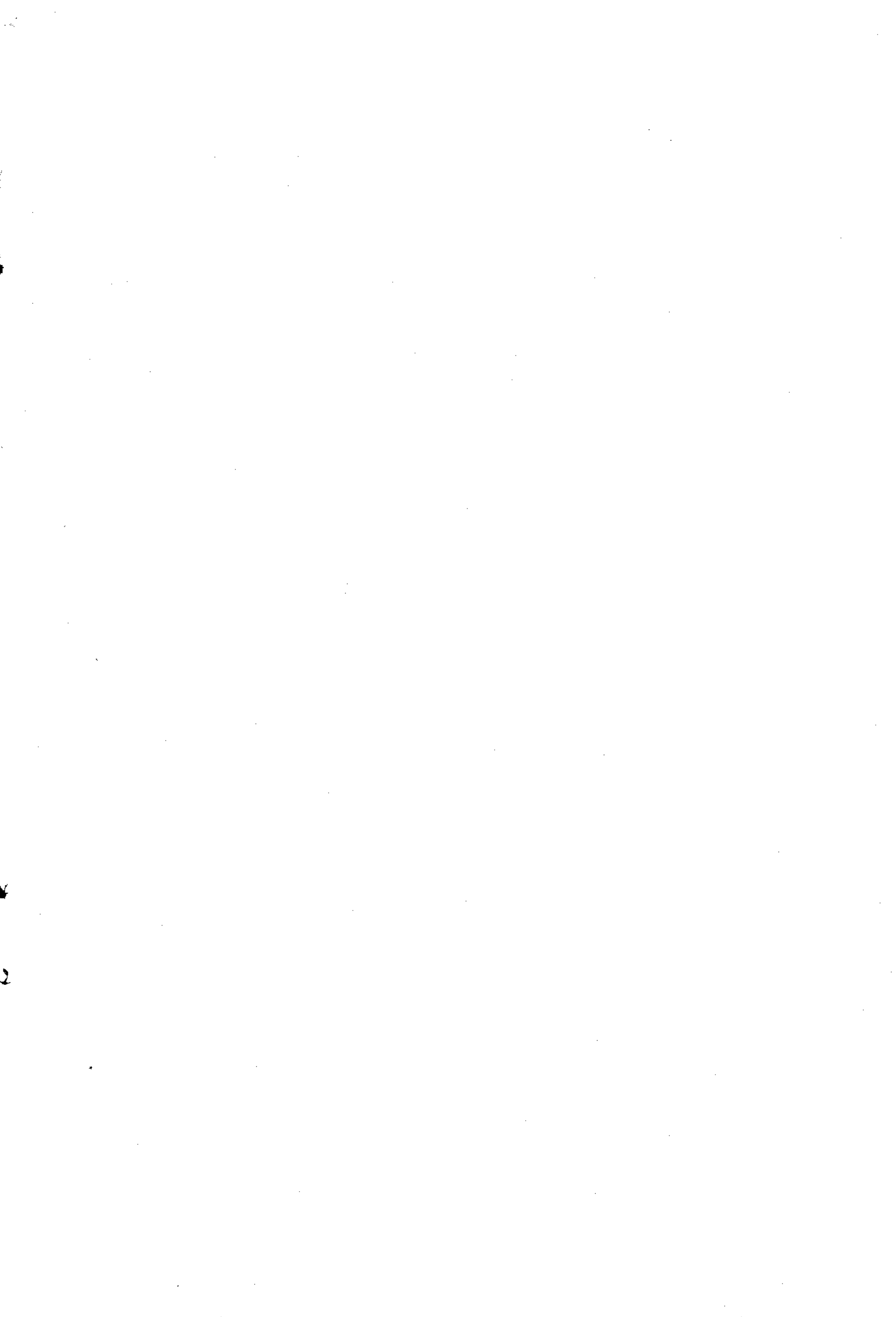
كان وقت الغروب ، عندما اجتزت الساحة الى المقابر أسأل عن مقبرة الزهاوى ، ودلنى الحارس اليها فوجدت مقبرة كبيرة كتب عليها أبيات الشاعر :

قرأت اسمك المحمود فى الليل والضحى
اذ الشمس تستخفى اذ الشمس تطلع
فحققت أن الكون بالله قائم
وأيقنت أن الله للكون مبدع
وأنك معنى والخليقة لفظه
وأنك حسن والطبيعة برقع

وأمام المقبرة نبتت شجرة توت ضخمة تظللها ، كأنما ترد الدين للشاعر الذى كان يصدح تحت فروعها منذ سنين . وعجبت للشاعر الكبير الذى كان يملأ المجالس بشعره ونوادره وما زال يشغل بغداد حتى اليوم . كيف يرقد هكذا وحيدا ، وقد كلح باب المقبرة المهجورة ، وتناثرت قبور جديدة حوله تسد الطريق اليه ، وتساءلت : أتراه مطمئنا فى جدثه الى العودة للحياة ، كلما تجددت الأرض ، فى نظامها الدورى ؟

---

(١) ذكر لى هذه الرواية محمود صبحى الدفترى وكان آذ ذاك محافظا للعاصمة .



المراجع

الأحلام بين العلم والعقيدة لعلي الوردي .. .. بغداد ـ ١٩٥٩

الأدب العصري لرفائيل بطي .. القاهرة ـ ١٩٢٣

أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث للونكريك .. .. بيروت ـ ١٩٤٩

الأغاني الشعبية عبد الرازق الحسني ج ١ .. .. بغداد ـ ١٩٢٩

الأوشال للزهاوي .. .. .. بغداد ـ ١٩٣٤

البغداديون أخبارهم ومجالسهم ابراهيم الدروبي .. .. .. بغداد ـ ١٩٥٨

تاريخ العالم العربي لعزت عبد الكريم وآخرين .. .. القاهرة

تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي .. .. بغداد ـ ١٩٥٦

تاريخ العراق السياسي الحديث لعبد الرزاق الحسني .. .. لبنان ـ ١٩٥٧

تاريخ القضية العراقية لمحمد مهدي البصير .. .. بغداد ـ ١٩٢٤

تاريخ مساجد بغداد لمحمود شكري الألوسي .. .. بغداد ـ ١٣٤٦ هـ

تاريخ نجد لأمين الريحاني .. .. بيروت ـ ١٩٢٧

الترياق الفاروقي لعبد الباقي العمري القاهرة ـ ١٣١٦ هـ

الاتجاهات الأدبيـة فى العالم العربى
لأنيس المقدسى .. .. بـيروت ـ ١٩٥٢
الشمالة للزهاوى .. .. بغـداد ـ ١٩٣٩
الثورة العراقية الـكبرى لعبـد آلله
فيـاض .. .. بغـداد ـ ١٩٦٣
الجاذبية وتعليلها للزهاوى .. .. بغـداد ـ ١٩١٠
حركة البعث ماهر حسن .. .. القـاهرة ـ ١٩٦٢
الحقائق الناصـعة فى الثورة العراقية
لآل فرعون وآخرين .. .. .. بغـداد ـ ١٩٢٠
حقيقة الزهاوى لمحمد مهدى العبيدى بغـداد ـ ١٩٤٧
دراسـات فى الشعر العربى المعاصر
لشوقى ضيف .. .. القـاهرة ـ ١٩٥٩
الدولة العثمانيـة والشرق العربى
محمـد انيس .. .. القـاهرة
ديوان الزهاوى .. .. القـاهرة ـ ١٩٢٤
ديوان الطاطبـائى .. .. .. صـيدا ـ ١٣٣٢ هـ
رباعيات الخيام ترجمة الزهاوى .. بغـداد ـ ١٩٢٨
رباعيـات الزهاوى .. .. .. بـيروت ـ ١٩٢٤
رحلات عبد الوهاب عزام .. .. القـاهرة ـ ١٩٣٩
زعماء الاصلاح أحمد أمين .. .. القـاهرة ـ ١٩٤٨
الزهاوى بين الثـورة والسـكوت
لعبد الرزاق الهلالى .. .. .. بغـداد ـ ١٩٦٤
الزهاوى الشاعر اسماعيل أدهم .. الاسكندرية ١٩٣٧
الزهاوى الشـاعر القلق ليوسف
عز الدين .. .. بغـداد ـ ١٩٦٢
الزهاوى وديوانه المفقود هلال ناجى القـاهرة ـ ١٩٦٢

سحر الشعر لرفائيل بطى .. .. القاهرة ـ ١٩٢٢
السنن النفسية لتطور الأمم
لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر القاهرة ـ ١٩٥٠
السيف البارق لمحمد سعيد
النقشبندى .. .. بغداد ـ ١٣٢٨ هـ
شخصيات عراقية لخيرى العمرى بغداد ـ ١٩٥٥
شرح « المجلة » لمنير القاضى .. بغداد ـ ١٩٥٥
الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر
ليوسف عز الدين .. .. .. بغداد
شعراء بغداد لعلى الخاقانى .. .. بغداد ـ ١٩٦٢
الصحافة فى العراق لروفائيل بطى القاهرة ـ ١٩٥٥
صور من العراق عبد الرزاق الظاهر القاهرة ـ ١٩٤٧
العراق لفيليب ايرالاند ترجمة جعفر
خياط .. .. بيروت ـ ١٩٤٩
العرب والترك لتوفيق على برو .. القاهرة ـ ١٩٦٠
العقائد لعمر عنايت .. .. .. القاهرة
العقيدة والشريعة فى الاسلام لجولد
تسيهر ترجمة محمد يوسف منسى
وآخران .. .. القاهرة ـ ١٩٤٦
عمر الخيام للصراف .. .. .. بغداد ـ ١٩٦١
غرائب الاغتراب لأبى الثناء الألوسى بغداد ـ ١٣٢٧ هـ
الفجر الصادق للزهاوى .. .. القاهرة ـ ١٩٢٣
الفكر العربى الحديث لرئيف خورى بيروت ـ ١٩٤٣
فى غمرة النضال سليمان فيضى .. بغداد ـ ١٩٥٢
قاسم أمين ماهر حسن .. .. القاهرة ـ ١١٦٣
قلب العراق أمين الريحانى .. .. بيروت ـ ١٩٣٥

القومية العربية تاريخها وقوامها
ومرايها لمصطفى الشهابى .. .. القاهرة ـ ١٩٥٨
الكائنات للزهاوى .. .. .. القاهرة ـ ١٨٩٦
الكلم المنظوم للزهاوى .. .. بيروت ـ ١٣٢٧ هـ
كلمات لقاسم أمين .. .. .. القاهرة ـ ١٩٠٨
اللباب للزهاوى .. .. بغداد ـ ١٩٢٨
المجمل مما أرى للزهاوى .. .. القاهرة ـ ١٩٢٤
محاضرات عن جميل الزهاوى لناصر
الحانى .. .. القاهرة ـ ١٩٥٤
محاضرات فى اقتصاديات العراق
لعبد الرحمن الجليلى (مطبوعات
معهد الدراسات العربية بالقاهرة)
مختار الزهور لأنطون الجميل .. القاهرة
مختصر تاريخ بغداد لعلى ظريف
الأعظمى .. .. بغداد ـ ١٩٢٦
المرأة فى الاسلام لمحمد حمدى النشار القاهرة ـ ١٩١١
معروف الرصافى لبدوى طبانة .. القاهرة ـ ١٩٤٧
معروف الرصافى لرؤوف الواعظ .. القاهرة
ملقى السبيل اسماعيل مظهر .. القاهرة ـ ١٩٢٤
وحى الرسالة للزيات .. .. .. القاهرة ـ ١٩٥٢

لم تذكر الدوريات ضمن مراجع البحث لعدم الاختلاف فى طبعاتها .

فهرس

الباب الأول : فى بغداد

صفحة

بغداد وما حولها ٩
زهاوى فى بغداد ٣١
عشق الأدب ٤٠
فى مجلس أبيه ٥٢
الشاب الطموح ٦٢

الباب الثانى : فى الآستانة

رب الأسرة ٧٥
ضيف السلطان ٨٥
الأستاذ ١٠٠
فى المعركة ١٠٨
فى مجلس المبعوثان ١٢٢

الباب الثالث : فى مصر

فى غمرة السياسة ١٣٣
الرحيل ١٤٦
فى مجلس الأعيان ١٦٢
الاصابة ١٦٩
صراع مع الرصافى ١٧٨
مع العقاد ١٨٧

صفحة

في مقهى الزهاوي ١٩٣
المهرجان ٢٠٠

الباب الرابع : الحكيم

الفيلسوف ٢٠٩
الشعر الهادف ٢١٧
رباعيات ورباعيات ٢٢٦
ليلة عصيبة ٢٣٣
الشيخ ٢٤١
داعية القومية العربية ٢٤٨
خاتمة المطاف ٢٥٣

تصويب

وردت بالكتاب بعض أخطاء مطبعية تستدرك أهمها فيما يلى :—

صفحة	سطر	الخطــــأ	الصـــواب
٤	٨	يستبدل السطر لتكراره	وصلت إلى بغداد فوجدت أن الشاعر مازال يشغل الناس ، فهذا
٤	١٤	ومنهم	وفهم
٥	٩	فقص	فقصص
٣٢	٨	أعداؤهم	أعداءهم
٤٠	الأخير	المنشأة	النشأة
٤٨	٦	تفرخ	تفرح
٥٥	٢	المعمران	المعمدان
٨١	الأخير	يصرخ	يصرّح
٩٤	٤	ويعنى	ويغنى
٩٦	١١	رمى	رعى
٩٨	١٧	عوض	عرض
١٠٦	١	حضورهم	مصورهم
١١٤	٩	مسموع	مسجوع